اليوم التالي
THE DAY AFTER

تهجير بعد تهجير
الذاكرة الشفوية لفلسطينيين سوريين

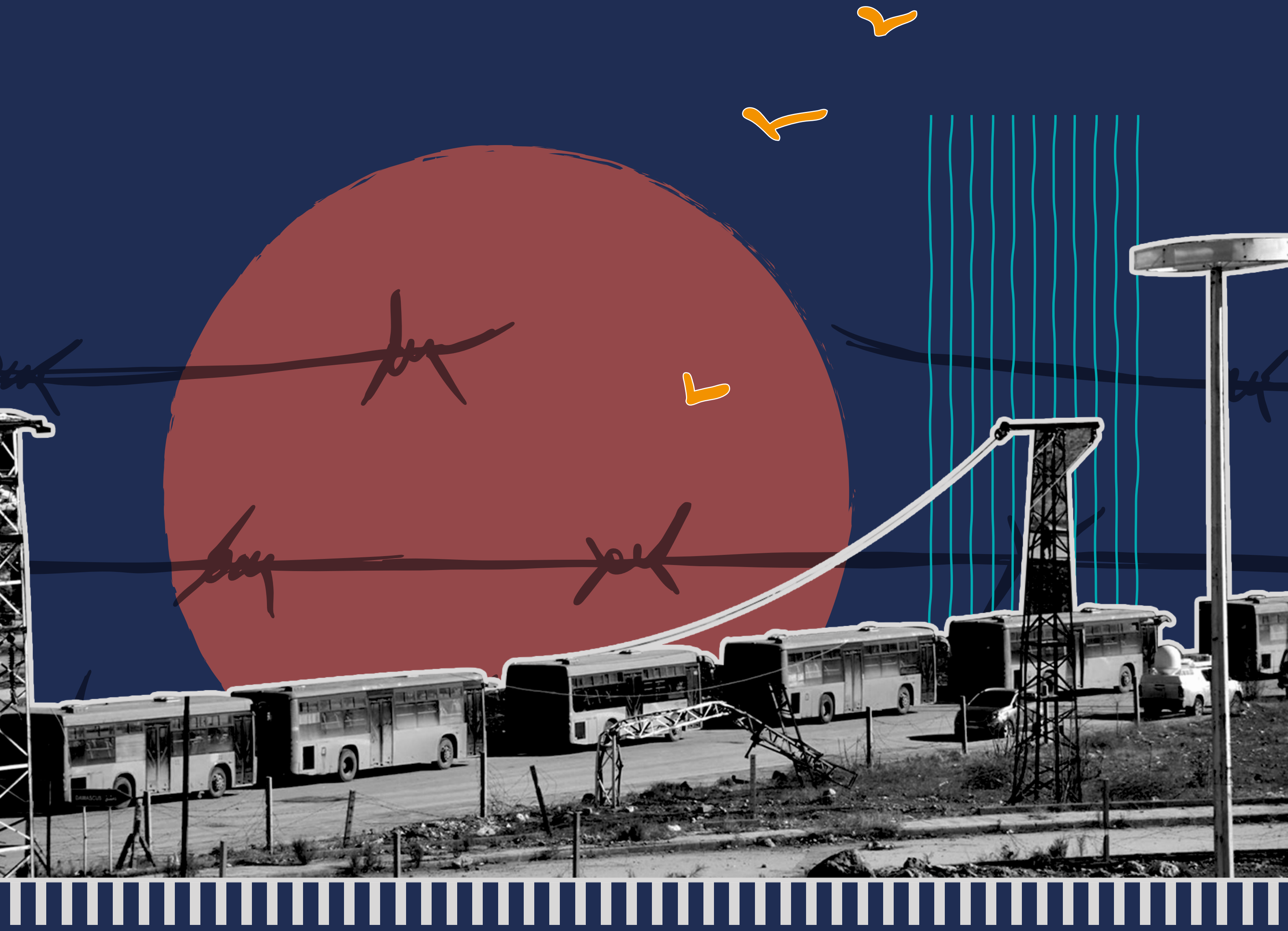

تمّ بالتعاون بين "منظمة اليوم التالي" و "رابطة المهجرين الفلسطينيين"

اليــــوم التالـــــي
لدعم الانتقال الديمقراطي في سوريا

THE DAY AFTER
Supporting Democratic Transition In Syria

تهجير بعد تهجير
الذاكرة الشفوية لفلسطينيين سوريين

تمَّ بالتعاون بين "منظمة اليوم التالي" و "رابطة المهجرين الفلسطينيين"

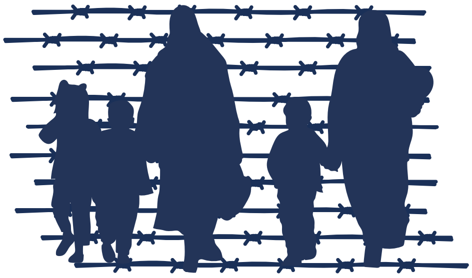

2022

© جميع الحقوق محفوظة لمنظمة اليوم التالي

منظمة اليوم التالي (TDA) هي منظمة سورية غير حكومية أنشئت عام 2012، تعمل على دعم الانتقال الديمقراطي في سوريا، ويتركز نطاق عملها في المجالات التالية: سيادة القانون، العدالة الانتقالية، إصلاح القطاع الأمني، تصميم النظم الانتخابية وانتخاب الجمعية التأسيسية، التصميم الدستوري، الإصلاح الاقتصادي، والسياسات الاجتماعية.

الفهرس

المقدمة 1

البداية في درعا 3

كم منزل في الأرض يألفه الفتى 20

في البحث عن حمص 30

حكاية مخيم اليرموك 40

وقعنا بين المطرقة والسندان 49

الخروج من خان الشيح 55

هجّرونا لأسباب طائفية 62

على الأقل كنا أحضرنا ثيابنا 70

فعلنا كل ما في وسعنا 78

خاتمة 93

مقدمة

يعرّف التاريخ الشفوي بأنه تاريخ المهمشين أو تاريخ من لا تاريخ لهم. وربما من هنا جاء النضج الملحوظ له في الحالة الفلسطينية بالمقارنة مع المحيط العربي. وقد أسهمت في ذلك تجربة الاقتلاع الواسع في نكبة عام 1948، والزمن الطويل اللاحق الذي صار يهدد معالم الذاكرة التي تحتل موقعاً مركزياً في المسألة الفلسطينية. ولأسباب مشابهة يمكن للمتابع أن يرصد تزايد الاهتمام بالتوثيق الشفوي لتجارب السوريين خلال العقد الأخير الذي شهد تغيرات عميقة، سياسية واجتماعية وديموغرافية، في حياتهم.

ينصب اهتمام هذا الكتاب في المساحة التي تجمع التجربتين؛ إذ يعنى بتوثيق شهادات شفوية لعدد من الفلسطينيين-السوريين الذين عانوا من تجربة "التهجير القسري". جامعاً بذلك بين استضعافين متداخلين، ومنفتحاً على بعد تاريخي يتمثل في ربط الرواة الذين سجلنا شهاداتهم بين ما تعرضوا له وبين ما سبق وسمعوه من حكايات الأجداد عن التهجير الأول.

لا يطمح التاريخ الشفوي إلى الحلول محل التاريخ المحترف المكتوب، بل إلى سد ثغراته ودعم سرديته الكبرى بتجارب حارة وحية. ومن هنا فإن هذا الكتاب لا يسعى إلى رصد موضوعي للتفاعل الفلسطيني مع ما جرى في العقد الأخير من حياة سوريا. فقد كُتبت في هذه المسألة أبحاث عديدة، وبعض الكتب، وتقارير صدرت عن جهات ذات خبرة. ولكنه يهدف إلى التركيز على حالات من لحم ودم توضح الجانب الإنساني لنتائج جريمة التهجير القسري، بعد أن أنجزت منظمة "اليوم التالي" بحثاً، غير منشور، بعنوان "خارطة التهجير القسري" رصد حصولها في مختلف أنحاء الأراضي السورية طيلة عشر سنوات.

في هذا البحث نهدف إلى أنسنة هذه التجربة وتقديمها بعين من رآها ولسانه، عبر عشر شهادات عن الاقتلاع الفلسطيني السوري الجديد، روعي فيها أن تكون متنوعة قدر الإمكان، وإن كانت خصوصية مخيم اليرموك، بوصفه عاصمة الشتات الفلسطيني والعاصمة السياسية للفلسطينيين السوريين، فرضت نفسها حتى في بعض الشهادات التي كانت مادتها من خارجه.

اعتمد هذا العمل على مقابلات مصورة أو مسجلة، أجرتها الباحثات رشا بركات وعبير علي وميادة خضر وهبة عيد، والأستاذ ثائر أبو شرخ، بين كانون الأول 2021 وشباط 2022. تم على تفريغها وتحريرها بشكل يحافظ على طابعها الشخصي، وخصوصية تجربتها، ولغتها المنفردة، فضلاً عن قناعات أصحابها. ولذلك يبدو من النافل التنبيه إلى أن الآراء الواردة فيها هي تعبير عن أفكار قائليها، لا عن فريق العمل ولا عن "رابطة المهجرين الفلسطينيين في الشمال السوري"، صاحبة الفكرة، ولا عن منظمة "اليوم التالي" التي دعمتها.

روعي في اختيار الرواة أن يكونوا من مخيمات أو تجمعات فلسطينية سورية متباينة، أملاً في تقديم أوسع صورة عن تجارب التهجير القسري المتنوعة، دون الطموح، طبعاً، إلى تغطية شاملة أو نموذجية أو تمثيلية. غير أن التعدد الذي حرصنا عليه في الاختيار ربما يسمح بإلقاء الضوء على جوانب مختلفة من موشور هذه التجربة، كما على خلفيتها السورية العامة.

الشهادات التي نقدمها هنا مؤلمة في الغالب. قلة منها فقط بنهايات سعيدة. وما زالت المراكب الواهنة تحمل الباقين نحو مستقبل مجهول، نتمنى أن يحمل حياة عادلة لكل السوريين "ومن في حكمهم" كما يصف التعبير الرسمي السوري الفلسطينيين السوريين.

فحتى النصف الأول من القرن العشرين لم تفصل حدود بين سوريا وفلسطين، وتداخل السكان في جوانب اقتصادية واجتماعية. وعندما حصلت النكبة في أيار 1948 هاجر عدد كبير ممن سيصبحون لاجئين فلسطينيين إلى مناطق متعددة من سوريا ما لبثت أن عرفت المخيمات التي بلغ عددها 13 في دمشق وريفها وحلب ودرعا وحمص واللاذقية وحماة، والتجمعات الفلسطينية التي بلغ عددها 14، فضلاً عن سكان من أصل فلسطيني ضمن النسيج الاجتماعي للمدن السورية. وعقب نكسة حزيران 1967 اضطر عدد كبير من الفلسطينيين الذين كانوا قد لجأوا إلى الجولان السوري إلى النزوح مجدداً، برفقة أهل المنطقة من السوريين، وتوجهوا إلى العاصمة دمشق وضواحيها أساساً.

وفي عام 2011 بلغ عدد الفلسطينيين في سوريا نحو 600 ألف لاجئ، وفق تقديرات وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين "الأونروا"، وهي الهيئة الدولية المسؤولة عنهم. وقد أُعطي اللاجئون الفلسطينيون من عام 1948 إلى سوريا، بموجب القانون 260 لعام 1956، حقوقاً في التملك والعمل والدراسة والوظائف الحكومية تعدّ أفضل مما حازوه في بعض الدول المجاورة، مع حفاظهم على هويتهم الوطنية وتمسكهم بحق العودة.

نلاحظ، في الشهادات التالية، أن مخطط الحصار والتجويع والقصف ثم التهجير المباشر كان طاغياً بسبب تكرار حدوثه في التجربة السورية أصلاً، ومنها الفلسطينية-السورية التي أضيف إلى معاناتها في الشمال تخلي الأونروا عن اللاجئين هناك رغم بقائهم في نطاق عملها جغرافياً.

وفي النهاية ننبه إلى أن عدداً من الشهادات تضمّن أحكاماً قاسية في حق مناطق مجاورة أو مضيفة ومجتمعاتها، مما قد يصل في بعض الأحيان إلى كونه "خطاب كراهية" يعمّم صفات سلبية على أقوام أو جماعات. ورغم ذلك آثرنا المحافظة عليها، دون تبنيها بالطبع، وذلك لتجنب فرض الوصاية على النصوص وأصحابها وتقديم شهادات معقّمة، ومخادعة بالتالي. والأهم من هذا تسليط الضوء على عرَض اجتماعي مصاحب للإحساس المديد بالظلم، اعتقالاً وقصفاً وحصاراً وتهجيراً، ثم للوقوع في دائرة التنافس العالي على الموارد الضيقة وسبل إنفاقها في ظروف ضعف فرص العمل في الشمال واكتظاظه بالمهجّرين المحتاجين إلى سكن وغذاء وصحة وتعليم. أملاً في أن تثير هذه الأحكام، النزقة وغير الموضوعية، الاهتمام لدى من يستطيع المساعدة في تيسير الاندماج الاجتماعي.

البداية في درعا

في المخيم شكلنا كتيبة أسميناها طاهر الصياصنة، لم نختر اسم شهيد فلسطيني فهدفنا هو الثورة السورية

أنا أبو عبادة. ولدت في مخيم درعا للاجئين الفلسطينيين عام 1982. درست الابتدائية والإعدادية في مدارس الأونروا وأكملت دراستي في المدارس الحكومية.

فلسطيني أردني!

كان نظام البعث الأسدي يتعامل مع الفلسطينيين كأنواع، من أتى من فلسطين إلى سوريا مباشرة سنة 1948 سمّوهم لاجئين فلسطينيين. أخذوا بعض الحقوق كالتوظيف والتملك لدرجة معينة، مثلاً بيت أو سيارة ولكن دون أن يتساووا بالحقوق مع السوريين. عام 1970 كان أبي مع منظمة التحرير الفلسطينية وأتى إلى سوريا بعد أحداث أيلول. كل من أتى في هذه الفترة أطلق عليه فلسطيني أردني، من أتى من لبنان سموه فلسطيني لبناني وهكذا حسب الدولة التي كان يعيش فيها. وكفلسطيني أردني كنت محروماً من كثير من الحقوق كحق التوظيف. كنا مثلاً نخشى دخول أقسام الشرطة، يلقبونا هناك بالنازحين ويهددوننا بالتحويل إلى دائرة الهجرة وبالتسفير إلا إذا كفلنا أحدهم.

أبي وأمي من مواليد فلسطين. حكى أبي لنا يومياً عن البلاد وكيف كانت، وعن عائلته، وعن الأراضي، وعن صعوبات الحياة في ذلك الوقت. يتذكر التهجير عام 1948، كان عمره حينها ثماني سنوات، كيف اضطر أبوه أن يأخذهم واحداً واحداً وكيف حرموا من بعضهم حوالي السبع سنوات وكيف عاشوا فترة في غزة وعن طبيعة الحياة هناك وتعامل المصريين معهم. كان العمل الفدائي بعد سنة 1967 في الأردن باتجاه فلسطين وكان أبي مع منظمة التحرير الفلسطينية وذهب معهم إلى الأردن. كان الرجال الأوائل للعمل الفدائي هم ممن عاصروا النكبة وأغلبهم من مواليد فلسطين. وكانت هذه المرحلة في الأردن التي تمتلك الحدود الأكبر مع فلسطين. أمي أيضاً حكت لنا عن بلدها. هم فلاحون، حكت لنا كيف كانوا يزرعون الحقول والبيارات.

مخيم درعا

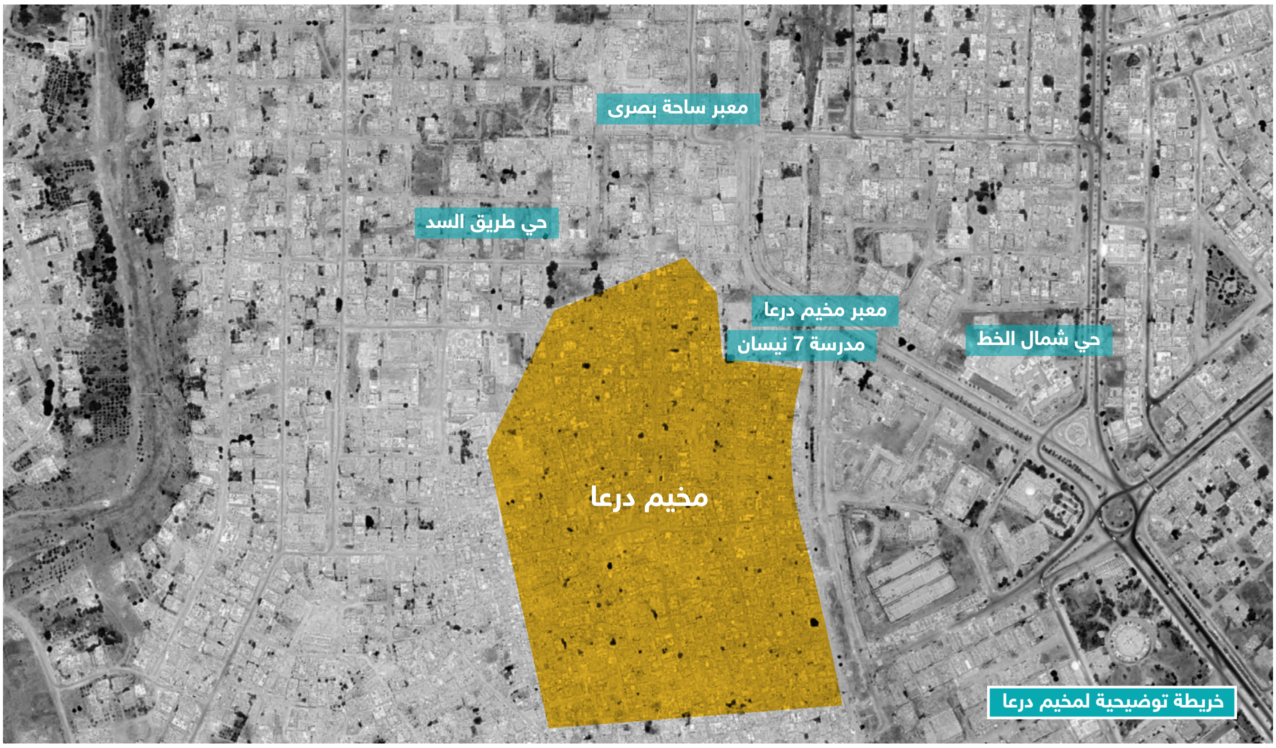

بعد انتقالهم إلى سوريا أقاموا في مخيم درعا الذي أنشئ عام 1948 لمن لجأوا إلى درعا. أرض المخيم كانت لسوريين من عائلات درعا المعروفة؛ سويدان وقطيفان وغيرهم. وسكان هذا المخيم أغلبهم من حيفا ويافا وعكا وصفد. فلسطينيو العشائر من طبريا أو حول صفد ذهبوا إلى الجولان التي كانت لا تزال جزءاً من سوريا قبل أن يسلمها حافظ الأسد للإسرائيليين في عام 1967. القسم الذي لجأ إلى الجولان معظمهم عاد ولجأ إلى مخيم درعا. في المنتصف يوجد مخيم 48، في الشمال يسمّونه المخيم الشمالي والجنوب المخيم الجنوبي. حسب تعريف الأونروا اسمه مخيم طوارئ الـ67 الفلسطينيين الآتين من الجولان. بجوار المخيم تماماً مخيم آخر للنازحين السوريين من أبناء الجولان. أتوا في عام 1967 أيضاً وأنشأوا مخيمهم الأكبر من مخيمنا لأن عددهم أكبر.

بجوار المخيم تماماً حي طريق السد، وكان طويلاً جداً. بعده وادي الزيدي وهو أحد روافد نهر اليرموك الكبيرة. كنا ننزل من الوادي ونذهب إلى العباسية التي كانت منطقة مدافن لنا. الحدود الأردنية كانت على مسافة ربع ساعة بالسيارة. جنوب المخيم بعد الوادي تقع درعا البلد ضمن مسافات قريبة جداً، كيلومتر أو أقل بين كل منطقة وأخرى.

بلغ عدد السكان المسجلين لدى الأونروا في مخيم درعا، عام 2000، أحد عشر ألفاً وخمسمائة فلسطيني. إذا استثنينا مخيمَي المزيريب وجلين، مع وجود عدد كبير غير مسجل لدى الأونروا. كان العدد الكامل يبلغ أربعين ألفاً داخل المخيم وخارجه في 2011.

في المخيم عاصرت البيوت الطينية. من أتى قبلنا سكن في خيم، لكن عندما أتينا كان المخيم قد أصبح بيوتاً طينية أو اسمنتية. كان المخيم مخدماً من الأونروا من التعليم إلى الصحة والمرافق والخدمات، أقاموا بيوتاً لكثير من الناس، أتوا بعمال النظافة يومياً. مخيمنا ليس كبيراً إذ تبلغ مساحته واحد كيلومتر مربع تقريباً. عندما كنا صغاراً كانت المنطقة موحلة ومليئة ببرك المياه. في ما بعد

نُظمت أكثر، صارت البيوت اسمنتية وارتفعت طابقاً أو اثنين. الشوارع عبّدت وصارت الأمور أفضل، لكنه يبقى مخيماً بأزقة ضيقة بالكاد تتسع لمرور شخص واحد، تشبه كثيراً مخيمات لبنان. يسمع الجيران أحاديث بعضهم، يشمون روائح طعامهم، من شدة ضيق وتلاصق البيوت. لذلك حاولت كل عائلة أن تسكن بجوار بعضها، الأولاد والإخوة والأعمام. في ما بعد صار المخيم طارداً للسكان نظراً لاكتظاظه، لم تتبق فيه أي مساحة للسكن.

عند بداية الثورة كان عدد من هم خارج المخيم مقارباً لعدد من في داخله، سكنوا في مناطق متاخمة ولم يبتعدوا عن أهلهم وبيئتهم.

في المخيم لم نشعر بأي شيء غريب حتى رأينا الحياة خارجه، الناس وحياتهم وتفكيرهم يختلفون عنا، هنا تظهر طبيعة المخيم. لم نكن نذهب خارجه فكل احتياجاتنا موجودة فيه، السوق على بابه وكل من يعمل فيه هم من أبناء المخيم. كنا نظن أن هذا هو العالم بكامله. أنا أخالف من يتغزل بالمخيمات. صحيح أنها عزيزة على قلوبنا لكنها ليست وطننا، وطننا فلسطين وحقنا فيها وفي العودة إليها هو ما يجب أن نركز عليه.

بيوت المخيم صغيرة لا تتسع حتى للأطفال لذلك كان الأولاد يقضون وقتهم في اللعب في الشارع الممتلئ بهم دوماً إلى حلول المساء وموعد النوم. صباحاً كان الكل يخرج، إلى المدرسة أو العمل أو لجلب الأغراض. المرحلة الثانية كانت الانتقال إلى الجامعة وبعدها مرحلة العمل. في ما يخص التعليم لم تكن لدينا مدارس حكومية، كل المدارس كانت تتبع الأونروا مثل مدرسة طيطبا وكفركنا والصفصاف وطبريا وكفرلام وعين كارم، وكانت تعمل بدوامين وغير مختلطة. أسماء المدارس كانت على أسماء قرى في فلسطين المحتلة، كان من النادر ذهاب الطلاب إلى مدارس حكومية خارج المخيم إلا بعد المرحلة الإعدادية ذهبنا إلى المدارس الحكومية التي كانت قريبة جداً من المخيم، وكذلك في بقية المخيمات.

العادات والتقاليد في فلسطين لا تختلف كثيراً عن مثيلتها في درعا، حتى في عادات الطعام نتميز نحن ببعض الأكلات أكثر ويمتازون هم بغيرها، أكلة المليحي مثلاً من أكلات درعا المشهورة، لم أكن أحبها ولكني بعد تجربتها وجدتها لذيذة جداً وصارت من أكلاتي المفضلة والتي تذكرني بدرعا. اللباس أيضاً متشابه بين مناطق شمال فلسطين وشمال الأردن وجنوب سوريا، ترتدي النساء الشرش والعصبة والثوب، والرجال يرتدون الكلابيات أو سراويل، لكن النساء حافظن على لباسهن التقليدي أكثر من الرجال. في المخيم كان اللباس نفسه الذي يرتديه أهل درعا. مع أن لكل منطقة في فلسطين لباسها الخاص، حيفا والخليل وبئر السبع كان لباسهم مختلفاً عن أبناء درعا أو قرى شمال فلسطين البدو كعرب المَواسة والشمالنة والصبيح والهيب والوهيب والزناغرة. هؤلاء عاداتهم ولباسهم وطعامهم، وحتى لهجتهم، تشبه مثيلتها في جنوب سوريا، درعا وسهل حوران. فالأصول كلها بداوة. وكنا نقيم جزءاً من الأعراس في الشارع في ساحة كبيرة كالدبكة والتعليلة والحنة كما أهل حوران.

يربط أهل المخيم انتماء قوي لبعضهم، قد تحدث خلافات ولكن عند حدوث أي مناسبة سيتآلفون ويوجدون سوية. في الجنائز كان الجميع يخرج للدفن والعزاء من كل الأعمار، كانت مشاركة الناس بعضهم كبيرة دائماً. أيضاً كانوا يحبون المشاركة في المناسبات الفلسطينية، كسنوية انطلاق الفصائل أو ذكرى شهيد أو أي مناسبة وطنية فلسطينية، وكان هذا جميلاً.

اقتصر دور الفصائل الفلسطينية الموجودة في المخيم على خدمات أطلقت عليها خدمات توعوية،

لتوعية الجيل الفلسطيني الناشئ بفلسطين. في الحقيقة لم يكونوا إلا أفرع أمنية، القيادة العامة والانتفاضة جماعة أبو موسى والصاعقة. عندما كنا نقوم بأعمالنا الاجتماعية كان يأتي من يخبرنا بأنهم يقولون في مكاتب الفصائل بأننا نؤسس تنظيمات طلابية، والكلام ذاته كان يتكرر عنا في حزب البعث. كان هذا قبل سنتين أو ثلاث من قيام الثورة.

الربيع العربي يلوح

قبل الثورة بحوالي الشهر أو أقل أخذوا أربعين رجلاً من المخيم إلى الأمن العسكري، منهم من بلغ الثمانين من العمر. قسم الأمن العسكري في درعا يأتينا باستدعاءات فنذهب إلى فرع أمن المعلومات في السويداء ليحققوا معنا. في ذلك اليوم لم نتأخر هناك، جعلونا نوقع أوراقاً تحت التهديد. مررنا على ثلاثة محققين في البداية ثم أدخلونا إلى مكتب الضابط. طبعاً لم يأخذونا كلنا في المرة نفسها بل أخذوا كل اثنين أو ثلاثة معاً. سألونا عن شيئين؛ أولاً عن إعادة هيكلة حركة فتح في المنطقة الجنوبية، طبعاً يقصدون فتح أبو عمار، وكان هذا التنظيم محظوراً. قال الضابط، واسمه نضال كما أذكر، إن هذا التنظيم خائن وتعرفون ما معنى هذا إذا ثبت انتماؤكم له. أما السؤال الآخر، وهنا لب الموضوع، حينها كانت الثورة المصرية قد انتصرت وتم إسقاط حسني مبارك، سأل المحقق أنه إذا حدث في سوريا كما حدث في مصر فما هو موقفنا؟

سألته: وما الذي حدث في مصر؟ كان خائفاً من مجرد النطق بكلمة ثورة، قال: يعني تنحي الرئيس المصري أو شيء كهذا. قلت: تقصد الثورة المصرية؟ لن يحدث عندنا مثل هذا. وصرت أعطيه أسباباً مثل أن في مصر طبقتين واحدة غنية والأخرى مسحوقة وهي من قامت بالثورة، بينما في سوريا توجد كل الطبقات ولهذا لن يحدث ما حدث في مصر. أعجبته الحكاية وصدقها.

بدا واضحاً أن النظام السوري لم يحسب أي حساب لشعبه ولا لقدرته على القيام ضده، وبرأيهم أن من سيقوم ضدهم هم الذين اضطهدوهم، أي الفلسطينيين الذين "هلكوهم" بين الأفرع الأمنية، لهذا سألني المحقق عن تنظيم طلابي في المخيم. لم يتكلم أحد عن هذا الموضوع إلا القيادة العامة[1] التي تزود أفرع الأمن السورية بالتقارير الأمنية، هذا التقرير كان قديماً ويعود إلى سنتين أو ثلاثة، بقية الرجال حققوا معهم أيضاً بسبب تقارير عن انتمائهم لفتح التي كانت تعتبر من التنظيمات المعادية للنظام السوري حينها.

كان اعتمادهم على التقارير وحسب محتواها يأتون بنا. كانوا ولا زالوا لا يمتلكون أساليب أكثر تطوراً. ما أصبح لديهم الكثير منه هو التعذيب ووسائل التعذيب. يومها لم يضربونا بل اكتفوا بالإهانات والشتائم والصراخ. بعد التحقيق أدخلونا إلى مكتب كبير لضابط كان يتابع قناة الجزيرة التي تعرض برنامجاً عن وثائق من ويكيليكس تدين حركة فتح. قال إن هذه الوثائق فضحتنا، مع أنهم لم يثبتوا علينا شيئاً في التحقيق. قلت بأننا لسنا منتمين لفتح وقد وقّعنا على تعهدات بذلك. بعدها أعطانا رقم هاتف وقال إذا احتجتم شيئاً أو كان لديكم ما تريدون إخبارنا به بإمكانكم الاتصال على هذا الرقم، اذهبوا. وهكذا جرى مع بقية المجموعة، منهم من هددوه بوظيفته أو بأولاده.

بين المحقق والمحقق كانوا يخرجوننا إلى غرفة انتظار حيث اجتمعت مع شاب من نوى أخبرني أن تهمته هي المشاركة في كتابة شتائم بحق الدولة على حائط الفرن. إذاً كان هناك ما يحدث في درعا،

[1] - الجبهة الشعبية – القيادة العامة: فصيل فلسطيني موال للنظام السوري. قاده أحمد جبريل حتى وفاته عام 1202.

لكن النظام كان لا يزال قادراً على السيطرة والتستر على ما يجري. خصوصاً مع عدم قناعته بأن أحداً من السوريين كان قادراً على الوقوف بوجهه، ظنوا أن الفلسطينيين أو الأكراد في الشمال فقط هم من يمكن أن يحاولوا هذا نظراً للاضطهاد الذي مورس عليهم من قبل النظام.

شرارة الثورة

يوم الجمعة بتاريخ 18 آذار كنت على علم بخروج مظاهرة ضد اعتقال الأطفال الذين كتبوا على جدران مدرستهم عبارات مثل "إجاك الدور يا دكتور" و"سوريا حرة". كانت كتابات بخطوط طفولية وأخطاء إملائية، ومع ذلك اعتقلهم الأمن السياسي.

ذهب الأهالي والمخاتير ووجهاء درعا لرؤية عاطف نجيب، المسؤول عن الأمن السياسي وابن خالة بشار، وطالبوه بالإفراج عن أطفال الابتدائي، ليرد عليهم بكلام بذيء وتهديدات من نوع أن اذهبوا من هنا قبل أن أحضر زوجاتكم وأمهاتكم... وانسوا الأولاد. تم الاتفاق على مظاهرة يوم الجمعة في درعا البلد، وذهبت لأشاهد المظاهرة التي خرجت من جامع حمزة والعباس. هناك رأيت بعض أبناء المخيم ولكننا كنا متسترين ولم يجرؤ أحدنا على كشف نفسه أمام الآخر. لم أذهب للمشاركة بل لأراقب الوضع، هل سيخرجون فعلاً؟

وقفوا يومها أمام الجامع العمري، أحدهم كان يحمل ورقة A4 كتب عليها "بدنا أولادنا اللي بالسجن". بدأت المظاهرة وكانت خجولة وهتافها بسيطاً: "بدنا أولادنا اللي بالسجون، بدنا أولادنا اللي بالسجون". السوريون ليسوا معتادين على المظاهرات، لم يكونوا خائفين، أعرفهم جيداً وأعرف أن أهل درعا البلد لا يخافون لكنهم لا يمتلكون ثقافة المظاهرات بعكسنا إذ كنا نعيش الانتفاضة وكنا نتظاهر داخل المخيم لهذا كنا أكثر خبرة في هذا المجال. حوالي العصر أتى من يقول بأن المحافظ سيأتي لرؤية المتظاهرين فأخذ الناس يشتمون المحافظ. منطقة الجامع العمري أثرية تحتوي حجارة سوداء ضخمة، صعدها أحدهم وصار يحاول تهدئة الناس ويقول إن المحافظ آت ليرى طلباتهم، أحد المتظاهرين قال للناس: أنزلوه هذا بعثي كلب لا تستمعوا إليه إنه كاذب. كانت هذه الكلمة كبيرة بالنسبة لي، مع أنني ناشط في المخيم اجتماعياً وسياسياً إلا أننا لم نكن نمتلك هذه الجرأة، حتى في بيوتنا كنا نادراً ما نتجرأ على قول هذا فكيف علناً وفي الشارع! قلت في نفسي هل من المعقول أنني سأجد هذا الشارع في مكانه الأسبوع القادم؟ لا شك أن النظام سيدمره كلياً فهو جزار. تلك كانت قناعتنا عنه.

أخذ أحد الرجال يردد هتافات تشتم حزب البعث وإيران وحزب الله والناس يرددون وراءه. مع أن درعا كانت ممتلئة بأعلام حزب الله والمقاومة. كان هذا الكلام كبيراً ومفاجئاً، هناك شيء أكبر مما تخيلت.

بقيت أراقب الوضع وقد أصبح الوقت بعد العصر، كنت في الأعلى في درعا البلد، توجد منطقة كبيرة يسمّونها نزول أو طلوع البلد، شارعان أحدهما ذاهبٌ للأعلى وآخر للأسفل حيث شركة الكهرباء وسيارات الإسعاف والإطفاء. كان صديقي وشريكي في العمل موجوداً في الأسفل، كنا نعمل سوية في كل شيء ونتشارك كل الأسرار، كان ممن ذهب معنا إلى التحقيق أيضاً. قال لي إن المحققين من فرع الأمن العسكري في السويداء كانوا موجودين ومسلحين، أيضاً الضابط نضال من قسم أمن المعلومات كان موجوداً ومعه بندقية روسية (كلاشينكوف). المسألة كبيرة إذاً طالما أتوا بهم من السويداء.

قبل المغرب قتل اثنان؛ محمود الجوابرة وحسام عياش. أطلقوا النار مع أن المتظاهرين لم يكونوا مسلحين، كانوا يهتفون فقط، لكن النظام لا يقبل حتى بمجرد الهتاف أو الشتائم، الرد الوحيد الذي يفهمه هو القتل. في اليوم التالي خرج الناس لتشييع الشهيدين إلى تربة البحّار، أبناء المخيم كانوا موجودين كل واحد بمفرده. كنا نخاف حتى من بعضنا ولكننا نريد المشاركة، شعرنا بعلاقة مع ما يحدث، هذا نبضنا والكلام الذي نريده، شرط أن يكون السوريون من يريد هذا وأن تكون هذه هي قناعتهم هم لا أن نفرضها عليهم. تربيت مع الشعب السوري وحتى الآن عندما يسألني أحدٌ عن جنسيتي أقول أنا فلسطيني ولكن "ترباية" حوران.

أثناء التشييع أرسل النظام المخاتير التابعين له إلى بيوت الشهداء ليمنعوهم من إقامة مجالس عزاء. أتوا إلى بيت الجوابرة فأجابهم والد الشهيد: أريد أن أعرف ابني مات شهيد وإلا ماذا؟ لماذا مات وعلى حساب من؟ أنتم قتلتموه. هددوه إذا تقبل العزاء بابنه فأجابهم بأن أصدقاء ابنه هم من سيشيعونه ولا يستطيع منعهم. أخذ الشباب الشهيدين للدفن، كان نهار السبت، قتل في التشييع ما بين عشرة إلى خمسة عشر شاباً.

هنا أخذ الناس يرمون الحجارة مقابل القنابل المسيلة للدموع والرصاص الحي. طبعاً لم يستعمل النظام إلا الرصاص الحي، الرصاص المطاطي لا نعرفه ولم نسمع عنه إلا عند اليهود[2]. احتقنت الأمور كثيراً في اليوم التالي وإن كانت لم تزل محصورة داخل درعا البلد. كنا نخرج للمشاركة ولكن المخيم كان هادئاً حينها.

درعا البلد هي المنطقة القديمة من المحافظة؛ أذرعات كما هو اسمها في كتب التاريخ. أراد أهل درعا البلد النزول إلى وسط درعا، أي إلى القسم الحديث من المدينة واسمه درعا المحطة. فالمدينة مقسومة بين درعا البلد وهي الأقدم والأعلى ودرعا المحطة وهي الأكبر والأحدث، وفيها أحياء كبيرة. أفرع الأمن كانت موجودة في درعا المحطة ومنها كان يأتي إطلاق النار. الكثير من الناس نزلوا كالسيل وهم يرمون الحجارة، ابتدأنا من جهة المخيم ووراءنا الجيش والشرطة ومكافحة الإرهاب الذين كانوا في المقدمة فاضطروا للانسحاب والهروب. في اندفاع الناس هذا حدثت أشياء كهجوم بعض المتظاهرين على المحكمة وحرقها وكنت شاهداً على ما حدث، كان يوم الأحد 20 آذار. حاول بعض المتظاهرين إخماد الحريق وكنت من الذين تشاجروا مع الفاعلين، قلنا لهم لماذا تحرقون المحكمة؟ ما علاقتها؟ ما الذي يوجد فيها وتريدون إحراقه؟ هل تخبؤون جرائم لكم؟ على الأغلب كان هذا هو السبب. هجم عليّ بعض من كانوا يحرقون، فأتى لنجدتي شابان من المخيم.

بعدها ذهبنا إلى مبنى سيرياتل الذي كان قد تم اقتحامه من قبل بعض الشباب وأخذوا الخزنة الموجودة فيه إلى الخارج وحاولوا فتحها على مرأى من كثيرين، معتبرين هذا جزءاً من المظاهرة. حسام الترعاني وشخص آخر معه يقال له أبو أحمد منعهم من فتحها. اتصل حسام بشخص اسمه عماد الدالي وكان ضابط أمن المخيم في الأمن العسكري وطلب منه المجيء لاستلام الخزنة. حسام كان المسعف الأول في المخيم، لم يقبل بما حدث وقال إن هذه سرقة. كان رجلاً محترماً جداً في المخيم وكلمته لها وزن وقيمة والكل كان يحترمه. كان فقيراً ومع ذلك كان يسعف الجرحى بسيارته دون مقابل. اعتقل لأربع مرات وكل مرة كان يخرج بعد الكثير من الضرب والتعذيب ليستمر بإسعاف الجرحى، حتى قتل برصاصة من النظام وهو في سيارته ولم يجد من يسعفه، مات بسبب نزيف في قدمه.

[2] - في العامية ربما استخدم الفلسطينيون عادة لفظة "اليهود" للدلالة على الصهاينة أو الإسرائيليين.

يومها هرب عناصر النظام باتجاه بيت المحافظ والأمن العسكري الواقع بعده. كنا سعداء جداً بهروبهم ونحن نطاردهم بالحجارة، اعتقدنا أننا نطردهم من درعا. دخلنا حديقة بيت المحافظ، أحرقنا أشجار السرو وكان الوقت قد أصبح بعد المغرب. قارب عددنا المائتي شخص وكثير من أبناء المخيم كانوا هناك. بعد دخولنا بقليل ظهرت البنادق وابتدأ إطلاق النار علينا. للأسف لم يتم تصوير ما حدث. هو المكان نفسه حيث سقط صنم حافظ الأسد في درعا أمام بيت المحافظ بفارق عرض شارع فقط بعد هذه الحادثة. جرح العشرات يومها وقتل حوالي خمسة أشخاص. بعد التمثال يوجد مدرج اسمه ساحة تشرين وبعده محطة القطارات التي هربنا إليها، كنت أتعثر وأقع وأقف من جديد وأهرب. كلما أطلقوا النار كنت أرتمي على الإسفلت لتجنب الإصابة برصاصهم. أصبت بكسر في معصمي (كسر زورقي) وبورم في قدمي. اختبأت في المحطة ووجدت أشخاصاً أعرفهم. هناك من أصيب ونحن داخل المحطة، كانوا يأخذونهم ويذهبون فلم يبق معي إلا شخص اسمه عبد اللطيف كلاب واثنان آخران لا أعرفهما. أذكر أنهم ساعدوني في قلب حاوية القمامة لأختبئ وراءها، كنت متألماً جداً. بقينا هكذا مدة قبل أن نعود إلى المدينة، ما زالت المحكمة تحترق، من كان حول سيريتل تم طردهم. عدت إلى المخيم لأجد أن امرأة كبيرة في السن لقبها أم سامر من عائلة أبو عمشة قد أصيبت برصاصة أثناء دخولهم لأخذ خزنة سيريتل، أطلقوا النار على جوانب المخيم فأصيبت المرأة على شرفة بيتها، عالجها الدكتور عادل الحصان رحمه الله.

دخلنا المخيم نرصد الأجواء. من رأيتهم من المشاركين أعرفهم ويعرفونني ولكن لا أحد يتكلم. اجتمعت مع الشباب الذين كنت أجتمع بهم قبل الثورة، سألوا ماذا سنفعل؟ قلت إن القرار أصبح واضحاً، يجب أن نكون مع الثورة ولا رجعة عن هذا القرار. في اليوم الأول ذهبت لأراقب ولم أكن متأكداً مما سيجري، لكن وبما أن القتل صار بهذه الوحشية والعلنية فنحن مع الثورة، ولكن علينا أن نعمل بهدوء.

عدت إلى المنزل وأخبرت أختي بما حدث. أعطتني أدوية ومع ذلك لم أستطع النوم من شدة الألم. في اليوم التالي ذهبت إلى دمشق منذ الصباح الباكر. كانوا قد نصبوا حواجز على الطريق. وكانوا يُنزِلون الركاب ويعتقلونهم على أسماء عائلاتهم إذا كانوا من عائلات درعا البلد، كالمسالمة والمحاميد وأبا زيد وقطيفان وسويدان والزعبي وحمد. اعتقلوا كل من ينتمي إلى هذه العائلات بغض النظر عن موقفه.

صديقي طبيب في مشفى الباسل بمخيم اليرموك ذهبت لرؤيته في المستشفى. وعندما سألني عن سبب إصابتي كذبت وقلت إنني أتيت لزيارة خالتي بمناسبة عيد الأم ولكنني وقعت عن الدرج. بعد أن فحصني قال: هذه ليست بسبب الوقوع عن الدرج، هذا النوع من الإصابات يحصل للرياضيين في الملاعب وأنت لست رياضياً. أصبتَ في المظاهرة. حاولت الإنكار، ولكنه طلب أن أخبرهم في قسم الأشعة أنني أصبت في الملعب. مع ذلك عرفوا أنني كنت في المظاهرة رغم إصراري أن إصابتي رياضية. قال الطبيب إن معصمي بحاجة إلى عملية جراحية ولكنه لن يقوم بها لأنها ستعطلني. وبخصوص قدمي قام بعملية بزل للسائل الذي كان يسبب الورم ومنعني من المشي عليها لعشرين يوماً. قال إنه لن يجبّرها كي لا تلفت نظر الحواجز على الطريق. خبأت يدي بثيابي فقد كان الجو بارداً وما نزال نرتدي الثياب الشتوية. عدت إلى البيت وأخذت إجازة من عملي لعشرين يوماً.

الفلسطينيون في الثورة

كان وسام الغول أول شهيد فلسطيني في الثورة السورية[3]. وسام من غزة وكان يسكن خارج المخيم. كان عائداً من عمله بسيارته ليجد على الطريق من جهة دوار البريد والأمن السياسي، الذي نشر قناصين في الشوارع، أشخاصاً مصابين بالرصاص فأخذ ينقلهم للإسعاف عندما أصيب برصاص قناص ومات. لم يقم أهله مجلس عزاء له خوفاً من النظام بعد تهديدهم ومنعهم، لكن أغلب المظاهرات السورية في ما بعد كانت تمر إلى بيته وتقف بجانبه وتهتف تحية وتكريماً لأول شهيد فلسطيني في الثورة السورية.

بعد أيام قليلة ظهرت مستشارة الأسد بثينة شعبان على الإعلام وقالت: نحن نعلم لماذا خرج أهل درعا بمظاهراتهم، سنعطيكم زيادة في الرواتب ومنحاً مالية للموظفين. أي بحسب كلامها القضية قضية مادية لا أكثر. قالت أيضاً إن من افتعل هذه الحركة هم عناصر "فتح الإسلام" في مخيم درعا. ظهر فصيل فتح الإسلام في عام 2007 في مخيم نهر البارد في لبنان. شخص اسمه شاكر العبسي ومجموعته أنشأوا هذه الحركة الدينية التي أساءت كثيراً للمشروع وللقضية الفلسطينية ولسمعتنا كفلسطينيين. أتت هذه الحركة نتيجة تخطيط المخابرات اللبنانية وحزب الله والمخابرات السورية لتدمير مخيم نهر البارد، وهذا ما حدث. عندنا لا يوجد فتح الإسلام ولكنهم استخدموها كذريعة فقط.

بعد انتهاء تصريحات بثينة شعبان أوعزوا لبعض عناصر النظام وأعوانهم بالخروج في مظاهرة رافعين صور بشار الأسد. مثل أبو يحيى الندى مسؤول فرع حزب البعث بدرعا وأحمد خليفة (أبو خليل) مدير مدرسة ومدرّس وبعثي، و(أبو أحمد نضال) من القيادة العامة، و(أبو سامر الحموي) الذي كان مع فتح الانتفاضة[4] وعاد وهرب لاحقاً.

في الوقت نفسه خرجت مظاهرة من خارج المخيم وهتفت: "يا بثينة يا شعبان شعب درعا مو جوعان". وقالت المظاهرة أيضاً إن مخيم درعا لا علاقة له ولم يكن هو البادئ، إنهم السوريون الذين ثاروا ضد النظام. وسقط خطاب شعبان.

دخول الريف

في ما بعد صارت قرى درعا تشارك في المظاهرات. أهل قرى درعا أقوياء جداً لدرجة خرقاء أحياناً. كانوا يأتون من جميع القرى سيراً على الأقدام بينما تواجههم البنادق لقتلهم. كنت ضد هذا القتل السهل. يحتاج الأمر إلى الحكمة مع الشجاعة. رأيت أهل القرى ومشيت معهم، كانوا يأتون من عدة طرق. أتوا من مسافات بعيدة قد تصل إلى أربعين كيلومتراً سيراً على الأقدام، يحملون أغصان الزيتون. قتل الكثير منهم على الطرقات في مجازر النظام، ومن كان يصل كان يموت في درعا. وصل عدد القتلى إلى مائة أو مائة وخمسين يومياً. برِكٌ من الدم والشحاطات ملأت الطرقات بسبب عدد القتلى الكبير. كل هذا وكنا لم نزل في الشهر الأول للثورة، في أول أسبوعين أو ثلاثة.

لاحقاً توسعت المظاهرات لتصبح صباحية وأخرى مسائية بشكل يومي وإن اختلفت المناطق. أهل القرى حرّكوا الموضوع بشكل كبير جداً، وأخذ شلال الدم يكبر. لم يعد هناك سبيل للتراجع أو العودة بعد كل هذا الدم. بقيت في تلك الفترة ملازماً البيت لعشرين يوماً بسبب إصابتي. خلالها تم هدم

[3] - في 32 آذار 1102.
[4] - فصيل فلسطيني موال للنظام السوري، انشق عن حركة فتح بقيادة ياسر عرفات في 3891.

الصنم. ومما ساعد في ذلك أهل القرى الذين أتوا كالسيل من كثرتهم، أوقعوه أمام بيت المحافظ. كان هذا أهم ما حدث خلال هذه العشرين يوماً. تعافيت وصرت أخرج كما في البداية، مظاهرة هنا وأخرى هناك، ومظاهرة يوم الجمعة التي يأتي إليها أهل القرى مشياً. كنا ملثمين دائماً لأننا واثقون بأن النظام إذا قبض على أحد من خارج درعا فسيستغل الموضوع لصالحه. استمر أهل درعا برفض أن يتم استخدام المخيم كشماعة. كنا نشترك معهم في التخطيط أحياناً، لكنهم رفضوا أن نكون في المقدمة. قالوا لنا لا تظهروا في مقدمة ما يحدث وابقوا في الوراء.

بعد أقل من شهر بعث النظام جماعات إلى أهالي الشهداء لإعطائهم مبالغ وصلت إلى مليون أو مليونين حسب ما سمعت لكل أهل شهيد. قسم كبير من أهل درعا أغنياء ولديهم أشغال كبيرة. أحد الآباء كانوا قد دفعوا له مليوني ليرة فأحضر فوقها ثلاثة ملايين وقال لهم: هذه خمسة ملايين، ولكن أعيدوا لي ابني. لا أريد شيئاً منكم. أعطيكم أكثر مما معكم ولكن أعيدوا لي ولدي.

اقتحام درعا البلد!

في مساء 24 نيسان نشر النظام حواجزه التي أطلقت النار في درعا المحطة، وانتشر الخبر عن نيته اقتحام درعا البلد في اليوم التالي. كيف سيقتحمونها؟ ماذا يعني اقتحام؟ كثير من التساؤلات التي دارت في رؤوسنا. تلك الليلة بقيت مستيقظاً حتى الساعة الثانية أو الثالثة فجراً ونمت بعدها متوقعاً أن اليوم التالي سيكون يوما اعتيادياً. ولكني أفقت في الصباح الباكر على صوت رصاص رهيب لدرجة أنني ظننته تحت بيتي، لم أجد شيئاً بجانب البيت، خرجت أمشي حتى وجدت بعض الأشخاص الذين قالوا إن النظام اقتحم درعا، وإن أول المقتولين شاب فلسطيني اسمه طاهر يعمل حارساً لمحل كمبيوتر. كان من الشباب الطيبين والمهذبين جداً، دخلوا إلى المحل الذي كان يعمل فيه وقتلوه. وأيضاً أقاموا الحواجز في المدينة وأقفلوها. قطعوا عنا الكهرباء والهواتف وكل شيء. كان هذا يحدث لأول مرة. حاصروا المخيم وطريق السد ودرعا البلد، ممنوع الدخول أو الخروج. نشروا القناصين لقتل أي شخص يمر في الشوارع. أصيب شاب اسمه أيمن. أصيب شخص آخر من عائلة المسالمة أعتقد أن اسمه أبو حسن، فأسعفناه إلى داخل المخيم. لم تكن هناك مشافٍ ميدانية في درعا بعد. كان أحد الأشخاص يمتلك بيتاً كبيراً في المخيم فتبرع لإقامة مشفى ميداني فيه. الدكتور عادل الحصان، اختصاصي الأنف والأذن والحنجرة، كان يسعف المصابين حتى نفدت الأدوية من عنده. بعدها استهلكنا كل الأدوية وإبر وقف النزيف. استطعنا الحصول على مضاد نزيف من مستوصف الأونروا. كان مغلقاً لكن تم فتحه وجلب عدة الضماد وكل ما يلزم لعلاج الجرحى. لم يعترض جماعة الأونروا عندما اكتشفوا ما حدث إما خوفاً أو ذوقاً، مع أن الذوق ليس من صفاتهم.

معظم من حاولنا إسعافهم كانوا يموتون بعد ساعات. بعد حوالي ساعتين أو ثلاث تناقشت مع الدكتور عادل في موضوع إقامة مشفى ميداني فقال إن بمقدوره تأمين كادر للعمل رغم صعوبة هذا الأمر، فقد كنا نحتاج إلى أطباء اختصاصيين، ولكن التجهيزات وإقامة المشفى هو جزء من عملنا كنشطاء. قال إن إصابات الكثيرين كانت في مواضع ليست من تخصصه وكان بمفرده ولذلك مات عدد كبير منهم.

وبالعودة إلى المعركة التي كانت تحدث على أكثر من محور، دخلت دبابات النظام إلى درعا البلد، ونحن أبناء المخيم كنا نرابط هناك بشكل كبير جداً، ولكن عندما كنا نعود إلى المخيم نعود للسرية

التامة. حاولنا تأمين ما يلزم للمحاصرين. لم يكن لدى المرابطين مياه ولا طعام ولا أدوية. في إحدى المرات جمعنا من بيوت المخيم أدوية زائدة عن الحاجة ووزعناها. حسام الترعاني من كان يوصل المواد في سيارته وكنت أرافقه رغم الخطر الذي كان يحيط بنا. الشخص الثاني الذي ساعد في هذا الموضوع كان موسى الطفوري، أبو أحمد، كان معروفاً جداً لضخامته ولطفه وكان محبوباً، كانت مشاركته كبيرة لإيصال ما يلزم. قتل في آخر هذه المعركة بعد أن كان بين المدافعين عن بيت الشيخ أحمد الصياصنة أثناء محاولات النظام اقتحامه.

استمرت المعركة أسبوعين مع التمشيط. بقينا ننزل ونعود حوالي العشرة أيام، وبعدها صار الطريق تحت سيطرة القناصات. من كان في درعا البلد استمر في المشاركة مثل أبو أحمد، أما نحن، الذين كنا نذهب ونعود يومياً، فلم نعد نقدر أن نتحرك. لا زال هناك معتقلون لحد الآن عند النظام من المشاركين ولهذا لن أذكر أسماءهم. قتل الكثيرون أيضاً، قتل موسى الطفوري ومصطفى البحطيطي من المخيم. أوس فلاحة كان مريضاً نفسياً ويتلقى العلاج لكنه لم يكن مجنوناً، شارك مع الشباب وأصر على البقاء. نجا من تلك المعركة بعد أن خبأه أحد أهل درعا، ثم قتل بعد تلك المعركة. أحد الأشخاص الموجودين حالياً في مناطق النظام أصيب إصابة بليغة ولا يزال يعاني منها حتى الآن.

بعد انتهاء الأسبوعين حاولوا منعنا من دفن القتلى، لكننا كدرعاويين نمتاز بالعناد وبياسة الرأس سواء أكنّا فلسطينيين أو سوريين. وقد كان هذا العناد إحدى الميزات التي خدمت الثورة، لا نتلقى الأوامر من أحد، مع بعض السلبية في هذه الميزة. ذهب الناس لدفن القتلى وتم إطلاق النار عليهم وقتل البعض.

بداية التسليح

مع انتهاء هذه المرحلة صرنا نعمل بناءً على فكرة أننا لا نريد مجابهة مع النظام الآن لعدم امتلاكنا السلاح الكافي. منطقتنا منطقة تهريب بما أنها حدودية. أخذنا سلاح المهربين، كل من كنا نعرف بأنه مهرب أخذنا سلاحه أو أعطانا إياه. لم يشتركوا معنا بل أعطونا أسلحتهم فقط. ومع ذلك لم يتوافر لدينا ما يكفي من أسلحة لتصبح المعركة متكافئة. كنا في مرحلة استماتة وفي حالة أقل من أن يطلق عليها لقب دفاع، دبابات مقابل بضعة بنادق.

استوعبنا أنه لا جدوى من المواجهة وأنه لا بد من الكر والفر. كانت الخبرة العسكرية لأهل درعا ضعيفة، ولهذا استعانوا بالفلسطينيين الذين يملكون خبرات قتالية قديمة في لبنان والأردن وفلسطين. لكن من كان يشارك منا كان يظل حذراً جداً في تدريبه، لدرجة أنني لم أعلم ببعض من دربوا إلا بعد انتهائهم من التدريب وخروجهم من المنطقة. بعد أشهر كنا نهاجم كتائب وثكنات وألوية لجيش النظام هنا وهناك وننتزع السلاح منهم. أحضرنا سلاحاً إلى المخيم وخبأناه. كنا نغطي وجوهنا دائماً، باستثناء شخصين ظاهرين وواضحين في المخيم هما يحيى السلطي رحمه الله والآخر ربيع حبيب أبو عاهد. كان وراءهما جيش كبير بوجوه مغطاة وكنت منهم. بقينا أكثر من سنة على هذه الحالة.

في أيام الجمعة كان النظام يأتي بأعداد كبيرة من عناصر الجيش. في إحدى المرات جاءت سيارات زيل الروسية وكانت مملوءة بالسلاح، تم وضعها أمام المتظاهرين وأمروا العناصر بالهروب منها، هجم الناس على السيارات وأخذوا كل ما فيها من أسلحة. فعل النظام هذا كي يقول إن المظاهرات في درعا مسلحة وليست سلمية.

كان لا بد للحراك أن يكون مسلحاً منذ البداية وليس سلمياً. هذا النظام مجرم يقتل من يقف في وجهه حتى لو بمجرد الهتاف، كان يقتل يومياً حوالي المائة أو مائة وخمسين شخصاً. كنت أرى أنه لا بد من قطع خطوط الربط بين درعا ودمشق، أي القطع بين أفرع الأمن وليس الجيش، أفرع الأمن هي من تحرّك الوضع وليس الجيش. كان يجب اقتحام مقرات الأمن، الأمن العسكري بقيادة لؤي العلي وجماعته، الأمن السياسي بقيادة عاطف نجيب ابن خالة بشار الأسد، أمن الدولة والجوية والجنائية أيضاً، هي من كانت تربط بين المحافظة والنظام في دمشق وهي من كانت تطلب التعزيزات وتطلب حزب الله وإيران وهي من كانت تنظّم الأمور، بينما كان عناصر الجيش ينشقون باستمرار، امتلأت بيوتنا بعناصر منشقين عن الجيش.

في 25 نيسان 2011 وجدنا عساكر ميتين معهم مهمات إلى الجولان. أحدهم كان من إدلب. كانوا قد أفهموهم أنهم ذاهبون للقتال في الجولان فوجدوا أنفسهم هنا. حالياً الجيش صار شبّيحة بمعظمه، أما في ذلك الوقت فكان عناصر الجيش شباباً طيبين يروننا ويغضون النظر، كثير منهم عرض الانشقاق والمساعدة. بينما كان عناصر الأمن وخاصة العسكري والجوية وأعوانهم في الشوارع هم المحركون الأساسيون للقتل والتشبيح في درعا. امتلكوا شبكةً كبيرةً من المخبرين. كانوا قلائل في البداية لكن عددهم ازداد كثيراً نتيجة منح الامتيازات للمخبر، كإعطائه جرة غاز أو ربطة خبز أو السماح له بالخروج لرؤية أهله. هناك من نفسه ضعيفة وهناك من لم يكن يفهم. لا أعذرهم أبداً ولكن هذا ما جعلنا في مواجهة مع الناس من حولنا. ولهذا، حسب رأيي، كان السلاح ضرورياً منذ البداية لنتجنب هذه المواجهة.

أتى أصدقاء كثيرون من مخيم اليرموك ليشاركوا في المظاهرات وخصوصاً يوم الجمعة. كانوا يأتون قبل يوم ويبيتون عندنا. في عام 2012 حاولت ومجموعة من الشباب العمل على التنسيق بين المخيمات. أحمد كوسا كان البارع بيننا بجمع الممثلين عن المخيمات، ومعه المهندس منير الخطيب الذي كان يستخدم اسم فارس كاسمٍ حركي وقد كان فارساً بالفعل. سافر أحمد كوسا إلى لبنان بحجة السياحة كتغطية أمنية، وهناك اتبع دورة في حقوق الإنسان أعتقد مع هيومن رايتس ووتش. بعد عودته قال لي إن لا أحد يعرف عن الجثث المحروقة، وكان النظام قد أحرق أربع جثث في مخيم درعا. عندما أخبرهم كوسا اكتشف أن لا علم لأحدٍ بوجود مخيم في درعا أصلاً. فاتفقنا على إنشاء موقع إلكتروني لحقوق الإنسان يمثل المخيمات الفلسطينية لتوثيق المرحلة. أخبرته أنني قد أنشأت صفحة أسميتها مركز التوثيق الفلسطيني (واثق)[5]، أوثّق فيها ما يحدث في منطقتي فقط. اتفقنا أن أستمر بالعمل في هذه الصفحة إلى أن يصبح الموقع الجديد جاهزاً. لا تزال هذه الصفحة موجودة وإن كان العمل فيها متوقفاً بسبب وفاة كل الكادر العامل فيها.

ابتدأ التسليح جدياً حوالي الشهر التاسع من عام 2011. في المخيم شكلنا كتيبة أسميناها كتيبة الشهيد طاهر الصياصنة. كان أحد المنشقين. لم نختر اسم شهيد فلسطيني فهدفنا هو الثورة السورية فقط.

[5] - https://www.facebook.com/Wathek.Daraa

الاقتحام الأول للمخيم

دخلنا معركتنا الخاصة الأولى عندما تعرّض مخيم درعا لاقتحام في 27 تموز 2012، قتل فيه من مجموعتنا أحد عشر شاباً. كنا في بداية شهر رمضان وكان يوم جمعة، عند الفجر وبعد السحور تجولت في المنطقة، لم يكن مستيقظاً إلا الشباب المرابطين متخفين. ذهبت بعدها لأنام، أيقظني اتصال هاتفي من أختي في التاسعة صباحاً لتقول لي أن أخرج لأن هناك دبابة بجانب بيتي. تسلقت بيوت الجيران لأهرب، وصلت إلى الشارع فوجدت شابين هما محمد المصري وعبد الرحمن الشملوني كانا يريدان إقامة دشمة لمواجهة الدبابات.

دخلت إلى المخيم لأجد يحيى السلطي الذي قتل مع المجموعة في ذلك اليوم. سألني ما الذي يحدث فقلت بأنني سمعت أن مخفر المخيم، الذي يحتوي أكثر من ستين عنصراً مع سلاحهم، سيقتحمون المكان، وأنهم أتوا بدبابات إلى جانب المخفر. اعتقدنا أنهم سيقتحمون المخيم لذلك استنفرنا. كان العقيد قحطان طبَاشة قد انشق منذ مدة قصيرة عن جيش التحرير الفلسطيني[6] السرية 421 صاعقة ولم يسبق له الخروج في أي معركة بشكل علني، وكانت هذه المرة الأولى التي يكشف نفسه بها. مثله أيضاً كان عمار أبو سرية (أبو قصي) يرحمه الله. حتى أنا خرجت بشكل علني يومها وبوجه مكشوف. كان عددنا كبيراً ولكننا لا نمتلك إلا عشرين بندقية وذخيرتنا قليلة. سلمنا القيادة للعقيد قحطان الذي قسّمنا إلى مجموعة بقيت في المكان نفسه وأخرى ذهبت لتهجم على مواقع النظام في السوق لتسحب الدبابات خارجاً. كنت مع من بقي داخل المخيم، كنا صائمين ومرهقين فدخلنا لنرتاح قليلاً. بعد قليل وردنا اتصال أخبرنا عن الشباب الذين قتلوا. أتى سليمان وأخذ كيس رصاص وجرى، وبعد حوالي ربع ساعة عاد ميتاً. ومات يحيى، ونورس الطحيني كان القناص قد مزق جسده. أبو علي الشملوني وشاب آخر كانا مصابين. كان توقيت صلاة الظهر عندما علمنا بوقوع معركة في المخفر بجانب المخيم. قال ربيع بأن لا يذهب أحد لأن القتال هناك صار عشوائياً وبعضنا قد قتل برصاص من معنا. أصر محمد المصري على المشاركة. حاولت منعه كثيراً ولكنه خرج. كان شاباً صغيراً عمره ثمانية عشر عاماً معه قناص M4 وكان يوجد منها قطعتان فقط في درعا وكان فخوراً بهذا. لم يرض أبداً أن يتوقف حتى لو كانت الجبهات واقفة. كان يخرج بمفرده. خرج مرة هو وشاب صغير آخر اسمه عبد الرحمن الشملوني فقنصا حوالي الستة عشر أو السبعة عشر عنصراً للنظام وأحضرا سلاحهم. مات محمد في هذا اليوم وهو يحاول اقتحام المخفر، ومات الكثيرون؛ عبد اللطيف كلاب والنابلسي. مات أغلبهم من النزف لعدم توافر العلاج. كانت معركة مفاجئة دون تجهيز. بقينا لأربعة أيام. أخذنا أسرى من النظام توزعوا بين المخيم وطريق السد. سمعت أن الذين كانوا في طريق السد أخذوا فدية من أهاليهم وأطلقوا سراحهم، نحن لم نمتلك هذه الثقافة، خبأناهم وأطعمناهم رغم قلة الطعام عندنا.

في اليوم الرابع انسحب الجيش الحر الموجود في المنطقة وليس فقط في المخيم، كل من حولنا انسحب ولم يبق غيرنا. أتى حسام الترعاني والشيخ أبو خالد، وكان مقاتلاً معنا من حيفا كبيراً في العمر، فأخذونا بسياراتهم. خرجنا إلى اليادودة وتركنا الأسرى في المخيم. سمعت أنه لما دخل النظام إلى المخيم ووجدهم أخذوهم إلى السجن. كنا ندفن القتلى في حديقة صغيرة بجوار المخيم، حفرنا فيها مجموعة حفر ودفنا الجثث، في الحفرة الأولى دفنا اثنا عشر شخصاً، الحفرة الثانية كانت على شكل حرف L، دفنت علي العربي فيها، شخص من عائلة الصياصنة، امرأة أيضاً، خضرة خلف وقد

[6] - شكّل عام 4691 ليكون جناحاً عسكرياً لمنظمة التحرير الفلسطينية، لكنه وقع في دائرة النظام السوري.

قتلت برصاص قناص وهي في الطريق، أستاذ فلسفة وجدناه مقنوصاً ودفناه، تحولت الحديقة إلى مقبرة في هذه الأيام الأربعة.

في مساء اليوم الرابع خرج الطيران وضربنا. خرجنا إلى اليادودة، تسحرنا هناك وغادرناها صباحاً إلى المزيريب ووصلنا حوالي الحادية عشرة صباحاً، عندما ضرب الطيران المكان الذي كنا فيه في اليادودة. أصبحنا مكشوفين إذن، لهذا بقينا مختبئين خارج المخيم لفترة. حدثت معركة في المزيريب وبعدها في زيزون وشاركنا فيها كأبناء المخيم. كان معنا قحطان طباشة وقتل في اليوم الأول من الشهر العاشر. على أثر هذا تم اقتحام المخيم بحثاً عن جثته، تقريباً في 4 تشرين الأول، لكننا كنا قد دفناه خارج المخيم. كانوا خائفين من تحويل جثته إلى رمز ولذلك اقتحموا المكان بحثاً عنها. وجدوا أربع جثث لشباب مقتولين بيد النظام لم يقدر أحد على دفنهم، فخبأهم الشباب تحت ألواح (زينكو)، وعندما وجدهم النظام قام بإحراق الجثث. أحدها كانت لعبد اللبودي وواحدة لشاب من عائلة العاتقي والثالثة لإبراهيم المصري وأعتقد أن الرابعة لمحمد فريج. محمد هو أخ أحمد وغيلان. قتل غيلان في أحداث اقتحام المخفر وأحمد في اليوم التالي برصاص قناص في المخيم، بعدهم بحوالي الشهرين مات محمد في هذه المعركة. طلبت منه الخروج ولكنه قال إنه لم يعد باستطاعته أن يخرج إذ صارت المواجهات أمامهم. في هذه المعركة أيضاً مات حسام الترعاني. كانوا أبطالاً ويحملون فكراً ثورياً، بغض النظر عن اختلافنا حول موضوع السلمية والتسليح. كان رأيي منذ البداية أن هذا النظام لا تنفع معه المظاهرات ويجب أن نسبقه بمراحل. لكننا كفلسطينيين لم نكن أصحاب قرار أمام أبناء درعا الثوريين، كان القرار لهم. في هذا الوقت وقعت حادثة الجثث الأربعة. طبعاً تصريحات النظام عن هذا كانت كاذبة، قالوا إنهم أحرقوا جثثاً لباكستانيين موجودين في المنطقة، هذا ما روج له إعلامهم عن وجود غرباء من خارج البلاد. في ذلك الوقت لم نكن نمتلك القدرة على مجاراة إعلام النظام، أنشأنا صفحة اسمها "مخيم درعا نيوز" ولكن تم إغلاقها كما كانت تغلق كل الصفحات الثورية، بعدها تم إنشاء صفحة شاملة لكل درعا اسمها "نبأ" واشتركنا فيها. ومع ذلك لم يكن التوثيق بالمستوى المطلوب أبداً.

اقتحام المخيم مجدداً

في الشهر الحادي عشر أيضاً اقتحم النظام، كان عيد الأضحى. انفجرت سيارة أمام محطة القطار التابعة للنظام ولم يقتل أي من عناصره، فقط المحلات الموجودة هناك هي من تضررت. نحن اتهمنا النظام بأنه من قام بالتفجير، إذ تبعه قنص شديد وإطلاق نار وإغلاق درعا كل أيام العيد.

مات من المخيم شاب اسمه معمر خليل الخروبي، لقبه معمر الكوى (أبو فادي)، قنصوه أثناء خروجه لإسعاف المصابين. استشهد أيضاً محمد خلف (أبو جعفر) وهو يحاول الإسعاف، كان مشاركاً في معركة المخيم. في هذه الفترة كنت في الريف الغربي أنا ومجموعة من الشباب، عملنا أينما وجدت فرص عمل. أقمنا في المزارع مثلاً، بعيداً عن المدنيين كي لا نؤذيهم ونخسر حاضنتنا الشعبية، وقد قوبل هذا بتقدير الناس واحترامهم وكان سبباً كبيراً لتعاونهم معنا في كل ما احتجناه. بعد هذا وفي يوم 4 تشرين الثاني تم اقتحام مخيم درعا. أصبح الاقتحام حدثاً يتكرر كل شهر. أهلي كانوا خارج المخيم وأنا كنت في المزيريب. عمار أبو سرية كان قائد المجموعة التي تتصدى للاقتحام، قتل من شبابه حوالي العشرة منهم شاب من عائلة القصاص.

في مساء اليوم نفسه كانت أختي في شارع المغاربة بمخيم اليرموك برفقة خالتي أمام البيت، فسقط عليهم صاروخ من جهة حي نسرين وتوفيت الاثنتان. لم يكن خروج الناس من مخيم اليرموك قد بدأ بعد. كان النشاط فيه لم يزل هادئاً وقتها، دعم للمناطق المجاورة مثل الحجر الأسود وببيلا وسحم والغوطة. كثير من أصدقائنا من شباب مخيم اليرموك قتلوا أثناء محاولاتهم صد اقتحامات في الغوطة والحجر وغيرها، حدث هذا قبل اقتحام مخيم اليرموك.

كنت ما أزال في المزيريب أتابع أمور مخيمنا. كان الناس يغادرونه ومنهم من مات على الطريق مثل أم حسن الصفوري، كانت امرأة كبيرة وماتت بسبب ارتفاع السكر.

قتل الكثير من شبابنا في الشهر الحادي عشر. دخل عناصر النظام المخيم وقتلوا الناس في بيوتهم؛ حلاق رجالي قديم ومسالم جداً كنا نلقبه فرانكو قتلوه في بيته، أخوه قتل أيضاً، قتلوا أوس الذي كان يأخذ دواءً لمشكلة نفسية، وجدوه في الطريق فقتلوه، قتلوا شخصاً مختلاً عقلياً هو ابن أم صالح الترعاني. سرق عناصر الجيش كل ما كانوا يجدونه أمامهم، يعفّشون الغسالات والبرادات والكمبيوترات والذهب وغيرها ويضعونها فوق الدبابات. في إحدى مرات خروجي فكرت ماذا سآخذ معي فأخذت اللابتوب ووضعته في بيت أهلي. عند عودتنا كانوا قد اقتحموا البيت ونهبوا كل ما فيه، اللابتوب والذهب وكل شيء، حتى حصّالة الطفلة الصغيرة أخذوها.

في مخيم اليرموك

كنت في زيارة لمخيم اليرموك لأنسّق مع أحمد كوسا لمنبر جماعي ينطق باسم المخيمات عندما قام الطيران بغارة في 16 كانون الأول 2012. أول ضربة، ثاني ضربة. زوجتي كانت معي، أخذتها إلى المنزل وذهبت أستطلع، سقط الصاروخ الأول في باحة مدرسة الجليل. الأبنية المحيطة بالمدرسة كانت متضررة جداً، تهدمت جدران المباني وانكشفت البيوت وبان كل ما في داخلها. وجدت الناس ميتة في جامع عبد القادر، بجانب المسجد يوجد مشفى الباسل حيث يعمل صديقي الطبيب. قال إنه كان يجري عملية جراحية، وخلالها تكسّر حائط الزجاج ولم يعلموا بما حدث. أكملوا العملية في غرفة ثانية حتى انتهت وخرجوا وصاروا يستقبلون من يتم إسعافهم. كان الضرب رهيباً في ذلك اليوم. لم أعرف أعداد القتلى ولكن من رأيتهم كانوا حوالي الأربعين. تطوع الجميع للمساعدة في النقل والإسعاف والدفن. في المدرسة سقط الصاروخ في ساحتها مما خفف الضغط، أما عند منطقة مسجد عبد القادر المكتظة فكان الوضع أصعب، من لم يمت بالصاروخ أو شظاياه مات من ضغط الانفجار. ضربة مشابهة في درعا حوّلت بناء كبيراً إلى تراب. مساءً بدأ الخروج، خرجنا إلى الشارع لنرى أعداداً كبيرة من كل الأعمار، منهم من يحمل صرراً أو حقائب أو أغراض، الكل يمشي بلا سيارات. كان المنظر وكأنه يوم القيامة. يحوي مخيم اليرموك أعداداً ضخمة، سكنه فلسطينيون وسوريون، كان ملجأً للكثيرين. حاولنا، نحن الفعاليات الموجودة الحفاظ على المخيم والتصدي لهجمة النظام، لكن كانت هناك تجاوزات غبية من شخص اسمه بيان مزعل وجماعته في الحجر الأسود، يقال إنه تبيّن بعد أنه عميل للنظام أو ذهب معه. على عكس أحمد كوسا ومنير اللذين كانا رائعين ومخلصين.

للطرفة، وبما أنني ابن مخيم درعا التي كانت أسبق في الثورة اجتمع معي بعض شباب المخيم وطلبوا مني إعطاءهم "توجيهات" للمرحلة القادمة. فضحكت وأجبتهم أن الأسواق ستغلق في هذه

المرحلة وأن عليهم التزود بأكبر كمية من السجائر والقهوة، أما عسكرياً فأنا لن أفيدكم في شيء. سابقاً وفي مخيم درعا عندما لم يعد عندي قهوة وسجائر ذهبت إلى بيوت من أعرفهم، اتصلت بهم وقلت لهم إنني سأدخل لأخذ القهوة.

جيش التحرير الفلسطيني الحر

خرجت من مخيم اليرموك وعدت إلى درعا. كنا نخطط لانشقاق في جيش التحرير الفلسطيني وإعلان جيش تحرير فلسطيني حر أسوة بالجيش السوري الحر. كنا نخطط من درعا بالتنسيق مع أحمد كوسا ومجموعته وأيضاً مع عقيد اسمه أبو عدي الحسن رحمه الله، الذي أرسل ملازماً إلى درعا واجتمعت معه ورسمنا خريطة طويلة لتأمين دخول العقيد إلى المخيم.

حينها لم يكن العقيد قد انشق، عاد وانشق بعد أشهر طويلة لاحقة. كان المفترض أن ينشق معه حوالي مئتان وخمسون عسكرياً ومعهم كمية من السلاح، لكنهم خذلوه، بقي معه حوالي الخمس وعشرين أو خمسين شخصاً في انشقاقه ولم يحصل على كمية السلاح التي كان يخطط لها. كنا خمس أو ست مجموعات سواء فلسطينية أو سورية في درعا ضمن إعلان التشكيل الذي كنا ننوي عليه. كنت أنظم مجموعة تريد الانشقاق في السويداء، أكثر من خمسة عشر شاباً نسّقت بينهم على مدى أشهر طويلة وعيّنت مسؤولاً عنهم ومن بينهم كان مسؤول المستودع الذي كنا سنستولي عليه.

في 7 كانون الثاني 2013 ذهبنا إلى السويداء من المزيريب. بعد انطلاقنا أتاني اتصال يخبرني بوفاة أحمد كوسا، تم قنصه، صدمتي كانت كبيرة، كلمة عزيز وغالٍ قليلة عليه، أحمد أخ. كنت قريباً منه كثيراً وعملنا معاً من قبل الثورة. أحمد قائد رائع، بلدوزر، كان دينمو المخيم والإغاثة والعمل السياسي والعمل العسكري وكنت أحبه كثيراً. لهذا فكرت بيني وبين نفسي بما أننا ذاهبون إلى العملية فسأدخل بقوة لألحق بأحمد اليوم إن شاء الله. المهم وصلنا إلى هناك. على حدود السويداء يوجد معسكر في منطقة اسمها لاهثة، وصلنا إلى حدودها ولكننا لم نقدر أن ندخل إليها بسبب اقتتال حدث قبلها بيومين أو ثلاثة بين الدروز وأهل المنطقة وقتل بعضهم وتم أسر البعض، وأي سيارة كان يتم خطفها. بقينا هناك حتى الواحدة أو الثانية ليلاً ونحن نحاول أن نجد أحداً يدلنا على الطريق. عندما لم نستطع الدخول انسحبنا.

بعدها بأيام كنت أخطط أنا والعربي رحمه الله، عبد السلام الشيخاني (أبو يزن). قال: نذهب إلى هناك وحدنا. قلت له: كيف نذهب وحدنا؟ قال: نذهب وكأننا سنحضر خبزاً يابساً أو خردة أو تبناً أو أي شيء. العربي كان مريض سرطان ويعالج بالإبر كي يستطيع الوقوف على قدميه. قلت له: حاضر. أخذني معه لأنني أعرف الكل هناك فأنا من نسّقت للموضوع. اتفقنا أن نقوم بالعملية في الأسبوع القادم وحدنا، لكني أصبت يوم الجمعة اللاحق وتوقفت العملية.

كنت ذكرت سابقاً أن قحطان طباشة قد قتل في اقتحام سرية زيزون، لماذا كنا نقتحم هذه السرية؟ مجموعة من العائلات حاولت أن تعبر الحدود ولكن عساكر النظام أمسكوهم وسجنوهم وكنا نريد تحريرهم ولكننا لم نقدر، حدثت معركة عشوائية.

في ما بعد، عندما كنت في المشفى، قرأت على التلفزيون خبراً عن تحرير سرية زيزون ورأيت شبابنا فيها. اتصلت أسأل عما حدث فعرفت أن عبد السلام الشيخاني دخل إلى السرية على أنه يقوم بجمع الخردة، ألمنيوم، نحاس عتيق، وخبز يابس. الشيخاني كان رجلاً كبيراً بلحية بيضاء يرتدي الكوفية على رأسه، غير مثير للشبهة. كانت معه سيارة كيا 4000. دخل بجولة استطلاعية ليشتري منهم الخردة في الظاهر. وعاد ليلاً فسيطر على السرية، وفي أول الصباح كان قد أتم مهمته. كان عقلاً كبيراً، من الشباب الفلسطينيين العظماء الذين خسرناهم بسبب مرض السرطان، لم يقدر أن يذهب إلى الأردن للعلاج فعاد إلى درعا حتى وفاته.

إصابتي وخروجي إلى الأردن

مع بداية عام 2013 ازدادت شراسة النظام في قتل المدنيين، وأصبح استخدام سلاح الطيران أمراً اعتيادياً فصرنا نراه بشكل شبه يومي، وطبعاً السيارات المفخخة التي تستهدف التجمعات مثل المساجد والأسواق. وكنا قد رأينا بعضها مثل التفجير الذي حصل أمام مسجد الحسين بدرعا وتوفي فيه عدد من شباب المخيم أذكر منهم عصام أبو الحج وشاب من عائلة أبا زيد وأصيب الكثير من شباب المنطقة.

يوم الجمعة 18 كانون الثاني ذهبت إلى الجامع لأصلّي، وكان هناك موعد بيني وبين أحد الأشخاص لنذهب في جاهة. لم نكن نصلّي الجمعة لتوقعنا أن النظام سيضع لنا سيارات. خرجت المظاهرة من المسجد الذي كان دائماً ما تخرج المظاهرات منه. كنا نمشي أنا وشخص آخر عندما انفجرت السيارة، اعتقدت أن أحداً أطلق النار علينا، رأيت الكثير من الغبار فقلت إنه صاروخ. بعد وصولي إلى الأردن عرفت أنها كانت سيارة مفخخة. أصدقاء لي كانوا قريبين سمعوا صوت الانفجار فأتوا فوراً وأخذوني إلى المشفى الميداني الذي لم يكن يعالج إلا علاجات بسيطة مثل وضع الضماد أو خياطة الجروح، حولوني إلى مشفى في الأردن لأنني كنت مطلوباً للنظام. بعد ربع ساعة من الانفجار الأول وقع انفجار ثانٍ في شارع موازٍ للسيارة الأولى وبين السيارتين حوالي خمسة وعشرين متراً، الأولى كانت مركونة أمام المسجد، أما الثانية فقال شهود إنهم رأوها قادمة من جهة الأمن العسكري. كان النظام قد أقفل كل الطرق حتى الفرعية، ممنوع دخول أو خروج السيارات إلا من هنا.

لوحة أرقام السيارة من حمص، أعتقد أنها كانت سيارة جيب. فخخها الأمن العسكري وعند وصولها انفجرت بمن فيها ولم نعرف من كان داخلها. مات شخص لا أذكر اسمه، رجل مسكين غير متزن عقلياً كان بجانب السيارة وعرفه الشباب من الخواتم الكثيرة التي كان يرتديها. قطع اللحم وصلت إلى الطابق الرابع من قوة الانفجار. ووقعت إصابات كثيرة.

لماذا كنا متأكدين من أن الأمن العسكري من فخّخ السيارة؟ لوقوع حوادث مشابهة. مثلاً وقعت حادثة، أعتقد في 2014 أو 2015، لباص على خط درعا المزيريب، لشخص من عائلة السبروجي لديه باص يعمل عليه، أخذه الأمن العسكري وسجنوه واحتجزوا الباص وبعد أسبوع أطلقوا سراحه، قال إنه يريد الباص فقالوا له أحضر مائة ألف ليرة لتأخذه، ذهب بسرعة وتدبّر المبلغ، وخطر له أن يأخذ أسرته في "مشوار" بعد أن يسترجع الباص. أخذ أمه وزوجته وأطفاله وترك طفلة صغيرة كانت تلعب عند الجيران. ذهبوا ودفع المائة ألف وأخذ الباص. بعد خروجهم بمسافة قصيرة انفجر الباص. كنت قد كتبت تقريراً عن هذا الموضوع، ماتت العائلة بأكملها ولم يبق إلا الصغيرة التي كانت عند الجيران.

النظام السوري بارع جداً بتفخيخ السيارات وبالتمثيليات. مجرمون على درجة عالية من الوحشية. قتلوا الناس لمجرد شكهم بهم أو لأسماء عائلاتهم. في معركة مخفر مخيم درعا قصفوا علينا قصفاً رهيباً رغم وجود ضباطهم وعناصرهم فقلنا لهم: هل رأيتم نظامكم؟ قد نموت بقذائفه نحن وإياكم.

دخلت إلى الأردن بهوية سورية لأنه يمنع دخول الفلسطينيين إليه. يدخل السوري لجوءً أو عبوراً كما يريد إلا أن الفلسطيني ممنوع من الدخول. ولذلك من يأتي من الجرحى الفلسطينيين كانوا يدخلون بأسماء سورية. بعد دخول أحد الجرحى الحدود الأردنية على أنه سوري وجدوا وشم فلسطين على يده فأعادوه لسوريا فوراً.

متابعة العمل

بعد فترة اتصل بي الأخ أيمن أبو هاشم (أبو كنعان) وكان يريد أحداً من مخيم درعا ليتواصل معه فأعطاه الشباب اسمي. في الحقيقة كنت قد جمعت معلومات قبل الثورة عنه، وسمعت عنه كلاماً طيباً. من ضمن الأشخاص الذين رشحوه لي كان أحمد كوسا. أخبرني أيمن في اتصاله أنهم يعملون في شبكة دعم للمخيمات، يجمعون المساعدات ويوزعونها ليس فقط إلى مخيم درعا، ومخيمات المزيريب وجلين أيضاً، وكل من هرب من المخيمات استطعنا الوصول إليهم ومساعدتهم.

تشاورنا كمجموعة، من ضمنها أبو كنعان ورامز السهلي، لتشكيل هيئة اسمها هيئة عامة للاجئين الفلسطينيين تابعة للحكومة المؤقتة، واتخذت الهيئة مكان إقامة مؤقتة في تركيا وصارت تدعم المخيمات في سوريا، كانت الأمور جيدة حتى عام 2015، عندما تغيرت أوضاع الهيئة وصارت تتراجع كثيراً إلى أن توقف عنها الدعم تماماً.

بعد آخر معركة حدثت في درعا وخروج الناس منها عام 2018 صرت أفكر في الهجرة إلى أوروبا. قبلها كنت أفكر في العودة إلى درعا إذ كان أهلي وأصدقائي هناك. ولكن بعد المعركة منهم من مات ومنهم من خرج إلى إدلب أو تركيا أو أبعد.

يجب أن تنتصر ثورتنا وكل الثورات العربية حتى نعود إلى أماكننا التي ستكون آمنة، سنكون المسؤولين عنها ولذا ستكون آمنة. نحن لا نحب القتل ولا نريد قتل أحد. النظام هو من بدأ بقتلنا وبارتكاب المجازر بنا. رأينا الدبابة في الشارع بسبب النظام، عرفنا القذائف بسببه، حتى الأطفال صاروا يميزون بين أنواع الطلقات "هاي طلقة قناص، هاي طلقة روسية..". حتى الفتيات عرفن أنواع السلاح بسبب النظام. يجب الخلاص منه عند موافقة إسرائيل وأميركا. الدول العربية ودول الجوار كلهم أذناب، حتى روسيا. المسلسل أميركي والتنفيذ روسي. هذه رؤيتي الشخصية.

ما أنا متأكد منه هو أن الثورة حق والحق لا ينهزم. ولذلك ستنتصر الثورة السورية رغم أخطائها ومساوئها وسلبياتها، ورغم أننا خسرنا الكثير من الرجال والنساء والأطفال، خسارة ضخمة، كل منهم بألف.

لكن الثورة السورية على حق، وستنتصر إن شاء الله بالرغم من كل العقبات.

كم منزل في الأرض يألفه الفتى

> **كانت مسيرات سلمية وعادية لكن ما حدث بعدها كان مخيفاً، لم يعد الحوار بالكلام بل صار بالسلاح**

أنا أم حلا. فلسطينية سورية. أبلغ من العمر خمسين عاماً. مجازة في اللغة العربية وكنت معلّمة في سوريا. تعود أصولي إلى مدينة طبريا في فلسطين، وهي مشهورة ببحيرتها وبأكل السمك. طبريا مدينة راقية وعريقة وجميلة جداً.

ذكريات مخيم اليرموك

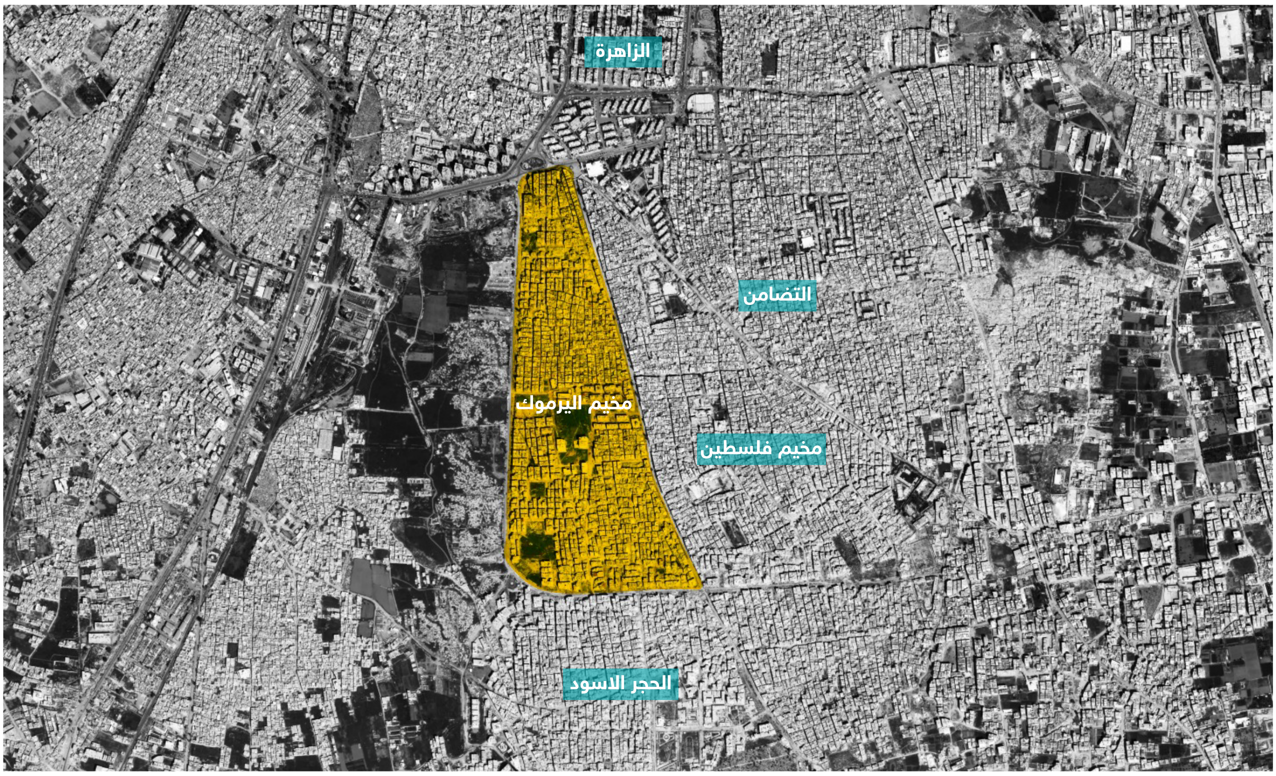

نشأت في مخيم اليرموك الذي ينقسم إلى شارعين رئيسيين؛ شارع فلسطين وشارع اليرموك. كنا نسكن في حي فلسطين، في موقف اسمه موقف أبو حسن. كل الفلسطينيين يعرفونه، بجانب دوار فلسطين، في جادة اسمها جادة الطنطورة. بيتنا كان "عربياً" واسعاً تبلغ مساحته ست قصبات تقريباً. على الأقل كنا نرى السماء. والدي كان يحب الزراعة كثيراً؛ زرع بعض الأشجار المثمرة، والخضروات كالبقدونس والنعناع في أحواض. فوق، عند صعود الدرج، كانت لدينا عريشة عنب تغطي البيت كله تقريباً.

كنا عائلة كبيرة من أحد عشر شخصاً. كان والدي موظفاً ولذا كانت أحوالنا المادية صعبة. وظيفة والدي بسيطة وراتبه قليل وهو المعيل الوحيد لنا. ولكن، وبفضل رب العالمين وحرص والدتي على تأمين كل متطلباتنا، استطاعت أن تربينا أفضل تربية. كلنا درسنا وتعلمنا وأخذنا الشهادات بناءً على رغبة أمي وأبي الذي كان يهتم بنا كثيراً.

أغلبية سكان حارتنا كانوا فلسطينيين، والبيوت متشابهة وبمستوىً واحد تقريباً. لنا ذكريات كثيرة مع أولاد جيراننا، كانوا يأتون إلينا صباحاً لنذهب إلى المدرسة ونرجع منها سوية. كنا نلعب في الحارة كالإخوة. في منطقتنا كان الكل متعاونين. لم يميّز أحد بين أخ أو جار، كنا كعائلة واحدة نقف بجانب بعضنا في كل المناسبات سواء المفرحة منها أو الحزينة. المحبة بيننا والود والنخوة العربية كانت كبيرة. المخيم خسارة كبيرة.

في أول نشأتنا كانت بيوت الحارة متشابهة على الجانبين. لكن بعد فترة من الزمن تطور المكان وضجّ بحركة عمرانية كبيرة؛ البيوت العربية حلت محلها أبنية مؤلفة من أربع أو خمس طوابق، وكل طابق احتوى شقتين أو ثلاثاً. أيضاً صارت عندنا أسواق كثيرة ومحلات جديدة ولم نعد نحتاج للخروج من المخيم لشراء أي شيء. فكل شيء صار متوافراً هنا؛ محلات الصاغة، الألبسة، الأحذية، المطاعم، محلات الفول والحمص والشاورما. محلات رائعة.

في البداية كنا نعرف كل جيراننا. ولكن في ما بعد، ونظراً للتطور الكبير عمرانياً، كثير من الناس أتوا للسكن في المخيم. البعض باعوا بيوتهم في دمشق أو في ريفها واشتروا بيوتاً هنا. لم يعد المخيم يختلف عن أي مدينة راقية. أصبح رائعاً جداً. مع أن كلمة مخيم توحي بأنه يحتوي على الخيام وأنه يفتقر إلى الخدمات الأساسية، لكن هذه الفكرة خاطئة. كانت الخدمات عندنا رائعة ومتوافرة، من كهرباء إلى مياه وغيرها. سابقاً كنا نضطر للذهاب إلى دمشق لشراء احتياجات العيد أو لوازم المدرسة، لكن وبعد التغيير والتطور في المخيم لم نعد نذهب إلى أسواق الصالحية أو باب توما أو سوق الحميدية. أصبح كل شيء متوافراً ومن جميع الأصناف.

أشعر بالفخر لأنني فلسطينية. أعتز بمدينتي طبريا وبكل المدن الفلسطينية. في مخيم اليرموك، ولشدة محبتنا لفلسطين، أسمينا أغلب الجادات على أسماء مدن فلسطينية. مثلاً كنا نسكن في جادة الطنطورة على اسم مدينة الطنطورة الفلسطينية. هناك أيضاً جادة صفد، جادة بئر السبع، جادة لوبية. وكلها أسماء لمدن فلسطينية. كنا بهذا نحاول إحياء هذه المدن لتعريف الأجيال الجديدة التي لا تعرف فلسطين بها. حتى المدارس التابعة للأونروا سمّيت بأسماء مدن فلسطينية حتى صار الجيل الجديد يعرفها.

في سوريا كانت عطلتنا الأسبوعية يومي الجمعة والسبت. كنا نذهب من مساء الخميس إلى بيت أهلي، نسهر سوية، نأكل ونرى العائلة والجيران. كانت العائلة كلها تجتمع في هذا الوقت. في اليوم التالي كنا نستيقظ باكراً لشرب القهوة مع والدي ووالدتي وأخواتي، نتحدث عن التطورات في حياة كل منا، ماذا كان يحدث معنا، وهكذا. بعدها كنا نحضّر الفطور الذي يتكون من الفول المدمس بالطحينة والفلافل والفتة. وكنا جميعاً نساعد بعضنا. ثم نعود إلى تجديد القهوة والتحدث واختيار وجبة للغداء نقوم جميعاً بإعدادها. نحن مشهورون جداً بأكلة المقلوبة التي كنا غالباً ما نأكلها في اجتماعاتنا. كما كنا نحضّر فطائر السبانخ كثيراً. الملوخية الناعمة من أكلاتنا المشهورة أيضاً، والمنسف والمسخّن. هذه أشهر أكلاتنا نحن الفلسطينيين، ولكن يبقى الأهم اجتماع العائلة الواحدة بكل أبنائها بكثير من السعادة والمحبة والتعاون بيننا. لطالما تقاسمنا المهمات لإعداد الغداء، كنا نعمل في جو حميمي مليء بالأحاديث الودية مع الكثير من الفكاهة والضحك حتى ننتهي من إعداد كمية الطعام الكبيرة التي تكفي الكل.

هكذا كنا نمضي أيام العطل. خلال الأسبوع لم نكن نرى بعضنا فالكل كان يعمل وأولادنا في المدارس. كنا نحضر أولادنا إلى الاجتماع العائلي ليتعارفوا منذ صغرهم على بعضهم وعلى عائلتهم، وليعتادوا هذه العلاقات الأسرية وصلة الرحم. من المفروض أن يأتوا ويتواصلوا مع جدهم وجدتهم

وبقية العائلة لنعرف عنهم وعن حياتهم. إذا وقع أحد منا بمشكلة كنا نتشاور جميعاً حتى نجد حلاً لها. قد لا تعرف إحدانا كيف تتصرف في موقف ما فكنا نعطيها الحل. كنا نعيش بسعادة في ذلك الوقت، أما الآن فالعائلة الواحدة تفرقت؛ أصبح الأب في جهة، إذا كان لا يزال على قيد الحياة، والأم في جهة، والأبناء كل منهم في جهة، وافترقنا.

من عاداتنا أنه في عرس أحد الشبان كان أقاربه وأصدقاؤه يحتفلون به قبل يومين أو ثلاثة من يوم العرس. كانوا يجتمعون من وقت العصر، يأتون بالكراسي، يشطفون الساحة التي أمام البيت، يحضّرون القهوة والشاي وأنواع الضيافة، يأتون بمن يعزف القربة والمجوز، يغنون ويدبكون ويسهرون ليُفرحوا العريس. النساء أيضاً كن يغنين في داخل البيت ليُشعرن العريس وأهله أن عندهم فرحاً ويوماً مميزاً.

كانت هذه الاحتفالات تستمر لثلاثة أيام على المنوال نفسه. ليلة العرس كانوا يأتون للعريس بالحنة، يحنّونه ويغنّون له، يدبكون ويحتفلون، يشعرونه أنهم كلهم أصدقاؤه وأقاربه وإلى جانبه كأنهم إخوته. كما كان جيران أهل العريس وأقاربهم لا يتركونهم أبداً.

في حالات الوفاة أيضاً كانوا يساندون بعضهم. لم يكن هناك فرق بين الجيران والأصدقاء. المحبة والألفة كانت كبيرة والكل كان يداً واحدة وقلوب الناس على بعضها. هناك ميزة مهمة للفلسطينيين هي الشهامة والنخوة. ليس فقط تجاه الجيران أو المعارف، فقد كانوا يساعدون كل من يحتاج إلى المساعدة حتى لو كان غريباً. لم يميزوا بين قريب أو جار ولم يتخلوا عن أحد لأنهم لا يعرفونه.

كنت أسكن في حي التضامن، في سوق الثلاثاء القريب على شارع دعبول، بين مخيم اليرموك ومخيم فلسطين. هذه المنطقة قريبة من بلدة يلدا. كنت سعيدة جداً ببيتي رغم تواضعه. كنا محاطين بالأبنية الطابقية العالية وبيتي هو البيت "العربي" الوحيد في الحي. وكان مؤلفاً من غرفتين وصالون.

بداية الأحداث

مع نهاية عام 2011 تقريباً ابتدأت الأحداث في منطقتي. في البداية كانوا يخرجون في مسيرات سلمية. بعد صلاة الجمعة يتجمع الشباب ويجوبون الشوارع. يكونون بأعداد قليلة أولاً، ثم يأخذون بالازدياد مع انضمام آخرين إليهم حتى لو لم يعرفوا ما الذي يحدث.

كانت مسيرات سلمية وعادية. كنا نخرج لنراهم ولم نعرف ما الذي يجري. استمر الوضع على هذه الحال لأشهر معدودة. ولكن ما حدث بعدها، وكان مخيفاً، أن الحوار لم يعد بالكلام بل صار بالسلاح. صرنا نخاف كثيراً، لم يعد بمقدورنا المبيت في بيتنا ليلة الجمعة. أنا مثلاً كنت آخذ أغراضاً لي ولابنتي وأذهب إلى بيت أختي أو بيت أهلي في المخيم، كنت أشعر هناك بالأمان. أنا أخاف كثيراً، كثيراً. أخاف حتى من الرصاص في الأفراح، فكيف وقد أصبح هناك مؤيد ومعارض، "طاسة وضايعة" كما يقولون. فكنا نظل هناك حتى يوم السبت ونعود إلى بيتنا. في اليوم التالي كنت أذهب وابنتي

لنداوم في المدرسة. ولكننا كنا نقضي أيام الخميس والجمعة بأعصاب متوترة ومشدودة.

لم أكن أعرف ما الذي كان يحدث بالضبط ولم أشارك في أي مسيرة. كنت بعيدة عن كل هذا وأتمنى أن أبقى بعيدة دائماً. عندي خوف غير طبيعي أبداً، وكل من حولي يعلمون بأنني أخاف كثيراً ولا أستطيع المشاركة في أشياء كهذه. عندما كنت أسمع أنه من الممكن أن تقع أحداث كهذه في المنطقة التي أكون فيها كنت أغادرها فوراً حتى لو كلفني هذا مادياً جداً. المهم أن أنفد أنا وابنتي ونهرب. كنت أسمع عن شباب وبنات قد وضعوا لافتات مخيفة في السوق حيث كنت أسكن. سمعت أيضاً عن مناشير تم رميها من الطائرة على منطقة التضامن تطلب من سكان المنطقة الخروج منها وأن من يبقى فيها سيكون هو المسؤول عن حياته. لم يسقط أي منشور على بيتي مع أنه أرضي.

في أحد الأيام، وكنت في البيت، اتصلت بي صديقة كنا ندرّس سوية في يلدا. سألتني: "وين إنت؟" وهي تعرف أنني من سكان التضامن. قلت لها: "والله أنا بالبيت". وإذ بها تطلب مني مغادرة المنطقة فوراً. سألتها عن السبب فقالت: "ما سمعتي انه هلق ممكن يصير مناوشات ويصير مشاكل بالتضامن؟". قلت لها: "لا والله ما سمعت. فاتحة على الاخبار بس ما قالوا شي". قالت لي: "نصيحة لا تنامي اليوم بالبيت". بعدها اتصلت أختي وسألتني أين أنا وعندما أخبرتها قالت لي: "اطلعي من بيتك فوراً. حاولي قدر الامكان تعجلي بالطلعة من البيت". فأخذت بعض الثياب لي ولابنتي وذهبت إلى أهلي في مخيم فلسطين. لم تكن المسافة كبيرة ولكنا كنا نشعر بالأمان أكثر هناك. بقيت عند أخواتي فترة طويلة.

في أحد الأيام اتصل أخي، وكان هو وزوجته عند أهلها، وأخبرني أن أمي وحدها في البيت لأذهب إليها. أمي مريضة سكري ولا تبصر وكانت وحيدة في المنزل. عندما ذهبنا أنا وابنتي إليها وقعت المعمعة. إذ يقع بيت أهلي الجديد بجوار جامع. وكانوا ينتظرون يوم الجمعة بعد خروج المصلّين ليتجمّعوا. كنت أنظر فأراهم يجتمعون في الحارتين، شباباً يرتدون على رؤوسهم الكوفيات. كانوا يقولون "يلا هلأ بدنا نبلش". كنت كلما خرجت إلى "البرندات" من الجهتين لأراهم أجد أن عددهم قد ازداد، شبان كبار وصغار. كان معهم أطفال أيضاً مع أنهم أبرياء لا يعرفون ما الذي يحدث. بعد انتهاء صلاة الجمعة حدث إطلاق نار كثيف، ضرب رصاص مستمر. صرنا ندخل لنختبئ. بحثت عن ابنتي في البيت كله، فوجدتها مختبئة تبكي في الخزانة وقد أقفلت الباب عليها وتكاد تختنق من الخوف. لم نحسب حساب ما حدث أبداً. لم نتجرأ على الحركة حتى من غرفة لغرفة وصوت الرصاص "حولنا وحوالينا". صعدوا إلى أعلى بنايات وابتدأ القنص. أصيب ولد صغير وراء بيتنا ولم يتجرأ أحد أن يسعفه حتى انتهت الأحداث بعد عدة ساعات. أردت الاختباء في الغرفة الداخلية أنا وابنتي ولكني لم أقدر أن أترك أمي وحدها إذا، لا قدّر الله، أصيبت برصاصة طائشة. عدنا إليها. كانت جالسة وتقول: "الله يهدّي البال، الله يغيّر هالحال بأحسن حال". كنا نهرب إلى الداخل عند اقتراب الرصاص كثيراً وتبقى هي وحدها. أصبحت حركتها ثقيلة ولم نستطع أن نساعدها. قالت لي بعدها: "تعالي أحضنكن. يا بنموت سوا يا بنحيا سوا". واحتضنتنا. بقينا هكذا على أعصابنا إلى أن انتهوا. من الثانية عشر ظهراً حتى التاسعة مساء والرصاص حولنا. طلقتان دخلتا البيت، واحدة فوق النافذة والأخرى في الحمّام، لو أن أحداً كان بداخله لقتل فوراً. عندما هدأت الأمور قليلاً وتنفسنا الصعداء حضر أخي ليطمئن علينا، يعرف أنني أخاف كثيراً. قال لي: "خفت عليكي يصرلك شيء من الخوف". قلت له: "الحمد لله، الله ستر. بس أنا بهي المنطقة ما عاد أقدر أقعد ولا ثانية". يومها ذهبنا إلى بيت أختي

التي تسكن في اليرموك. بيتها ليس بعيداً كثيراً عن التضامن ومخيم فلسطين. لأتفاجأ بوجود الكثير من الناس عندها؛ بيت أهل زوجها وسلفتها وإخوتي وأولادهم وزوجاتهم. صار بيتها كالمعسكر وصرنا ننام فوق بعضنا.

نزوح يبدأ ولا ينتهي

بعدها سمعتهم يقولون إنه يتم تجهيز ضربة كبيرة للمخيم. عندما كنت أسمع أنه من الممكن أن يحدث شيءٌ في المنطقة التي أكون فيها آخذ ابنتي ونغادر المنطقة فوراً. لي أختٌ تسكن في جرمانا فاتصلت بها وخرجنا. من شدة قلقي لم أنتظر السرفيس. أوقفت سيارة أجرة وركبناها مع أنني كنت لم أذهب إلى هناك سابقاً ولا أعرف المنطقة.

وصلنا إلى جرمانا لأتفاجأ بالأجواء؛ عندنا خوف ورعب و"قايمة القيامة" وفي جرمانا الحياة طبيعية تماماً؛ الأسواق والمطاعم مفتوحة والناس يشربون المتة والأراجيل والشوارع ممتلئة بالسيارات.

بقيت في جرمانا عند أختي حوالي الشهرين أو الثلاثة، لأعود بعدها إلى المخيم لفترة قصيرة. في ذلك الوقت كان قد ابتدأ قطع الكهرباء. عادت ابنة أختي لتؤكّد أن المخيم سيتعرّض لضربة كبيرة ومرعبة "الله يجيره منها". أوقفت سيارة أجرة وعدت إلى أختي في جرمانا فوراً. بقيت عندها لفترة وفي ذلك الوقت حدثت تفجيرات في جرمانا. المنطقة قريبة جداً من المليحة في الغوطة الشرقية. كانوا يقصفون المليحة وكنا نشعر أن القذائف تعبر من فوق رؤوسنا. ضربوا جرمانا أحياناً وقالوا إن هذه الضربات كانت "بالغلط". ولم نعرف ما الذي كان يحدث. صار الضرب على جرمانا ولكنه لم يكن بكثافة بقية المناطق. في إحدى الليالي جلست على الدرج من شدة خوفي. كان الضرب كثيراً جداً، لم يكن علينا ولكن الأصوات مرعبة. لم أعرف أين كان تحديداً على المليحة أو على المطار. قلت لأختي إنني لم أعد أستطيع البقاء هنا؛ ذهبت بالسرفيس ليلاً إلى قدسيا. لي أخت هناك أيضاً. أخواتي كثيرات.

كانت قدسيا آمنة في ذلك الوقت على اعتبار أنها قد نالت حصتها من الضربات الفظيعة من قبل. وكان أهلها قد غادروها، منهم من سافر ومنهم من غيّر المنطقة. لهذا ذهب إليها جزء كبير من أهل المخيم. أختي هذه مثلاً لديها سبع بنات خرجن من المخيم وأقمن عندها مع أزواجهن وأولادهن. وبقيت عندها لشهرين تقريباً.

كان زوجي قد بنى بيتاً في منشية خان الشيح. كان صالحاً للسكن تقريباً مع حاجته إلى قليل من الرتوش. بيت أهله في المنطقة نفسها وكان فارغاً بعد سفرهم إلى الأردن. أخت زوجي كانت تسكن هناك أيضاً هي وزوجها وأولادها. بقيت عندها ليومين ولكنني أحسست بأن وجودي عندهم كان ثقيلاً. لم يحتمل الناس بعضهم في هذه الفترات وكانوا يُشعرون ضيوفهم بالضيق. رغم أنه لم نكن إلا أنا وابنتي التي كانت صغيرة في الصف الأول الابتدائي. أرسلوا إلى الأردن ليحضروا مفتاح بيت أهل زوجي فسكنّا فيه بما أنه يحتوي على أثاث. أثاثنا ما زال في بيت التضامن فقد تركنا كل شيء عند مغادرتنا البيت ولم نحضر معنا إلا ثيابنا.

كان زوجي يشتغل بالأعمال الحرة وأغلب عمله في دمشق. لهذا كان يعود في وقت متأخر ونبقى وحدنا حتى عودته. ولسوء حظي عندما سكنّا هناك افتتحوا مقبرة جديدة مقابل البيت تماماً، بين

البيت والمقبرة ثلاثة أمتار أو أربعة، ولم يكن لها سور. صاروا يحضرون الجثث كل يوم؛ شباب وأطفال ونساء وشرطة. يحضرونهم ليلاً ونهاراً. شيءٌ فظيع. خلف المقبرة مزارع مخيفة وبجانبها ملعب. من الجهة الأخرى للبيت حقل زيتون. كانت المنطقة خالية والبيوت بعيدة عن بعضها. المنطقة لا تزال قرية ولم تكن خدماتها قد اكتملت بعد. أرضها صخرية غير قابلة للزراعة؛ ولهذا كانوا يضطرون إلى الحفر أكثر من مرة لفتح قبر مناسب. في أحد الأيام، وبينما كنا نفطر، حدثت مناوشات وإطلاق نار أمام باب بيتنا. سمعنا بعدها أن الجيش الحر دخل المنطقة. توجد قطعة عسكرية في الجهة التي نسكن فيها. صار الضرب يقترب منا ووصل الخطر إلى المنطقة التي نحن فيها.

لزوجي أختٌ ثانية تسكن في منطقة بيت سابر أتت لتزورنا. أثناء زيارتها حدثت مشاكل وإطلاق نار وخفنا من ازدياد صعوبة الوضع. فعرضتْ أن نذهب معها جميعاً إلى بيت سابر. قال زوجها إن منطقتهم آمنة تماماً ولا يسمعون فيها صوت رصاصة واحدة. طلبوا مني مرافقتهم حتى لا نبقى أنا وابنتي وحدنا. بعد أن هدأت الأمور قليلاً فتحتُ باب البيت لأستطلع الوضع فرأيت أهل المنطقة يقومون بتحميل أغراضهم في السيارات ليغادروا المنشية. كان منظر خروجهم مخيفاً.

ذهبنا معهم وكان الطريق متعباً جداً. كان علينا أن نخرج من بين الحارات ونقطع حقل الزيتون بأكمله لنصل إلى الشارع الرئيسي. هناك أيضاً نهر يجب أن نقطعه ونغوص في الماء. في الشارع لم نكن نرى إلا السيارات الممتلئة بالعساكر وهم ينتشرون تحت الأشجار. كان منظرهم مرعباً ويدل على أن هناك معارك كبيرة ومخيفة ستحدث في المنطقة.

بعد حوالي نصف ساعة مرّت سيارة بيك اب تحمل التبن. طلب منه قريبنا أن يوصلنا إلى خارج هذه المنطقة فقط وفعلاً صعدنا في مؤخرة السيارة مع التبن. لم يكن لدينا مشكلة فالمهم أن نكون بأمان.

أنزلنا سائق السيارة بعد أن ابتعدنا قليلاً عن المنطقة. شكرناه وعدنا للمشي حتى نجد سيارة أخرى. شاهدنا في طريقنا دبابات قديمة جداً وصدئة كانوا قد أخرجوها ليقوموا بتزييتها. منظرها مخيف. المهم أوقف الرجل الذي معنا سيارة وطلب منه إيصالنا إلى بيت سابر. قال السائق إنه لا يستطيع دخول المنطقة بما أنه فلسطيني، ولكنه سيوصلنا إلى المفرق. بيت سابر قريبة جداً من الحدود مع "إسرائيل" وكان مسموحاً لأهل البلد فقط بالدخول إليها. ولا يسمحون بدخول الغرباء ولا من معهم هوية فلسطينية.

أوصلنا صاحب السيارة إلى أول المنطقة وكان علينا أن نبحث عن سيارة أخرى. قريبنا موظف في مستشفى المواساة، وكان يذهب صباحاً ويعود في العصر، ولهذا كان كل العناصر على الحواجز يعرفونه. من حسن حظنا أن جاراً لهم كان عائداً بسيارته ورآنا. عرض أن يوصلنا. صعدنا في صندوق السيارة الكبير. أحد عناصر الحاجز فتح الصندوق ليفتشه وسلّط علينا ضوء "البيل" واحدةً واحدة فوجد أن الكل نساءٌ وأطفال وسأل صاحب السيارة والرجل الذي معنا: "في معكم حدا غريب؟". قالوا له: "لأ، ما في حدا". كل من معي سوريون إلا أنا فلسطينية. لو فتشونا لكانوا أدخلوا الجميع، حتى ابنتي، وكنت سأضطر إلى الرجوع. قال العنصر: "يلا الله معكن ما زال ما معكن حدا غريب. تفضلوا فوتوا". الحمد لله دخلنا ونفدنا.

بقينا في بيت سابر حوالي الأسبوعين وهم يؤكدون لنا أن المنطقة آمنة تماماً حتى انفجرت سيارة مفخخة كانت تحتوي كمية هائلة من المتفجرات، حوالي الألف كيلو. في ذلك الوقت ربما كان

الجيش الحر دخل إلى فرع سعسع وقام بتفجيره[7]. كانت هناك سيارتان مفخختان ولكن الثانية لم تنفجر. كنا جالسين نشاهد الأخبار، حوالي المغرب، عندما حدث الانفجار. ومن شدة قوته كادت أبواب البيت أن تخرج من أماكنها. أراد الرجل وأبناؤه الشباب أن يخرجوا ليعرفوا ما الذي حدث وأين مكان الانفجار. قلت لهم: "لا تطلعوا نصيحة. لأنه بس تتجمع العالم بيساووا انفجار ثاني وبيصير اشتباك وإطلاق نار وما تعرف دَيَّانها من المطالب، وطاسة وضايعة". وفعلاً اقتنعوا بكلامي ولم يخرجوا. يومها استمر إطلاق النار حتى الفجر.

في اليوم التالي قلت لهم: "أنا كمان بهالمنطقة ما عاد أقدر اقعد لأنه صار البلا حولنا وحوالينا". تركت بيت سابر وعدت إلى منشية خان الشيح مع أنني لم أشعر بالأمان هناك أبداً. لكنها كانت قد أصبحت أهدأ قليلاً.

زيارة إلى حي التضامن

قال زوجي إنني يجب أن أحضر أغراض البيت من التضامن بما أننا تركنا هناك كل الأثاث والأدوات الكهربائية ولم نحضر إلا ثيابنا. قال إنهم لا يعترضون على دخول النساء إلى المنطقة.

حينها كانت التضامن قد أصبحت منطقة خطيرة جداً وتعرّضت للضرب وصارت فيها مقابر جماعية والداخل إليها مفقود والخارج مولود. ذهبت لجلب الأثاث وأنا متخوّفة من الدخول إلى المنطقة. وكان معي زوج أختي بعد أن أخبرته بخوفي من الذهاب إلى هناك.

مشينا من مخيم اليرموك إلى مخيم فلسطين وكان كل شيء عادياً. عندما دخلنا إلى التضامن وجدت المنطقة خالية. كل أربع أو خمس حارات لنجد أحداً في الشارع. الأبنية تهدمت والنوافذ والأبواب طارت من أماكنها والمحلات محروقة والردم ملأ الشوارع.

كنا نخاف أكثر كلما اقتربنا من الوصول؛ لم نعد نرى أحداً حولنا. كان المنظر مخيفاً. وصلنا إلى البيت. وضعت المفتاح في الباب وأنا خائفة أن يكونوا قد حوّلوا البيت إلى وكر فنجد فيه مسلحين أو سلاحاً أو جثثاً. كنت قلقة جداً مع إمكانية الدخول إلى بيتنا بسهولة. ولكننا دخلنا لنجد كل شيء على حاله. حتى المروحة كانت تعمل كما تركناها ولم ينقص شيء من أغراضنا والحمد لله. ففكّ زوج أختي الخزانة ورتبها حتى ننقلها، وأنا جمّعت أغراضنا في أكياس. ونحن هناك حدث إطلاق نار فخرجنا بسرعة وذهبنا إلى اليرموك. في اليوم الثاني عدنا لنكمل. بعد أن جهّزنا أغلب الأغراض ووضعناها في مدخل الحارة تمهيداً لإخراجها. علا صوت الضرب والطيران فخرجنا. عدنا في اليوم الثالث بعد أن اتفقنا مع صديق لزوج أختي أن يأتي بسيارته لينقل أغراضنا. قال إننا يجب أن نحضر موافقة بإخراج الأثاث حتى تسمح لنا الحواجز بالمرور. لأنني إذا أخذت أغراضي ولم تكن معي موافقة من النظام سيأخذونها على الحواجز. ذهبت إلى حي الزهور لأحصل على ورقة الموافقة. سألوني أين أسكن وإلى أين أريد الذهاب؟ أعطوني الموافقة وقالوا أن أحاول أن أغادر المنطقة قبل الظهر. اضطررنا للذهاب في وقت مبكر جداً في اليوم التالي. أخرجنا الدفعة الأولى من التضامن إلى شارع فلسطين. كلما مشينا قليلاً كانت اللجان توقفنا ولكن الموافقة كانت معي وأوراقي كلها نظامية. كانوا يسألوننا عن الأثاث ومن أين أتينا به؟ وإلى أين نذهب؟ وما الذي يثبت لهم صحة هذه الأوراق؟ أخرجنا النَقلة الأولى بجهد جهيد. كانت الحواجز على مسافات قريبة من بعضها. بعد كل مسافة قصيرة حاجز.

[7] - في 42 كانون الثاني 3102 هاجمت "جبهة النصرة" الفرع 122 من المخابرات العسكرية، المعروف بفرع سعسع، وقامت بتفجيره.

داخل المخيم كانت الحواجز للجان الشعبية، وخارجه كانت حواجز النظام. عند خروجنا من المخيم إلى الزاهرة ابتدأ إطلاق النار. لشدة خوفي قلت للسائق أن نؤجل باقي الأغراض إلى الغد لكنه قال إنني سأحتاج عندها إلى موافقة جديدة ولهذا من الأفضل أن نكمل اليوم. كان مضطرة إلى أن أرافقهم لأن الأوراق كانت باسمي، البيت والموافقة والهوية. المهم عدنا مرة أخرى وحمّلنا الدفعة الثانية وبقيت بعض الأشياء التي تخليت عنها من خوفي على نفسي وعلى من معي. خشيت أن يتأذوا بسببي لا قدّر الله.

إلى لبنان

خرجت من المنشية وعدت إلى بيت أختي في قدسيا وبقيت هناك لفترة. بعد مدة التقيت بصديقة لي من التضامن تسكن في قدسيا فقالت لي: "ما في منطقة صارت آمنة بسوريا وأنت بعرفك جبانة. شو رأيك تطلعي على لبنان؟ بتقدمي أول يوم وثاني يوم بيعطوكي الموافقة وثالث يوم بتسافري". أعجبتني الفكرة. قلت سأسافر وأجرّب حظي هناك وأرتاح من هذه الأجواء. لم أكن أستطيع النوم من الرعب. كنت أبقى مستيقظة حتى صار من حولي يشفق عليّ.

زوج أختي كان يريد استخراج موافقة سفر لابنته وزوجها في المخيم ليدخلوا لبنان ويسافروا منها إلى تايلاند. طلبت منه أن يقدّم لي أيضاً. فإذا أعطوني تصريحاً بدخول لبنان ذهبت معهم. وهذا ما حدث. طلبوا منه أن يراجعهم بعد يوم أو يومين. حصلت على الموافقة من المرة الأولى. وهكذا أتينا إلى طرابلس منذ 2013.

عانيت الكثير من المصاعب. أولها كانت على الحدود بسبب ورقة الوصاية على ابنتي. ولكن تم حل المشكلة أخيراً وعبرنا الحدود. وكما تشردت في سوريا من منطقة إلى منطقة تشردت في لبنان من بيت إلى بيت. ولكن على الأقل في سوريا كنت أذهب إلى أهلي وأخواتي وأهل زوجي وأقاربي، بينما هنا صرت أنتقل من مكان إلى آخر وأسكن بيوتاً مشتركة لا أعرف أحداً من ساكنيها. اضطررت للتعامل مع كل من حولي حسب نفسياتهم، وإلى مراعاة الموجودين في البيت وتحمّل ظروفهم حتى لو كان هذا على حساب أعصابي وابنتي.

بعد مجيئنا بمدة حصل خلاف بين منطقتين في طرابلس؛ جبل محسن والتبانة. أيضاً كانوا أعداء ويرمون بعضهم بالقذائف. أي أن ما تركناه وراءنا وجدناه أمامنا، لدرجة أننا ندمنا على خروجنا من سوريا. ومرة أخرى صرنا نهرب من بيت إلى بيت. كنت أيضاً كلما سمعت صوتاً قريباً من البيت الذي أسكن فيه أذهب إلى مكان آخر. كان هذا صعباً جداً. سجلت ابنتي في مدرسة قريبة قليلاً من هذه المنطقة. وكنت عندما أسمع صوت الضرب أركض لإحضارها. والله كنت أركض في الشارع لأحضرها. مديرة المدرسة استغربت في إحدى المرات وسألتني لماذا أريد أخذها؟ قلت لها: "مو سمعانين القصف والضرب؟". قالت: "لأ، منطقة بعيدي". قلت لها: "شلون بعيدي؟ قريبي. شوفي صوت الرصاص والقذائف كثير قريب". في إحدى المرات سمعنا أن قذيفة أصابت سطح المدرسة ولكن هذا حدث في يوم عطلة ولم يتأذ أحد. استمر الوضع هكذا بين المنطقتين حتى تدخلت العشائر وأصلحت بينهما لنستطيع أن نعيش ببعض الأمان.

معاناة من التميز والاستغلال

بعد وصولي ذهبت لأسجّل في الأونروا. سألتني الموظفة عن درجة تعليمي ومهنتي. قدّمت أوراقي وأجبت عن أسئلتها. قالت إنها ستقدّم لي على وظيفة مدرّسة في مدارس الأونروا. وفعلاً قدّمت الطلب وقالت أن أنتظر حتى مجيء الموافقة من بيروت. بعد مدة اتصلت لتخبرني أن طلبي رُفض؛ أولاً بسبب فائض الطلبات عندهم وعدم وجود شواغر، والسبب الثاني هو أن الأولوية في التوظيف لأهل البلد؛ لفلسطينيي مخيم البداوي أو مخيم نهر البارد.

وظّفوا فلسطينيين سوريين ولكن بنسبة بسيطة جداً هي اثنان في المائة سوريين والباقي من أهل البلد. أيضاً قدّمت طلبات توظيف إلى روضات لأعمل مشرفة روضة أو حتى مشرفة باص الأطفال. وأيضاً تم الرفض. حاولت كثيراً أن أجد عملاً ولم أنجح، كل طلباتي كانت تعود مع عدم الموافقة.

هنا يتنمّرون على السوريين كثيراً. يقولون: "جيتو أخذتو رزقتنا وقاسمتونا بيوتنا". مع أننا ندفع مقابل حتى المياه التي نشربها. والله لو استطاعوا لعبّأوا الهواء في علب وباعونا إياه. هنا لا شيء دون مقابل.

أشعرونا أننا أغراب وأننا نأخذ فرص العمل منهم. مع أن الفلسطينيين اللبنانيين محرومون من ممارسة ثمانين مهنة؛ كالوظائف الحكومية، ومثلاً من درس منهم الطب كان ممنوعاً من فتح عيادة باسمه بل كان يعمل باسم شخص لبناني. أيضاً كانوا محرومين من التملك فيضطرون إلى تسجيل بيوتهم وسياراتهم بأسماء أخرى. ومع ذلك، ورغم اضطهادهم، كانوا يحاولون اضطهادنا. لم يراعوا أننا أبناء شعب واحد بل قالوا إننا سوريون. لو كانت البلد بلدهم ما الذي كانوا سيفعلونه بنا؟

حتى أولادنا إذا أرادوا اللعب مع أولادهم في الحارة كانوا يقولون لهم: "أنتو سوريين"، يعني "أنتو ما بتسوو. أنتو مشردين، أنتو شحادين". مرضت ابنتي نفسياً؛ أينما ذهبتْ كان الأطفال لا يسمحون لها باللعب معهم، قالوا لها: "أنت سورية، لا تلعبي معنا". لم تكن تستطيع أن تبكي ولم تخبرني. أوقعها كل هذا تحت ضغط كبير فاضطررت لإجراء عملية لها. تعذبنا كثيراً في البيوت المشتركة حتى استطعنا أن نأخذ بيتاً خاصاً نسكن فيه وحدنا والحمد لله.

تدفع لنا الأونروا مقابل استئجار البيت وتعطينا بدل غذاء. ولكن حتى الأونروا صارت تميّز بين الفلسطيني اللبناني المقيم وبين الفلسطيني السوري اللاجئ. عرفنا أنهم سيدفعون أربعين دولاراً ولمرة واحدة لكل فلسطيني عمره أقل من ثمانية عشر عاماً أو لكل من يدرس. فرحنا في البداية وقلنا إن المبلغ سيساعد قليلاً. لكنهم لم يصرفوا الأربعين دولاراً إلا للمقيمين فقط واستثنوا الفلسطينيين السوريين. لم نسكت. قمنا باعتصامات لنطالب بحقوقنا. نحن أيضاً فلسطينيون. نحن لاجئون أصلاً. ندفع إيجارات البيوت التي نسكن فيها ونعاني من الغلاء الفاحش ومن ارتفاع سعر الدولار. لم نكن نستطيع أن نتدبر أمورنا دون عمل. لا مورد لدينا إلا ما تدفعه الأونروا. المقيمون يملكون بيوتهم الخاصة، أي أنهم لا يدفعون إيجارات. كلهم يعملون في الأعمال الحرة ولديهم محلات تجارية، حتى النساء لديهن محلات.

ولكن لم تتم الاستجابة لمطالبنا. كانوا يطالبون بالدعم لنا ولكنهم كانوا يعطونه لغيرنا. يطلبون منا أن نرسل أسماءنا وبياناتنا، وعندما نرسلها ويأتي الدعم لنا كانوا يعطونه لنهر البارد أو للبداوي. عند وصولنا أعطتنا الأونروا بطاقات مساعدة بقيمة مائة دولار بدل إيجار وحوالي أربعين ألف ليرة لبنانية

لكل شخص بدل غذاء. لكنهم ألغوا بدل الإيجار بعد مدة. اعترضنا وقلنا لهم إن عندنا أطفالاً صغاراً وإننا إذا لم ندفع لصاحب البيت سيطردنا إلى الشارع. بعد أربعة أو خمسة أشهر تقريباً من الاعتصام أعادوا لنا بدل الإيجار.

بعدها صرنا نعتصم للمطالبة بالهجرة. قلنا لهم أن يوفروا لنا فرصاً للهجرة إذا لم يعطونا حقوقنا لنعيش بكرامتنا في أجواء مريحة تعوضنا عن بيوتنا التي فقدناها وأهلنا الذين خسرناهم. رفضوا وقالوا لنا إننا يجب أن نطالب بحق العودة وليس باللجوء الإنساني أو الهجرة. يريدون استمرار المطالبة بحق العودة لأنهم يريدون البقاء في مناصبهم، أما هجرتنا فلا تناسبهم. يعيشون كالملوك، مكاتبهم كمكاتب الوزراء. أما اللاجئ الفلسطيني السوري فهو محروم من الموارد. بالكاد يستطيع تأمين المستلزمات الأساسية من أكل وشرب ولوازم المدارس والشتاء، خصوصاً في هذه الفترة بسبب ارتفاع الدولار والغلاء الفظيع. الآن يدفعون لنا 100 دولار كبدلٍ للإيجار و12 دولاراً ونصف لكل شخص عن كل شهر. في البداية كانوا يدفعون شهرياً والآن صاروا يدفعون كل ثلاثة أشهر. وخلال هذه المدة نضطر إلى الاستدانة حتى يأتي وقت الدفع.

صار أهل البلد يستغلوننا. في إحدى المرات استأجرت بيتاً لم يكن أكثر من ملجأ. حتى صاحبه كان قد تركه بعد أن طافت عليه مياه المجاري فقال إنه سيؤجره لسوري. يومها كنت مضطرة وهناك من دلّني عليه فأتيت واستأجرته. بعد أن سكنت البيت صار صاحبه يقول لي إنه قلق من أن تطوف المجاري، لكنه لم يقل إنه تركه لهذا السبب. سألت الجيران فأخبروني. زوجته قالت لي: "قدمي لنا طلب ترميم البيت على اسمك بدنا نحسّنه. وإذا رممتي لنا ياه بتضلي قاعدة لا بتدفعي أجرة ولا شي لترجعي على سوريا". وفعلاً قدّمت الطلب. وبعد أسبوع أو أسبوعين جاء وفد من قسم اسمه النجدة الاجتماعية، وهم مختصون بترميم البيوت. فحصوا البيت فوجدوا فيه أعطالاً كثيرة؛ كان الباب الحديدي مواربًا ويحفر دائرة كبيرة في البلاط عند فتحه. الشبابيك تحتاج إلى تحسين، حنفيات المجلى من أيام "السفر برلك"، الخلاطات قديمة جداً، مفاتيح الكهرباء عفنة، ولم يكن هناك خزان للمياه، الغرفة الداخلية بلا باب، والجدران إلى دهان. باختصار كان خرابة. سألني المتعهد: "شو بدك نساويلك؟"

صار أصحاب البيت يقولون: قولي له كذا وكذا، وفعلاً قلت ما طلبوه مني. كنت أبقى مع العمال. عملت صبيّ حداد وصبيّ طيان وصبيّ دهان. كنت أحضر كل طلباتهم من قهوة وشاي وماء وأدوات تنظيف. قلت لصاحب البيت أن يبقى معهم وأذهب إلى زوجته حتى ينتهوا من عملهم لكنه رفض وقال: "لأ أنا بروح بشطف درج باخد أجاره أحسن ما ضلني قاعد". أسهمت في عملية الترميم هذه بكل تفاصيلها، من دهان وبيتون وإسمنت بلا استثناء، ولم أصدق أنها انتهت.

في البداية سكنت حسب اتفاقنا أن أبقى سنة لا أدفع الإيجار وبعدها إما أن أبقى مع دفع الأجرة أو أترك البيت وأنتقل إلى آخر. لكنهم، بعد شهرين أو ثلاثة، قالوا إنهم سيسكنون معي في البيت. قلت لصاحب البيت: كيف والبيت غرفتان فقط وأنت وزوجتك مع ابنتين؟ أين ستعيشون؟ وأنا وابنتي؟ فأجاب أن أسكن وابنتي في الغرفة وهم في الصالة. قلت له: "طيب ما بدو الواحد يفوت عالحمام؟ ما بدنا ناخد راحتنا؟". قال: "والله هادا الموجود أو اطلعي من البيت. كل العالم عم يقولولي والله هالسورية ضحكت عليك، ظبّطت البيت وقعدت فيه". هنا ثرت عليه وقامت القيامة. يريد أن يخرجني في شهر رمضان. قلت إنني لن أخرج في رمضان. سأبقى حتى نهاية العيد وبعدها نبحث عن بيت. خرجت أخيراً وأنا أشعر بالقهر. لقد استغلوني. مع أن صاحب البيت كانوا يقولون عنه

إنـه درويـش وطيـب، وكان يأخذ حبوباً للأعصاب. احتالـوا علـيّ حتـى رممـت لهـم البيـت علـى اسـمي ثـم أخرجونـي وسـكنوا فيـه، وأنا عـدت للبحـث عـن بيـت آخـر.

مـرة نظمـوا لنا جلسـات دعـم نفسـي. يعنـي تحكـي عـن وجعـك ومعاناتـك وهنـاك مـن يسـمعك؛ سـألونا أسـئلة مثـل: "شـو قاهـرك؟ شـو بتتمنـى؟ شـو بتحـب كنـت تطالـع معـك مـن المخيـم؟". هنـاك مـن قالـت: "يا ريت طالعت البراد". واحدة قالت: "يا ريت طالعت الغسالة الأوتوماتيك". امرأة ثالثة قالت: "بتمنـى إنـي طالعـت الصـور لأنـه أكثـر أهلـي ماتـوا، إخواتـي وأولادي". وصـارت تبكـي...

في البحث عن حمص

> **اعتبرت السلطة في سوريا أن كل مخيم فلسطيني قنبلة موقوتة**

أنـا رائـد التوبـة. مـن مخيـم العائديـن بحمـص. أصولـي مـن فلسـطين، قريـة صفوريـة المدمـرة. ولـدت فـي المخيـم فـي عـام 1966، ودرسـت فـي مدارسـه الابتدائيـة والاعداديـة، ثـم توجهـت إلـى ثانويـات المدينـة لعـدم وجـود مـدارس ثانويـة فـي المخيـم. وللأسـف لـم أكمـل دراسـتي، انشـغلت بالعمـل السياسـي والفدائـي، وظروفـي أيضـاً لـم تسـمح لـي. عملـت محاسـباً فـي شـركة خاصـة لقطـع تبديـل السـيارات.

مخيم العائدين

خريطة توضيحية لمخيم العائدين

نشأت في هذا الخضم شديد البؤس، كانتون اسمه المخيم. ورغم ذلك كان المخيم بصيص الضوء أو الشمعة في المدينة التي كانت دائماً عابسة ومقموعة. عرفنا هذا بعد أن خرجنا وتعرفنا إليها. حتى أبناء المدينة من الشعراء والكتاب أو الفلاسفة وجدوا في المخيم متنفسهم. كان ملاذاً للنخب الحمصية، الطيب تيزيني رحمه الله، واحد من أهم مائة فيلسوف على الأرض، لم يجد متنفساً إلا في المخيم كي ينشر أفكاره. الشعراء شاكر مطلق وعلاء الدين عبد المولى وغيرهم أتوا إلى المخيم لإلقاء قصائدهم. كان المتنفس في حمص صغيراً وضيقاً جداً.

المخيم هو من شكّل وعيي ووعي جيل بأكمله. الحدث الفلسطيني كان في قلب هذه التجربة التي عشناها وجوهرها؛ نكبتنا هويتنا. منذ صغري عانيت من مسألة الهوية؛ من أنا؟ وكيف يجب أن أحقق نفسي كفلسطيني له هوية مستقلة وليس لاجئاً. صفة اللجوء رافقتني حتى الآن وأنا مقيم في ألمانيا. قلت دائماً لمن حولي من أصدقاء ألمان، على قلتهم: أنا "دبل" لاجئ، الآن لاجئ وكنت في سوريا لاجئاً. المخيم شكّل وعيي وشكّل قناعاتي السياسية والفكرية. كان مدرسة كبيرة بالنسبة لي بما يزخر من حركة وأفكار سياسية ونقاش ميداني دائم. مصطبة البيت كانت دائماً جمهورية مستقلة لمناقشة الحدث الفلسطيني بكل مآسيه وبطولاته، بكل أفراحه وأتراحه.

كان المخيم بالأصل إسطبلاً لخيول الفرنسيين. كان بَرَكس من قبة على شكل ثمانية مصنوعاً من الزينكو (التوتيا)، المعدن الأثير والمشهور في أذهاننا وذاكرتنا في طفولتنا. قسموا الإسطبل إلى غرف صغيرة مفصولة بالأغطية والبطانيات التي كانت توزعها الوكالة أو الجيش الفرنسي، وكانت لكل عائلة غرفة. هذه كانت بدايات المخيم. أعتقد أنه لا تزال هناك بركسات في المخيم حتى الآن.

أقمنا في حارة اسمها حارة الصفافرة. مثل جورة التراشحة في مخيم برج البراجنة، أو حارة التراشحة في مخيم النيرب. كانت هناك حارة الشجارنة وحارة الصفدية وحارة التراشحة أيضاً. نشأت في أسرة مكوّنة من أب وأم وسبع أبناء، أربع فتيات وثلاثة شباب. كان أبي يعمل في محطة محروقات، يعني كازية، قرب المخيم. أمي ربة منزل. تأثرت بأمي بما أنني عشت معها أكثر من أبي الذي توفي باكراً عام 1978.

كنت مرافقاً لأبي حتى وفاته. كنت أذهب معه إلى الكازية وهناك كنا نبيع المعمول وكازوز الكراش ومثل هذه الأشياء. لا زلت أذكر للآن البوسطات التي كانت تأتي للتسوق في حمص وتذهب إلى طرابلس أو إلى لبنان. البوسطات اللبنانية القديمة مثل بوسطة الحرب الأهلية تماماً.

أذكر أن سميرة توفيق مرت في إحدى المرات بالكازية التي يعمل فيها أبي فطلب منها أن تغني له أغنية لها لم أعد أذكرها. لكنه بقي فخوراً بهذا وظل يحكي لأصدقائه أنها أتت إلى الكازية وغنت له. حدث هذا فجراً وسميرة توفيق غنّت احتراماً لرغبة أبي.

كانت بلا شك طفولة بائسة. لم أكن أعرف شيئاً اسمه العطلة، لأنني في العطل كنت أذهب لأساعد أبي في الكازية. يجب أن أساعده في الصيف ولم يكن هناك من خيار آخر. أو يجب أن أبيع الذرة المسلوقة. بعد وفاة أبي ساء الوضع المادي جداً بطبيعة الحال، وصار لزاماً عليّ أن أعمل وكنت لا أزال في الصف الرابع أو الخامس. قبل وفاته كان هناك مصدر للرزق، لكنه ذهب.

صفورية وجيل النكبة

صفورية منطقة عامرة مليئة بالحمضيات وخاصة الرمان. الرمان الصفوري مشهور، الليمون والبرتقال أيضاً، فيها زيتون وإن بكمية قليلة. هذا من ناحية اقتصادية. عمل أهلها في الفلاحة وامتلكوا ماشية كالبقر والغنم. لم تكن عندهم مياه صحية ممددة إلى البيوت، لكن القرية حوت على بئر كأي قرية أخرى. ومن هذا البئر أحضروا ماء للشرب أو الغسيل، اسمه بير الدويّة. أبي كان متمرداً ودائم التواجد في الخلّدية، وهي منطقة حراجية كثيفة ومخيفة ليلاً محاذية لصفورية. هو وأصدقاؤه كانوا دائماً هناك. حكى لي أنه كان يهرب من العادات والتقاليد. مجتمع بطريركي شرقي وقروي، الكبير فيه دائماً يريد أن يكون هو المسيطر.

أمي وأبي حكوا لي عن الأعراس. عن ليلة الحنة، وكيف كان الاحتفال يستمر لستة أو سبعة أيام. هناك موضوع آخر وهو عن الطهور. كانت للمطهّر قدسيته، مجيئه لتطهير الأولاد كان حدثاً عظيماً. المطهّر الصفوري موجود في دمشق ومراكش وباكستان وفي أي مكان. لكن ليس كل من لقبه صفوري ينحدر من صفورية، وإنما هي قصة قديمة عن زوجة النبي موسى واسمها صفورة، عندما أرادت أن تختن ابنها ختنته بحجر صوّان. وهذه الحكاية موجودة في الإصحاح القديم رقم أربعة الآية 25-26 "فلما أتت صفورة قصت غرلة ابنها بالحجر".

أحاديث أبي وأمي وأعمامي وأقاربي عن النكبة لا تزال محفورة إلى الآن في ذاكرتي. عندما كانوا يحكون، وكنا صغاراً، كنا نجلس ونستمع بهدوء. كان يجب ألا نتكلم. هذه الأحاديث كانت تجري دائماً في المناسبات الاجتماعية الحميمة كالزواج، أو العيد الكبير أو الصغير، والطهور.

الجهل هو من دفعهم لمغادرة لصفورية. هذا تحليلي. تكلمت الإذاعات العربية عن مجازر مثل مجزرة دير ياسين، وانتشرت الشائعات البغيضة عن عصابات الهاجانا والأرجون وكيف اغتصبوا النساء وقتلوا الأطفال وغير ذلك من وحشية. طبعاً خافوا كثيراً على أطفالهم من أن يتم ذبحهم أو بقر بطونهم، ومثل أي شرقي على نسائهم وشرفهم. كانت الشائعات كبيرة في ذلك الوقت. بالإضافة إلى هذا وعدهم جيش الإنقاذ أنهم لن يغادروا بيوتهم لأكثر من أسبوع، ولذلك خرجوا. منهم من أخذ مفتاح بيته أو جلب معه فراشاً، أي لم يأخذوا غير أشياء بسيطة أو لا شيء. ترك جدي البقرات التي يمتلكها بعد أن وضع لها طعاماً يكفيها بضعة أيام على أمل العودة قريباً. لاحق الطيران اللاجئين الذين هُجّروا من بيوتهم من قرية إلى قرية. وصلت عائلتي إلى مرجعيون وكانوا لا يريدون استئجار منزل، بل المكوث في خيمة في بساتين مرجعيون لقناعتهم أنهم عائدون بعد أربعة أو خمسة أيام. لكن الدرك اللبناني سيئ الصيت والسمعة، بالتعاون مع الفرنسيين، أصعدهم القاطرات وأرسلهم باتجاه المدن اللبنانية والسورية. توزّع أغلب أهل صفورية في مخيم عين الحلوة ومخيم نهر البارد، وقسم منهم ذهب إلى مخيم اليرموك. أما أبي وأعمامي كلهم فقد كان من نصيبهم مخيم حمص.

لم يغيّر جيل النكبة الأول عاداته أبداً. في الأعياد كعيد الأضحى أو عيد الفطر، وفي مناسبات الأعراس والطهور وغيرها، كان الكبار يجتمعون ويتضح فوراً من الأكبر ومن الأصغر، من يتكلم ومن يسكت. كان يجتمع حينها حوالي الخمسين أو الستين رجلاً، منهم من كنا معتادين أنهم يعطون الأوامر، لكن أبي وعمي كانا يصمتان عند حضور عمهما، كان أبي لا يتكلم ويكتفي بالاستماع وبصبّ القهوة وتقديم الشاي. كانت هذه عادات الآخرين أيضاً وليس أهل صفورية فقط. ظلت هذه التقاليد موجودة لكن الذي تغير هو وجود الفصائل والتنظيمات السياسية. كانت هذه أفكاراً جديدة على المخيم.

أنا شخصياً خرجت من جلباب أبي إذا جاز التعبير، تعرفت على أفكار جديدة وكان للفصائل الدور الأساسي في هذا؛ الجبهتين[8] وفتح. زعزعت هذه الأفكار القناعات والثوابت التي ورثناها عن أهلنا ومن مجتمعنا المحافظ البطريركي. لهذا كان دور الفصائل رائعاً جداً بالنسبة لي، تعرفت من خلالهم على وجوه وأفكار جديدة، لأصل بعدها إلى المدينة بطريقة أسلم وأفضل. صرنا نتواصل مع نخب المدينة وليس مع عامة الناس الذين ينظرون إلينا نظرة ابن المدينة إلى اللاجئ، المسألة التي عانى منها أبي وأعمامي وجيل النكبة الأول عموماً. أتت هذه الأفكار الجديدة وجعلتنا نرى الكون والناس بطريقة أخرى.

المخيم والثورة

أول شهيد من المخيم في الثورة السورية هو وليد السيد[9]. وقد استشهد في حي الشماس القريب منا، كان يشارك في المظاهرة عندما أطلق حاجز المخابرات النار واستشهد برصاصهم. كانت مظاهرة سلمية، مجموعة شباب يهتفون فقط ورغم ذلك أطلقوا النار عليهم، مما فجّر الوضع أكثر.

لطالما اعتبرت السلطة في سوريا أن كل مخيم فلسطيني قنبلة موقوتة. كانوا مقتنعين مسبقاً أن المخيم سيكون أول من سيفجر الثورة أو أنها ستندلع من خلاله. بنسبة 99،9% كان مخيم حمص مؤيداً لمطالب الشعب السوري بالحرية والكرامة ومتفقاً معها. طبعاً كان لدينا من هم متعاونون مع السلطة الأسدية وعملاء لها ومخبرون آذوا الكثير من أبناء المخيم، لكن المخيم عموماً كان مع الثورة قلباً وقالباً.

المخابرات في حمص تحديداً كانت "أعينهم محمرّة" على المخيم. اعتبروا أن من المستحيل ألا يكون مسلحاً ويخطط لشيء، رغم أن المخيم كان مسالماً جداً في بداية الثورة. خرج الشباب في مظاهرتين أو ثلاث، حطّموا مبنى مؤسسة اللاجئين التي كانت دائماً مركزاً للمخابرات التي تعتمد على هذه المؤسسة عندما كانوا يريدون اعتقال أحد. كانت المؤسسة بالفعل مفرزة متقدمة للمخابرات في المخيم. لذلك حطّموها ضمن ردود الفعل بعد استشهاد وليد. الرأي العام في المخيم كان يميل الى أنه -أي المخيم- يجب أن يكون ملاذاً آمناً لمن هُجّر من حمص القديمة.

على حواجز المخابرات، عندما كانوا يعرفون من هوياتنا أننا فلسطينيون، كان وضعنا غامضاً. النظام يقول بأنه مع تحرير فلسطين، ويعني هذا أنه معنا، ولكن في الوقت نفسه كانت النظرة الطائفية موجودة، فالفلسطينيون "سنّة". هذه الطائفية لا نعرفها ولم نتلوث بها كفلسطينيين. استمرت الأمور هكذا في أول شهر، مع أن المسألة بالنسبة لنا كانت محسومة من قبل الثورة. المخيم مع الثورة ولكن بشكلها السلمي. في الأشهر الثلاثة الأولى بعد بداية الثورة كان المخيم يغلي. بعدها بدأ اللجوء الجديد وصار المخيم يحوي أربعين ألف أو خمسين ألف نسمة بعد أن أتى نازحون من أهل حمص القديمة، وأتوا أيضاً من بلدات الريف التي كانت تتعرض للقصف الأسدي.

شكّلنا لجنة وكنا نذهب بسيارة فان إلى مخيم اليرموك. خالد المخيم (خالد بكراوي) رحمه الله وفادي خطاب وبعض الشباب الآخرين كانوا يملؤون لنا الفان بكامله كي نحضره إلى مخيم حمص ونوزع أغلبه على النازحين. استمر هذا الأمر حتى 2012، 2013. وكان على مستوى ضيق، كنا مجموعة مؤلفة من أربع أو خمس فتيات وشباب فقط. كان يوجد غيرنا ممن يعمل في الهلال الأحمر أو الأونروا وغيرها.

[8] - الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.
[9] - استشهد يوم الجمعة 1 تموز 1102.

كنت قد أنشأت صفحة اسمها وجوه من المخيم أصوّر فيها الواقفين في الطوابير ليلاً بالشموع نظراً لانقطاع الكهرباء. وزعت الوكالة المساعدات للعائلات الفلسطينية وإن كانت محدودة ولكن كانت هناك معونات، لأنه وبعد 2014 لم يعد أحد يخرج من المخيم إلا للموت. وفي ما يخص النازحين كان في الهلال الأحمر السوري شباب من المخيم محترمون جداً قاموا بتوزيع المساعدات عليهم.

لم نكن نمثل أي تنظيم، لكننا كنا نأخذ ورقة من صلاح عباس (أبو محمد) من القيادة العامة. كان يعطيني ورقة حتى نستطيع عبور حواجز المخابرات والجيش بسهولة ودون مشاكل. أبو محمد صلاح أسير محرر كان مسؤول القيادة العامة في حمص وقد توفي مؤخراً. كنا دائماً نربط بين القيادة العامة والصاعقة والمخابرات بشكل تلقائي وعفوي. في المخيم كثيراً ما اختلفنا سياسياً أنا وأبو محمد، في مكتب القيادة العامة قلت له أنا مع الثورة السورية ظالمة أو مظلومة وحدث نقاش ساخن. لكني أحترمه، لم يؤذ أحداً من المخيم بل كان يحاول إخراج معتقلين لدى المخابرات، لكنهم لم يخرجوا. كانت له أياد بيضاء ولا أحب أن أربط بينه وبين القيادة العامة، وقلت له هذا. أبو محمد أعطى فكرة أخرى عن القيادة العامة في مخيم حمص حصراً. كان الكل في المخيم قبل الثورة يكن له الاحترام. لم نشعر أنه من القيادة العامة التي نعرفها. كان وطنياً ولطالما كان مع أهل المخيم. المخبرون مارسوا الدور الأسوأ، مدير المؤسسة العامة للاجئين غسان عطا حسون، وبعض المخبرين التافهين ممن كانوا يبلّغون عن الناس، وذهب ضحية وشاياتهم أكثر من مائة شاب من المخيم. وأنا بعد أن اشتدت الأزمة توقعت أن اسمي أصبح مطلوباً على الحواجز، لهذا لم أعد أخرج من المخيم.

السلطة السورية كانت مقتنعة بفكرة، سمعتها من شخص موالٍ جداً وكان سورياً وليس فلسطينياً ويشغل مركزاً مرموقاً، أن في المخيم أنفاقاً بنتها حماس، وأن عندنا متاريس وأسلحة ثقيلة، وأن هذه الأسلحة تستطيع أن تقصف حياً مجاوراً لنا هو حي النزهة الذي تسكنه "الطائفة الكريمة"[10]

كان أصدقائي يقيمون في هذا الحي. كنا نذهب كل خميس ونشرب الكحول هناك عند أصدقاء من الطائفة الكريمة ومن غيرها. كنا من عدة طوائف لا نعلم إن كان هذا الشخص علوياً أو مسيحياً، نسهر سوياً عندهم أو عندنا، لكن النظام يحب التهويل.

لا للسلاح

أذكر أنه في أحد الأعياد أراد الشباب نصب المراجيح، وليقوموا بتثبيتها لزمهم أكياس رمل فملأوا الأكياس ووضعوها. الأمر الذي وصل إلى ضابط المخابرات، وهو مسؤول كبير في الأمن حالياً اسمه حسام لوقا، على أن المخيم يتسلح ويقيم المتاريس! تم تصوير الشباب وهم يحملون أكياس الرمل العشرة، وكانت أكياساً صغيرة لا تصلح للمتاريس، وما بداخلها كان نحاتة، وهي مادة تستخدم في البناء مع الإسمنت وليست الرمل الخاص بالمتاريس. ورغم ذلك فالخبر تم إيصاله إلى المخابرات على أن المخيم يتسلح ويقيم المتاريس. شيء مضحك.

كان للفصائل ولوجهاء المخيم، وهم الشخصيات الوطنية فيه، الدور الأكبر في ضبط المخيم. قالوا نريد أن تكون علاقتنا بالدولة ومؤسساتها سليمة لأن هذه المؤسسات هي التي تخدم البلد. كما كان لهم دور كبير في توضيح أننا لسنا مسلحين ولا نحن الضاحية الجنوبية حتى تكون عندنا أنفاق وأكياس رمل.

[10] - كناية متداولة بين السوريين عن الطائفة العلوية.

كان لحماس دور كبير في المخيم قبل الثورة، بما تحمل من أفكار وجدت مكانها مع تراجع اليسار فكان لها امتداد جماهيري كبير في المخيم وفي باقي المخيمات حسب اعتقادي. عند اندلاع الثورة السورية كانت أجهزة المخابرات تعرف تماماً وزن حماس ولهذا تم اتهام المخيم بحفر الأنفاق. وهنا كان دور الفصائل والوجهاء كبيراً بأن لا علاقة لنا بهذا، رسمياً على الأقل. ومن أتى إلى المخيم أتى للإيواء فقط. وأننا لا نريد سلاحاً في المخيم.

أول مظاهرة ضد السلاح في حمص خرجت في المخيم. وكنت أخوض نقاشات كبيرة مع من يأتي إلى المخيم من المعارضين أو مع من التقيت بهم في المشفى عندما أصيب ابني، أن التسليح هو الفخ الذي يريد النظام أن يوقعنا به، ولكن النظام في النهاية لم يترك أي فرصة للصلح أو السلمية. أنا شخصياً لم أكن مع فكرة العمل المسلح، وأعتبر أن النظام من جرّ المعارضة إلى هذا الفخ. قد يكون هناك الكثير من المبررات لأن تستخدم المعارضة السلاح ولكن قناعتي أننا سنخسر في هذا المجال. هذا النظام تسانده روسيا، وأنا وكثيرون غيري كنا نتوقع أن يتدخل الروس والإيرانيون منذ البداية. منذ 2011 توقعنا أن لا روسيا ولا إيران ستكتفي بمراقبة النظام وهو يواجه مصيره.

كان هناك ثلاثة مسلحين فقط في المخيم، أحدهم وسام السيد، أبو وليد الذي استشهد فحمل والده السلاح كردة فعل، مع أن سلاحه كان بندقية قديمة لا تطلق أكثر من طلقة أو اثنتين. ومعه اثنان من أصدقائه؛ رامي صبحية وأحمد الشعبي.

هؤلاء من حملوا السلاح في المخيم فقط. ويعرف الجميع أن الأسلحة التي امتلكوها كانت لا تطلق إلا بضع طلقات وينتهي أمرها. ولم يطلقوا النار ولم يقتلوا أحداً أبداً. وكان معهم شاب من مخيم اليرموك كان آتياً إلى مخيم حمص للزيارة في مصادفة سيئة[11]. اقتحم الأمن المنطقة وحاصروا البيت ليومين وقاموا بإطلاق النار، وبعد وساطة من أحد شباب المخيم سلم الرجال أنفسهم للأمن الذين كانوا قد خطفوا أم وليد وأخوات الشباب الباقين. حدث هذا في 2015، أي بعد خروج أهل حمص القديمة بالباصات الخضر إلى إدلب. كان هؤلاء الثلاثة هم المسلحون الوحيدون المتبقون في حمص كلها، لهذا اقتحم الأمن المخيم، بمساعدة المؤسسة، وحاصروا البيت وأخذوا الرجال. في الفرع وضعوا دولارات بجانبهم وأسلحة حديثة وفتّاكة وتم تصويرهم على أنهم مجموعة إرهابية جاءت لتشارك في المؤامرة الكونية على سوريا، ثم قتلوهم خلال دقائق.

المخيم تحت التضييق

من أواخر 2013 حتى منتصف 2014 لم أخرج من المخيم. كان الحاجز على باب المخيم يفحص الهويات وكنت مطلوباً. إضافة إلى أن مكتب الصاعقة[12] كان مركزاً لمفرزة الأمن العسكري أو السياسي أو المشترك لا أعرف تماماً، وكان العناصر يبيتون في المفرزة مع سلاحهم وآلياتهم. وعندما كانوا يعتقلون أحداً كانوا يقتادونه إلى هذه المفرزة.

استشهد جزء كبير من معتقلي المخيم تحت التعذيب وبدون محاكمة ولا محام ولم يتم عرضهم على القضاء أبداً. بعضهم قتل بعد دقائق من اعتقالهم. لا أحد ممن أعرفهم من المائة شهيد وُجّهت له أي تهمة. كانت ما تسمى باللجان الشعبية مجموعات طائفية صغيرة تسرح وتمرح في

[11] - عبد الرزاق عمايري.
[12] - طلائع حرب التحرير الشعبية - قوات الصاعقة: منظمة فلسطينية موالية لحزب البعث الحاكم في سوريا.

المدينة، وبطريقة الإسرائيليين في التفكير؛ أنت فلسطيني إذاً يجب أن تعتقل وتموت، هذه كانت طريقتهم على الحواجز. لهذا أغلب من استشهد من الشباب تم قتله بعد دقائق من اعتقاله، أو وصل إلى الفرع وقتل هناك. أعرف أسماء عشرات ممن اعتقلوا وما زالوا مجهولي المصير، حتى الآن لا نعرف هل ماتوا أم ما زالوا أحياء. شخص اسمه محمد درويش، لقبه أبو نايف، وصل خبر وفاته وأقام أهله وزوجته مأتماً له، ليصلهم خبر يؤكد أنه على قيد الحياة. شكّ أهله بالموضوع، ودفعوا الكثير ليحفروا قبره ويتأكدوا، وكانت الجثة لأبو نايف بالفعل. رأوا علامات التعذيب في جسده، كان بطنه مشقوقاً إلى آخره. الكثير من المآسي حدثت وقتها في المخيم.

كنا نضطر للتحايل على التضييق الأمني لنستطيع إحضار الطعام والشراب. عدد سكان المخيم ازداد كثيراً. أصبح يحوي 50 ألف نسمة بعد أن كان عدد سكانه لا يتجاوز 12000. من كان باستطاعته الخروج من المخيم كان يذهب لجلب الطعام. بما أن أسواق الخضار في حمص القديمة تم إغلاقها، لهذا من استطاع الخروج اتجه إلى الريف الغربي، هناك حيث "الطائفة الكريمة" يسمح لهم بالبيع والشراء. طبعاً تعرضوا للابتزاز وللخطف وللكثير من المضايقات.

أنا فتحت محل قهوة، بعد أن أخذت وكالة بن الحسناء من اليرموك. كانت الحواجز الموجودة على الطريق تأخذ جزية أو "خاوة". مثلاً إذا طلبت مائة كيلوغرام من البن يصل إليّ تسعون والباقي تأخذه الحواجز. الرشاوى كانت تسمح بمرور أي أحد ولو كان مطلوباً، أي نوع من الرشوة كان كافياً. ليتر ويسكي مغشوش أو علبتا متة أو كروز سجائر حمراء طويلة كانت تفي بالغرض.

استمرت الأونروا تقوم بدورها التعليمي. أذكر أن امتحان الثانوية العامة جرى في صفوف المدارس الإعدادية التابعة للأونروا. كان الكادر التدريسي حريصاً على استمرار العملية التعليمية، أما الأونروا فكانت محكومة من الأمن. أذكر أننا التقينا بمديرة الأونروا في المخيم، كان يجب أن نجد الحلول لمشكلة القمامة التي انتشرت بشكل كبير مما سبّب المشاكل للسكان. في المخيم يوجد عمال نظافة يقومون بجمع القمامة ويضعونها في حاويات امتلأت ولم تعد تتسع أكثر. اكتشفنا أن المسألة لها علاقة بمدير المخيم الذي كان يريد التعاقد مع "تركس"، في ذلك الوقت لم يكن أي أحد يجرؤ على استئجار سيارات كبيرة لتحميل القمامة والمرور بها عبر الحواجز التي كانت تحقق عن هويات الأشخاص ومن أين يأتون وإلى أين يذهبون، وقد يتم قتلهم. الوكالة طرحت المناقصة ليأتي مدير المخيم ويأخذها. وعن طريقه ستخرج السيارة إلى خارج المدينة لرمي القمامة حيث كان الأمن منتشراً في الضواحي. أحد الشبيحة استأجر تركساً بخمسة آلاف أو عشرة وتم تسجيل التكلفة مائة ألف على الأوراق الرسمية، في وقت كان الدولار فيه يساوي سبعين ليرة. ولم يكن أحد يستطيع أخذ المناقصة باستثناء مدير المخيم الذي كان يشارك ضابط أمن في المدينة ويقتسمون السرقات.

عانينا من انقطاعات متكررة للمياه، وكان هذا أحد أساليب النظام الضاغطة. أيضاً كان هناك انقطاع في الكهرباء، شبكة الكهرباء كانت قديمة وقد زاد التحميل عليها بعد الازدياد الكبير في عدد السكان. بعض شباب المخيم تبرعوا بإصلاحها بعد غياب الدولة وانسحابها تماماً من المخيم، حتى جباة المياه والكهرباء لم يعودوا يأتون. كنا نتمنى مجيئهم، لا مشكلة لدينا معهم، كنا نريد دخول مؤسسات الدولة. مطالبنا كانت الحرية وليس غياب الدولة. ولكنها انسحبت من حمص كلها وليس من المخيم فقط.

ما زلت أذكر ذلك الشاب الحمصي الذي وقف عند دوار المشفى الوطني، بعد هروب شرطي المرور نتيجة إطلاق النار حتى عليهم من قبل المخابرات، ليأتي هذا الشاب وينظم حركة المرور. ناسٌ لا

ينقصهم من الرقي والثقافة شيء أبداً، كل ما كانوا يريدونه هو الحرية والحرية فقط. في المخيم أيضاً شكّل بعض الشباب مجموعة لإصلاح الأعطال التي كانت تحدث. لم تحدث انقطاعات كبيرة في الإنترنت أو الهاتف، فهذه كانت مصدر معلومات كبير للنظام. انتشرت وقتها بدائل الطاقة، البطاريات والشواحن الصغيرة واللدات للإضاءة وازدهرت تجارتها. كانت أياماً لا تنسى.

طريق الهجرة

خرجت من المخيم، أنا وابني، حوالي 10 أيلول 2014. لم نسلك الطريق التقليدي لخطورته. خرجنا مع شاب من مخيم حماة كان ملازماً أول في القيادة العامة، يعمل في إخراج الناس مقابل 200 دولار للشخص. وهو ما لم يعد سراً بعد اعتقاله. كنت أعرفه من أيام الجيش، فاتصلت به واتفقت معه. أتى بالسيارة من مخيم حماة إلى حمص. خرجنا في الصباح الباكر مع العمال كي لا يلاحظنا الحاجز، عمال السماد ومصفاة حمص والإنشاءات العسكرية كانوا يذهبون إلى عملهم في وقت مبكر. كان أي حاجز يسمح لنا بالمرور ما إن يرى هوية القيادة العامة. حتى أعتى الحواجز؛ حاجز شارع الستين، وكنا نسميه حاجز البربارة تشبيهاً بالحاجز الشهير التابع للكتائب في لبنان في ما مضى. كان حاجز الستين بغيضاً وطائفياً جداً. فبمجرد أن يعرف عناصره أن أحداً ما فلسطيني كانوا يفترضون مباشرة وجود المال بهدف السفر إلى تركيا، فيذبحونه بعد أخذ النقود التي معه. ذكرتني هذه الحواجز لشدة غبائهم بحواجز قوات الردع العربية في لبنان. كان الحاجز الأخير يتبع للأمن الجوي، فرح العنصر لأن اسم ابني مجد وليس جهاد أو عمر مثلاً، مع الأسف كانت هذه نظرتهم. سألني إلى أين نذهب فقلت إلى أقرباء لنا في مخيم النيرب بما أن الأمور هناك أهدأ، قال لي: "يا أخي خلّصنا وارجع لفلسطين، شو جاي تعمل هون؟ في شغل بفلسطين". معتقداً أن باستطاعتنا ركوب السيارة والعودة إلى فلسطين، هكذا بكل بساطة.

بهذه الطريقة وصلت إلى قلعة المرقب وكانت من ضمن مناطق المعارضة وأكملنا إلى تركيا. بقينا في مرسين حوالي عشرة أو خمسة عشر يوماً لنتوجه بعدها إلى إيطاليا عن طريق البحر، إلا أن المركب تعطّل بنا وأنزلونا في قبرص.

زوجتي ظلت في حمص، أما بقية العائلة فتلك مسألة أخرى؛ سافر ابني بهاء إلى هولندا وكان قد خرج قبلنا عن طريق البحر، كان طالباً جامعياً إلا أنه ترك دراسته. ابني البكر نضال كان قد أصيب بطلقات في بطنه في مجزرة الساعة الشهيرة فاضطررنا إلى أن نأخذه إلى مشفى الرعاية الاجتماعية في حي الوعر، وكانت منطقة معارضة ومحاصرة من قبل النظام. أدخلناه وتلقى علاجات ترقيعية وعدنا به إلى مخيم حمص، ولكن كان لا بد له من استكمال علاجه. استطاع الهرب إلى لبنان بمساعدة أصدقائه وهناك عمل كمصمم في جريدة الكترونية شهيرة اسمها "المدن"، حوالي السنة، من لبنان سافر إلى تركيا فقد كان يمتلك جواز سفر تابع للسلطة، ومن تركيا ذهب إلى اليونان ومنها إلى ألمانيا. أما أنا وابني الأصغر فقد علقنا في قبرص لسنة وشهرين. أعطونا الإقامة وجوازات السفر وكل حقوق اللاجئين، كانت هذه التجربة الأولى لقبرص في موضوع اللجوء بالتعاون مع الاتحاد الأوربي. ولكن كانت أوربا هدفنا. وبسبب مشكلة حدثت معنا في قبرص تأخرنا في الخروج منها.

في ذلك الوقت كتبت رسالة إلى ملك السويد ونشرتها على فيسبوك. تكلمت فيها عن حياتنا وسهراتنا، عن أولادي الذين هم أصدقائي وكيف كنا نتحدث في كل شيء وأخبرهم عن الكثير مما

عشته من تجارب. كانت سهراتنا رائعة. في بيتنا مطبخ مع بار كنا نجلس فيه ونتكلم في أجواء حميمة ومؤثرة. حكيت له عن افتقادي الشديد لهذه الأجواء، رائحة الفجر التي كانت تطل من النافذة، أصوات الأولاد الذاهبين إلى مدارس الأونروا، تلويحات الأصدقاء، طقوس يوم الجمعة عندما كنت أعدّ الفول أو الفتة لأسرتي. اجتماع العائلة الكبيرة عندما كنا نلتقي أسبوعياً للسهر مع أخوتي وأبنائهم، وكان المكان يمتلئ بأحاديث في السياسة والفلسفة والدين والشعر. اعتذرت من الملك لاحتمال أننا قد نشتمه عندما نكتوي بنار الغربة. ومع ذلك قلت إنني كنت أحلم بالسفر إلى السويد، فهي تمثل رمزاً لأوربا.

بعد سفريات معقدة التم شمل العائلة الآن في ألمانيا. جاء ابني من هولندا ليحتفل معنا في عطلة رأس السنة. عندي بنت كانت في السعودية ولكنها لحقت بنا وتقيم الآن في ألمانيا.

في غوسلار بألمانيا

نسكن حالياً في مدينة جميلة جداً اسمها غوسلار (Goslar). مدينة هادئة تشبه حمص كثيراً. أهلها طيبون وبسطاء ومحترمون للغاية. عندي الكثير من الأصدقاء من الجالية أو من الألمانيين من النخب وأنا فخور بهذا. علاقتي جيدة بالجالية العربية التي تقيم هنا منذ زمن. أما الألمان فهذه مسألة أخرى، بالعموم هم مع اللاجئين ولكننا قد نختلف في القضايا السياسية. من حافظت على علاقتي بهم يحبوننا ويقفون مع قضيتنا. معيار علاقتي مع الألمان هو "فلسطين لا إسرائيل" (Palästina nicht Israel). لطالما قلت لهم: "حيث يوجد للإنسان كرامة وحرية فهو وطنه". كانوا يقولون: اعتبر أن وطنك هنا وانس فلسطين. معتقدين أن المسألة هي فقط سيارة وبيت وأكل وشرب. كانوا يقولون لي: أنت فلسطيني ما علاقتك بقضية السوريين؟ أو تساؤلات من نوع: لماذا تناصر كاسترو أو فنزويلا أو جنوب أفريقيا؟ ظلم تاريخي كبير وبروباغندا هائلة هنا. منذ ست سنوات ولم أجد إلا ألمانية واحدة فقط تستطيع أن تتقبّل هذه الأفكار بما أنها يسارية. البقية ما زالوا متعاطفين مع الإسرائيليين.

حالياً أنا في السنة الرابعة للتمريض العام (Pflegefachkraft Generalestig). في مقاطعة ساكسونيا السفلى (Niedersachsen) التي أسكن فيها كان استثناء أن يدفعوا لأحد في عمري هذه المبالغ كي يستطيع أن يلتحق بالتدريب المهني. ولحدّ الآن لا أتلقى بدل التدريب المهني، (Berufsausbildungsbeihilfe) (BAA)). وقّعت عقداً مع مأوى العجزة (Altersheim) هنا لمدة ثلاث سنوات، يعطونني بموجبه راتباً تدريبياً كي أعمل وأتدرب. نظام العمل هنا مقسّم بين 60% من العمل والتدريب في المشفى العادي (Krankenhaus) أو سكن الأطفال (Kinderheim) كالمصابين منهم بالسرطان أو في دار المسنين (Seniorenheim). هذا مجالي منذ أربع سنوات وبقيت سنة واحدة. ستون في المائة من الدوام عملي والباقي نظري.

تم التوسط لي كي أتعلم مهنة. الواسطة هنا ليست كما نفهمها في بلادنا. بعد وصولي إلى ألمانيا عملت لسنتين كمتطوع، أساعد الناس في أوراقهم وترجمتها في وكالة اسمها الوكالة التطوعية لمساعدة اللاجئين في مدينة غوسلار (Freiwillige Agentur Goslar). ذهبت أيضاً إلى مدرسة للأطفال غوته في مدينة غوسلار (Goetheschule Goslar) وساعدت الأطفال العرب القادمين حديثاً ممن لا يزالون لا يعرفون اللغة الألمانية في فهم ما يقوله معلموهم. هذه الأعمال التطوعية هي

ما ساعدني كي يسمحوا لي بعمل (Ausbildung) في عمري هذا.

لم أتعرّض لأي نوع من أنواع التمييز على الإطلاق هنا. في المدرسة التي أنا فيها عشرون ألمانياً، شبان وشابات، تعاملهم ليس فيه أي إهانات أو عنصرية. غوسلار مدينة جميلة وأهلها طيبون. لم يشعروني أنني أجنبي (Ausländer) إطلاقاً، بل تعاملوا معي كواحد منهم وأنا فخور بهذا.

تعرفت إلى أشخاص جدد في المدرسة الابتدائية، مدرسة رائعة كثيراً، ما جعلني أفكر أين نحن من هؤلاء الناس. كنت أدخل إلى الصفوف الدراسية التي تحتوي على أطفال عرب، مع المدرّسات طبعاً، وأشرح لهم ما تريد الآنسة أن تعلّمهم إياه. هؤلاء الطلاب منهم من كان لم يدخل إلى المدرسة بعد لعدم وجود مدارس في المخيمات، فأتى مباشرة إلى المدرسة الأساسية (Grundschule) أي التعليم الابتدائي.

تطوعت أيضاً في مسبح ضاحية أوكر- غوسلار (Das Schwimmbad in Oker- Goslar). هنا لا يوجد موظف في المسبح ليقطع التذاكر، لهذا عملت في المسبح على الصندوق، ولا زلت أعمل في كل عام عند افتتاح المسبح في شهر أيلول.

منذ أن كنت شاباً أو أصغر كانت أمي تقول لي إنني يجب أن أعيش في بلاد الكفار. كنت أشعر أن كل شيء في مجتمعاتنا خاطئ، حتى في المخيم كانت علاقاتي محدودة رغم شعبيتي، لكن الكآبة كانت قاتلة.

هذه البلاد هي بلاد سيادة القانون. شعرنا هنا بإنسانيتنا بكل معنى الكلمة. لم نكن بشراً. وأقولها لجماعة "كنا عايشين": لم نكن بشراً. انتسبت لحزب اسمه ((Die Basis وهو حزب وليد، لكنه لم ينجح في انتخابات البرلمان والمجالس المحلية (Bundestag) الأخيرة. في انتخابات مجالس المدن المحلية رسب حزب ميركل وكان صهري أحد مرشحيه. القائمة كلها رسبت ونجح الحزب المنافس؛ شولتز. فرحت كثيراً عندما شاهدت المحافظ السابق يهدي المحافظة الجديدة وردة والناس تصفق، كان هذا في ساحة غوسلار. أيضاً شولتز المستشار الحالي أهدى ميركل باقة من الورد، بهذه البساطة انتهت القصة وتم التسليم والاستلام وعاد الكل إلى عمله. حتى لو عشت لمئتي سنة لن أنسى هذا أبداً. في ذاكرتنا لا يتم تسليم السلطة إلا بالدبابات والدماء، هذا ما كان يحدث ونعرفه. كانت فرحتي كبيرة بهذه الروح العالية التي رأيتها، لكن حسرتي كانت كبيرة أيضاً.

لا أشك في عودتي إلى سوريا ولكن ليس للإقامة النهائية. أتمنى أن أزورها عندما تتحرر. النظام وأعوانه يراهنون على استمرار الأسد والاستبداد للأبد، وهذا مستحيل.

أذكر كلمة رائعة للمرحوم سلامة كيلة "من أجل فلسطين نريد إسقاط النظام". لا يمكن تحرير فلسطين مع أنظمة متهالكة كهذه. منذ وقت طويل كنت أذهب إلى لبنان تهريباً وأدخل من منطقة العريضة. حمص قريبة من طرابلس. كنت أسافر مرتين أسبوعياً عن طريق رشوة أعطيها لضابط برتبة عقيد، مقابل ليتر ويسكي مغشوش أو كروز من سجائر المالبورو كان يأخذني بسيارته الزيل ويوصلني إلى حمص دون هوية أو أي نوع من الأوراق الثبوتية. هذا النظام فاسد ومتهالك، ينخره السوس وتنخره كل أجهزة الاستخبارات وليس باستطاعته تحرير فلسطين ولا الجولان.

لهذا نريد الاعتماد على نظام قوي يأتي عبر صناديق الاقتراع النزيهة وليس بالدبابة. عند وجود نظام حر ومستقل، عندها فقط سنستطيع الاعتماد عليه بعملية كبيرة كعملية تحرير فلسطين.

حكاية مخيم اليرموك

بسبب الحصار كان يموت ثلاثة أشخاص أو أربعة يومياً، بينهم نساء وأطفال

اسمي محمد بدر. عمري خمسون عاماً. في دمشق كان عندي مكتب مجازٍ قانوني وكنت محكّماً في المحاكم السورية. أعمل حالياً كناشط في المجال الحقوقي والإنساني. كنت أدرس في كلية الحقوق لكنني لم أستطع إنهاء دراستي بسبب الظروف. أصلي من حيفا في فلسطين. ولدت في مخيم اليرموك بسوريا باعتباري من الجيل الثالث لأهلي المهجرين منذ عام 1948. حالياً موجود في ريف حلب الشمالي بقرية اسمها قطمة، تقع بين اعزاز وعفرين.

ذكريات المخيم

شارع اليرموك الرئيسي كان ذا طابع تجاري. في المخيم كثافة سكانية عالية تجمع بين الفلسطينيين والسوريين. تطور المخيم عمرانياً وتجارياً وصار من أهم المراكز التجارية والخدمية في دمشق. كانت الخدمات فيه ممتازة وكاملة: مدارس، مستوصفات، سوق تجاري. البنى التحتية كانت ممتازة. الكهرباء جيدة. الخدمات. الاتصالات. مياه الشرب كانت من شبكة عين الفيجة.

من المعروف أن أسماء الحارات في مخيم اليرموك كانت على أسماء القرى والبلدات والمدن الفلسطينية. مثلاً الحي الذي كنت أسكنه اسمه حي الناصرة، واسم الحارة مجيدل عين غزال. كان بيتنا في شارع اليرموك الرئيسي تقريباً. وهو بناء مكون من ثلاثة طوابق كان جدي قد شيّده. ونحن كعائلة كنا نمتلك طابقاً منه ونعيش فيه. في البداية، قبل أن يخصص جدي شقة لكل منا، كان يجمع العائلة كلها. لطالما جمعنا على سفرة الطعام في الوجبات الرئيسية؛ أبناءه وزوجاتهم وأولادهم.

بعد وفاة جدي بدأ أفراد العائلة يستقلون، تخصّص كل واحد مع عائلته في شقة أو طابق. معروف عن العائلات الفلسطينية أنها تتراوح وسطياً بين أربعة أشخاص للعشرة. كنا كلنا نعيش في البناء في حالة اجتماعية وثيقة؛ الإخوة سوية، ونساؤهم سوية، وأبناء العم سوية. لهذا نشأت ضمن جو عائلي اجتماعي مع أعمامي وأولادهم. عندمنا تزوجت، وبما أن عدد سكان البيت كان كبيراً، اضطررت إلى أن أستأجر خارجاً في البداية. وبعدها بنيت في البيت نفسه وسكنت في شقة مستقلة بجانب أمي وأخواتي. تزوجت أخواتي وبقيت أمي وحدها. كنا نجتمع عندها أيام الجمعة، أنا وأخواتي وأزواج أخواتي وأبناؤنا. وبحكم أنني أسكن بجوارها فقد كنت أراها كل يوم وكنت الأقرب إليها. طبعاً في أول يوم في الأعياد كنا نجتمع عند الوالدة لنفطر سوية. يعني كانت الزيارات بين الإخوة والأخوات دائمة. وكنا نشارك في المناسبات التي تحدث في المخيم من أفراح وأتراح. فهذه من عادات المجتمع الواحد. أي مناسبة لأي شخص أو عائلة يجب أن يشارك الجميع بها.

علاقة مخيم اليرموك بالمناطق المحيطة به كانت قوية. بيننا جيرة ونسب ووحدة حال وتبادل تجاري. لهذا، وعند بداية ثورة هذه المناطق وحصار الجيش لها أو الهجوم عليها، هرب أغلب سكانها إلى مخيم اليرموك. ولم يقتصر الأمر على مناطق الجوار، بل صار النزوح من عدة محافظات أهمها حمص. كثيرون من المخيم فتحوا بيوتهم وأسكنوا النازحين بشكل طوعي، لكن المشكلة كانت في الأعداد الكبيرة. في ما بعد تم تعطيل المدارس وفتحها، وفتحت الجوامع أيضاً. بعض الملاجئ القديمة تم استصلاحها واستقبال النازحين فيها. لم يعجب هذا النظام وأرسل عدة رسائل لأهالي المخيم، من

خلال بعض الشخصيات المعروفة، أن من المفروض عليكم أن تُخرجوا النازحين بما أنهم ثاروا على النظام. لكن المخيم لم يستجب، فالحالة الشعبية ترفض هذا الكلام. هناك وحدة مصير بيننا وبين السوريين، وهؤلاء جيراننا وبيننا وحدة حال. تم رفض أمر النظام تماماً، وهذه الشخصيات لا تقدر على الوقوف أمام مطالب الناس. فاستقبالي لأي نازح من أي منطقة هو شأن شخصي وليس لأحد أن يجبرني على إخراجه. لم تتحقق إرادتهم وبقي المخيم يتعامل مع النازحين بكل محبة وأخوّة. تطوع الكثير من الناس وقتها، من بينهم ناشطون، بجمع الخبز والأكل. أذكر أنهم كانوا يجمعون المواد بسيارة سوزوكي، من عنده من الأهالي فرش أو ملابس زائدة عن الحاجة تبرع بها. كانت المبادرات أخوية جداً تجاه النازحين. وطبعاً، مرة أخرى، لم يعجب النظام هذا الكلام.

وانفجر الوضع

في 15 أيار 2011 كان اندفاع الناس عفوياً باتجاه حدود الجولان. سقط يومها ثلاثة شهداء أذكر منهم عبيدة زغموت وعدد كبير من الجرحى. في الشهر التالي، وبمناسبة النكسة في الخامس من حزيران، دعت بعض الفصائل الفلسطينية لإعادة الكرّة والذهاب إلى حدود الجولان مرة أخرى كعملية ضغط على الكيان الإسرائيلي. قوبلت هذه الدعوة بالرفض من عدة فصائل لكن أكثر من تبناها فصيل حركة فلسطين حرة المسؤول عنها ياسر قشلق، والقيادة العامة المسؤول عنها أحمد جبريل. لنتفاجأ في اليوم الثاني بالباصات التي أتت إلى شارع الثلاثين وبذهاب الناس معهم. كان الإسرائيليون قد تعلموا من الهجمة الأولى؛ وللأسف سقط حوالي ثلاثة وعشرون شهيداً، بالإضافة إلى عشرات الإصابات. من بين أبرز من استشهد يومها أذكر إيناس شريح. جرى تشييع الشهداء في اليوم الثاني في جو عام من الاستياء عند الناس الذين اعتبروا أن القيادة العامة هي السبب الرئيسي في سقوطهم. أثناء التشييع قامت القيادة العامة باستفزاز الناس المصدومين والمستائين أصلاً. وقع المأساة كان كبيراً. فلم يحتمل الناس هذا. وهاجموا مقر القيادة العامة في منطقة الخالصة في مخيم اليرموك. كنا نعتبر الخالصة فرع مخابرات داخل المخيم. وللأسف قوبل هذا الهجوم برد عنيف من القيادة العامة فأطلقوا النار على المتظاهرين حول المقر مما أدى إلى سقوط الشهداء والجرحى. ليحرق الناس مقر الخالصة.

في ما بعد قامت القيادة العامة بتأسيس اللجان الشعبية التي كنا نعرف أنها لجان أمنية، لأن طابع القيادة العامة مؤيد تماماً للنظام. وللأسف الشديد بدأت هذه اللجان أعمالها التشبيحية في المخيم باعتقال بعض الناشطين الفلسطينيين وغيرهم ممن كان لهم دور كبير في استقبال النازحين وتسهيل أمورهم والتخفيف من معاناتهم. بالإضافة إلى قيام اللجان بالتضييق على النازحين في المخيم من خلال اعتقالهم وخطفهم وتعذيبهم، أو تسليمهم للأفرع الأمنية. كما كان لها أيضاً دور سلبي تجاه مناطق الجوار بتعمّد توتير العلاقات معها بخطف بعض الأشخاص منها والتضييق على دخولهم المخيم.

وهكذا إلى أن وصلنا إلى المرحلة الثانية. أذكر أننا كنا يومها في رمضان قبل الإفطار بقليل، عندما قصف النظام شارع الجاعونة بقذيفتي هاون[13]. بعد نزول القذيفة الأولى تجمّع الناس لإسعاف الجرحى ولحمل القتلى فنزلت القذيفة الثانية في المكان نفسه. عدد الشهداء كان حوالي الواحد والعشرين شهيداً بالإضافة إلى عشرات الجرحى لأن الجاعونة من الأحياء المكتظة سكانياً. أكثر من

[13] - في 2 آب 2102.

أذكر من بين الشهداء أخوان من عائلة طلوزي[14]، وشاب اسمه رافع رفاعي حسب ما أذكر، وشاب من عائلة طه.

زاد احتقان الأهالي والناشطين بعد هذه المجزرة مما دفعهم إلى الخروج في مظاهرة كبيرة في المخيم، قوبلت بعنف وتم استهدافها بالرصاص الحي. وجرت حملات اعتقال للمتظاهرين.

ضربة الميغ

بقيت الأمور متوترة هكذا حتى يوم 16 كانون الأول 2012، عندما قام الطيران الحربي السوري باستهداف جامع عبد القادر الحسيني الذي كان فيه عشرات النازحين. أول ضربة كانت عند الجامع والثانية عند مدارس الأونروا التي كانت مركز إيواء نازحين. عرفت هذه الضربة بضربة الميغ وخلّفت الكثير من الشهداء والجرحى. نفسياً وبعد أن صار الاستهداف يتم بواسطة الطيران الحربي؛ قرأ الناس أن الأمور ذاهبة باتجاه التصعيد العسكري فخافوا تلقائياً وبدأت، في اليوم التالي، عمليات نزوح جماعي مخيفة من المخيم.

ساهم النظام، وبمساعدة من بعض عملائه من الشخصيات التشبيحية، في إثارة البلبلة بين الناس. قالوا لهم أن يهربوا بأولادهم لينفدوا بحياتهم فالمخيم ذاهب للتصعيد العسكري. كان هذا مخطط النظام: إخلاء المخيم من سكانه لعزله مثلما فعل في مناطق الجوار التي كان قد عزلها سابقاً. بالنسبة للنظام مخيم اليرموك هو شريان الحياة للمنطقة وكان يريد إفراغه.

آثرت البقاء في المخيم لمواصلة العمل على توثيق الانتهاكات. في ذلك الوقت تم تأسيس مبادرة شبابية اسمها اتحاد شبكات أخبار المخيمات[15]، وهي تقريباً أول صفحة ناطقة باسم المخيمات الفلسطينية في ظل الثورة السورية. عملت معهم قبل أحداث المخيم بحوالي ستة أشهر. كنت أنقل التجاوزات والانتهاكات التي قامت بها اللجان التشبيحية وعناصر النظام في حق أهالي المخيم والنازحين الموجودين، وصولاً إلى أحداث المخيم وخروج الناس.

بعد نزوح أغلب أهالي المخيم فرض عليه حصار جزئي. قبل ذلك، وخلال الفترة من كانون الأول 2012 إلى تموز 2013، كان المخيم يتعرض للقصف والاستهداف والقنص بشكل دائم. ولما كانت المعابر تفتح بشكل جزئي كانت تتم عمليات اعتقال وخطف وقتل بعض الناس. اعتباراً من 17 كانون الأول بدأ الحصار الجزئي على المخيم من خلال إغلاق المعابر بشكل متقطع ولأيام. تم قطع التيار الكهربائي وبعده قطعت المياه. استشعرنا وقتها أن حصاراً كبيراً ينتظر المخيم. وتقريباً في منتصف الشهر السابع من عام 2013 فُرض الحصار الكلي. تم إقفال جميع المعابر ولم يعد باستطاعة أحد أن يدخل أو أن يخرج، وحوصر المخيم بشكل كامل ونهائي.

[14] ـ الطفلان، أبناء العم، أنس وإبراهيم.
[15] - https://www.facebook.com/syriancamps

حصار الجوع والموت

في بداية الحصار الكل كان عنده بعض "المونة". ولكن مع مرور الوقت وتتالي الأيام ابتدأ هذا المخزون ينفد. صرنا نذهب إلى بيوت أقاربنا وإخوتنا لنأخذ ما تركوه من مواد غذائية أو معونات. للأسف انتهى هذا المخزون أيضاً وبدأت مرحلة الحصار المرير القاسي وعدم قدرة أي من سكان المخيم على تأمين احتياجاته اليومية من الغذاء والشراب. استشهد حوالي مئتين وعشرين شخصاً بسبب هذا الحصار. كان يموت ثلاثة أشخاص أو أربعة يومياً ومن بينهم نساء وأطفال. كنا نتواصل مع العالم الخارجي لتوثيق ما يجري من انتهاكات، وأيضاً لتوثيق نتائج الحصار المريرة على أهل المخيم. ورغم إلغاء أبراج الاتصالات الخليوية كنا أحياناً نستطيع أن نلتقط بعض الإشارات من المناطق المتاخمة، وهكذا كان ممكناً أن نجري المكالمات. بالإضافة إلى ذلك أن النظام عندما قام بقطع الاتصالات عن المخيم واجه مشكلة تقنية بإلغاء بوابات الانترنت التي كانت موجودة، وكنا نستخدم هذه البوابات.

مشكلة حصار مخيم اليرموك أنه كان شاملاً ومن كل الجهات. يعني ليس هناك منفذ إنساني واحد. أخذ هذا الحصار الناس إلى خيارات لا يستوعبها العقل لكنها صارت واقعاً مع الأسف. كنا قد وصلنا إلى مرحلة أن الناس تصيبها حالات إغماء في الشوارع بسبب الجوع، ما دفعهم لأكل أي شيء يجدونه. ومن أكثر ما انتشر حينها نبتة "رجل العصفورة"، وهي من النباتات المعروفة التي تنمو على حواف الطرقات، وحتى الدواب لا تأكلها لاحتوائها على مواد سامة، لكن الجوع دفع الناس لتناولها. وللأسف هناك من عانى من آثار جانبية بسببها مثل تورّم الأطراف والنفخة واحتباس السوائل، مما قد يؤدي إلى الوفاة إذا كانت مناعة الشخص ضعيفة.

حتى المؤسسات التي عملت أثناء الحصار كانت قليلة الحيلة فلا مواد عندهم ليعطوها لأحد. أذكر أنهم وجدوا مخزون بهارات فصاروا يصنعون منها شوربة أسموها شوربة البهارات، مكونة من الماء والبهارات والمنكهات فقط، يعني لا تسمن ولا تغني من جوع. لكن الناس كانت مغلوبة على أمرها.

كانوا يزرعون أشياء بسيطة، مثل السلق والسبانخ والخبيزة والبقدونس والنعنع، في بساتين مناطق الجوار ذات الطابع الزراعي، يلدا وببيلا وبيت سحم. وهي بساتين متاخمة للسيدة زينب. كانوا يذهبون باتجاه هذه الأراضي على أمل أن يحصلوا على شيء من هذه الأعشاب لسد الرمق. لكن هذه البساتين كانت مستهدفة من قبل الميليشيات الشيعية واللجان التشبيحية والنظام. وللأسف كان يتم استهداف المدنيين، وكثير ممن ذهب استشهد بمن فيهم الأطفال. لا شفقة ولا رحمة. طفل دخل إلى هناك ليأخذ بعض الحشائش بسبب الجوع، ومع ذلك تم قنصه وقتله في البساتين.

رأينا هذه الحالات بحكم أننا كنا نوثّق الانتهاكات. كنا نجدهم مقنوصين وبينهم نساء. كنا ننجح في سحب جثث البعض لكن الجثث الأخرى كانت تبقى، رأيناهم يتعفنون والكلاب تنهش لحمهم. هذا ما كانت الميليشيات الشيعية الإيرانية واللبنانية والعراقية تريده. حقدهم الطائفي تجاه المحاصرين كان مرعباً.

مررنا بتجارب لا يستوعبها عقل. في إحدى المرات وجدت خبزاً قديماً أعتقد أن عمره لا يقل عن سنة ونصف. عندما أمسكته وجدت أن الديدان قد أكلته، وحتى الدود كان ميتاً على الخبز. عليه طبقة عفونة ويعتبر ملوثاً. ولكن وبسبب الجوع اضطررت لأخذه. غسلته ونشّفته وطحنته وخبزته مرة أخرى حتى استطعت أن آكله.

في أحد الأيام وجدوا مخزون تمر هندي. ومعروف أن التمر الهندي مادة غير قابلة للأكل بشكلها الخام فهي مادة حامضة. لكن الجوع كافر. كنا نضطر لأكله مع أنه كان يتسبّب بمشاكل صحية كالإسهال وأشياء أخرى. أيضاً اكتشفنا مادة القطر الصناعي التي كانوا يستخدمونها لصنع الحلويات في المعامل. وبسبب فقدان مادة السكر، وهي من أهم المواد التي يحتاجها الجسم للجهد والحركة، كنا نضطر لأكلها بشكل مباشر. وأيضاً سبّبت مشاكل صحية أهمها الإسهال. عندما كانوا يقولون الجوع كافر؛ الجوع كافر فعلاً. وصلنا إلى مرحلة، رأيتها بأم عيني وأحمد الله أنني لم أصل إليها، أن بعض الأشخاص ذبحوا القطط والكلاب وطبخوها وأكلوها. مع أن القطط والكلاب لم تكن تجد ما تقتات عليه.

موضوع مياه الشرب كان أسهل. بما أن مخيم اليرموك بطبيعته، أو المنطقة الجنوبية لدمشق عموماً معروفة بأنها مستوعب مائي. كانت المياه سطحية. بالإضافة إلى ذلك فكل البيوت القديمة تقريباً احتوت على بئر وغطاس. وهذه كانت ميزة إيجابية. عندنا آبار وغطاسات والمولدات موجودة لتشغيل الكهرباء. لكن كانت هناك مشكلة في موضوع المحروقات. بعدها جرّبوا استخراج المحروقات من البلاستيك في قطاع غزة. وفعلاً تم تجريب هذه المبادرة في المخيم واستطاعوا استخراج المحروقات؛ البنزين والكاز والمازوت، التي شغّلت المولدات وساهمت بشكل كبير في استخراج المياه وتوفيرها.

خريطة توضيحية تظهر شارع علي الوحش

في أول 2014 وصلت بعض الرسائل من النظام أنه سيتم فتح معبر إنساني من شارع علي الوحش المطل على السيدة زينب. نحن اعتبرنا هذا فخاً أو مصيدة، لكن بعض العائلات خرجت في أول يوم تم فيه فتح المعبر. وبعد خروجهم تواصلوا مع الناس في المخيم وأخبروهم أن استقبالهم كان جيداً وأنهم قدموا لهم الإغاثة والمساعدة وتركوهم. دفع هذا الكلام بآلاف الأشخاص إلى الخروج باتجاه هذا المعبر وهنا كان الفخ الأكبر. الميليشيات الشيعية من إيرانيين وعراقيين وأفغان، بالإضافة إلى قوات النظام، قاموا باعتقال كل من خرج تقريباً. يعني أذكر أن العدد كان حوالي ألف وخمسمائة بين مفقود وشهيد من الناس التي خرجت. هناك عائلات عوملت بشكل وحشي. وصلتنا بعض

الفيديوهات والتسريبات لأشخاص أحرقوا وهم أحياء. عائلات بأكملها تم حرقها. بالإضافة الى التنكيل بالناس والذبح والاغتصاب والاختفاء القسري. والكثيرون تم اعتقالهم من قبل الأفرع الأمنية.

بعد هذه الحادثة بأيام، وفي الشهر الأول من سنة 2014، دخلت أول قافلة مساعدات لليرموك تحت ضغط دولي وإعلامي تم العمل عليه من المخيم بما يخص موضوع آثار الحصار. لتدخل أول قافلة غذائية عن طريق الأونروا تحت بند من بنود الإلزام من الأمم المتحدة للنظام. وطبعاً هذا لم يعجب النظام؛ فصار يتعمّد خلق اشتباكات وهمية بين قواته وبين الفصائل المعارضة داخل المخيم كي يضطروا لإيقاف التوزيع. إضافة إلى ذلك، ونظراً لقسوة الحصار وللجوع القاتل الذي عاشه المخيم؛ خرج الناس بشكل جنوني باتجاه نقطة التوزيع فحدث الكثير من التدافع الذي أدى إلى موت بعض الأشخاص من المزاحمة، وآخرون تم إسعافهم. هذا أيضاً كان سبباً إضافياً ساهم في زيادة حالة الفوضى التي استغلها النظام والفصائل الفلسطينية الموالية له، فقاموا باعتقال النساء والأطفال والشباب والرجال. إضافة إلى سقوط ضحايا كثيرين خلال الاشتباكات الوهمية التي كانوا يفتعلونها. كانوا يقولون إنهم قد تعرضوا للاعتداء من قبل قوات الفصائل المعارضة المسلحة في الداخل ولهذا قاموا بالرد. لكن هذا الكلام لم يكن صحيحاً فقد كنا موجودين وكثيراً ما قمنا بتوثيق أن الاعتداء كان يتم من قبل النظام.

في ما بعد تم نقل نقطة التوزيع من أول مخيم اليرموك لأول شارع فلسطين. كانت هناك الكثير من الأسئلة عن سبب هذا. كانت المؤشرات تقول إنه بسبب الضغط من شبيحة شارع نسرين الحاقدين على المخيم الذين كانوا يريدون انتقال نقطة التوزيع إلى منطقتهم ليكملوا مسيرة الاعتقالات والتضييق على المدنيين. والدليل أن حالات الاعتقال التي وقعت من شارع نسرين تجاوزت الحالات التي وقعت في مدخل المخيم. وبسبب النهج الذي اتّبعه النظام باختلاق المعارك والاشتباكات أصبحت كمية الإغاثة التي تدخل لا تسد احتياجات المخيم لكسر الحصار.

داعش في المخيم

بعد هذا بدأ تنظيم داعش ينشط في المخيم. وابتدأت عملية تصفية بعض الشخصيات البارزة ذات الطابع الإغاثي والطبي والإعلامي. تم اغتيال أبو صهيب الحوراني رحمه الله وكان ناشطاً في المجال الطبي بهيئة فلسطين الخيرية. اغتالوا أبو معاذ الشرعان الذي كان ناشطاً بهيئة فلسطين. أيضاً أبو العبد عريشة رحمه الله الذي كان ناشط إغاثة. أبو أحمد الهواري ناشط أيضاً ومن الشخصيات التي كانت تتبع أحد الفصائل الفلسطينية. شخصيات كثيرة اغتالها التنظيم لإنهاء النشاط في المخيم. في البداية انطلق الدواعش من منطقة الحجر الأسود الذي كان معقلاً للتنظيم ومنه تحركوا بحركة خاطفة وغادرة. سيطروا على مخيم اليرموك بشكل سريع خلال الشهر الرابع عام 2015 وتمددوا إلى منطقة التضامن. مما أدى إلى نزوح جماعي للناشطين والإغاثيين والطبيين والإعلاميين باتجاه بلدات الجوار، يلدا وببيلا وبيت سحم.

من أشكال تضييق داعش في مخيم اليرموك أنهم وفي البداية أنهم قاموا بفرض النقاب على السيدات ومنعوهن من الخروج إلا مع محرم. وكانوا إذا وجدوا أحداً في الشوارع وقت الصلاة يجبرونه على الدخول إلى الجامع باستخدام العصا. صار هناك تشديد على الموبايلات بالإضافة إلى عمليات تجسس على البيوت. الكثير من المضايقات حدثت. في تلك الفترة وجد النظام فرصته الذهبية.

وبحجة سيطرة داعش بدأ بضرب المخيم بالبراميل المتفجرة، وزاد من كثافة استهدافه بشتى أنواع الأسلحة، مما رفع نسبة الدمار.

بقيت في المخيم حوالي الشهرين تقريباً بعد سيطرة داعش عليه. كنت مصراً على البقاء في بيتي. لكن، وبما أنني كنت من الناشطين الإغاثيين والإعلاميين، فقد تعرضت للعديد من المضايقات. مثلاً يفتشني الدواعش بشكل فجائي. يصادرون جوالي لتفتيشه. كما اقتحموا بيتي ليفتشوه أيضاً. ولكن ما دفعني للخروج من المخيم بشكل سريع أنني تعرضت لشبه عملية قنص. تلقيت بعدها تهديداً رسمياً من داعش بأنهم سيقومون باستهدافي إذا لم أغادر المخيم. ولهذا غادرت باتجاه يلدا في الشهر السادس من 2014 تقريباً. وبقيت هناك حتى 2018.

إقامتي في يلدا

بعد خروجنا باتجاه بلدات الجوار وجدنا فيها مواد غذائية دخلت من خلال معاهدات الهدن التي أبرمت بينهم وبين النظام وتم من خلالها السماح بدخول بعض المواد. المشكلة كانت، للأسف، أن بعض أهالي بلدات الجوار كانوا ينتهجون نهجاً عنصرياً، بتعليمات من النظام طبعاً، للضغط على أهالي المخيم والمناطق التي لم تهادن بأنه لن يتم تقديم أي نوع من المواد الغذائية لهم. بالإضافة إلى الاستغلال المادي الذي تعرض له سكان المناطق التي لم تهادن من قبل سكان المناطق التي كانت قد وقعت على معاهدات الهدن، ببيع البضائع بأسعار مرتفعة للغاية.

إذا قارنا بين استقبال أهالي مخيم اليرموك لهم وبين تعاملهم معنا نستطيع القول إنهم أساؤوا الاستقبال مع الأسف. عند مجيء النازحين إلى المخيم لم نترك أحداً إلا وآويناه. لكن عند حدوث النزوح المعاكس صادفنا الكثير من أهل المخيم ما يزالون في الشوارع. ووصل الأمر بالبعض إلى درجة أنهم قاموا بتأجير بيوت أقربائهم المسافرين بمقابل كبير للهاربين بأولادهم وثيابهم من ظلم تنظيم داعش.

أقمت في يلدا. قصدت رجلاً مسافراً وعرضت عليه أن نسكن في شقته وإذا كان يريد إيجاراً فسأعطيه ولكن بالمعقول. لكن الرجل كان أخلاقياً وقال: "لا خلص اقعدوا. أنا مسامحكم لحد ما تفرج أموركم". في يلدا أيضاً تعرضت للتضييق من بعض الفصائل لأن هذه المناطق قد هادنت فأرادوا إحباط أي نشاط ثوري. حتى أن أحد الفصائل حاول أن يعتقلني ويؤذيني.

التهجير بالباصات الخضر

قام النظام بعملية عسكرية ضخمة على اليرموك بذريعة وجود داعش. كنا في منطقة متاخمة ونشاهد كمّ الدمار الذي يحدث بسبب استهداف القوات الروسية والنظام للمخيم بكافة أنواع الأسلحة الثقيلة والطيران والمدفعية والخراطيم المتفجرة والبراميل. حسب ما رأينا وتابعنا قلنا إن المخيم تم تدميره بشكل كامل. في ما بعد تبين أن نسبة الدمار 80%.

حدث التهجير في الشهر الخامس من عام 2018. تقريباً بعد تهجير الغوطة بحوالي الشهر. كنا نتواصل مع من كانوا في الغوطة وقالوا لنا إننا غالباً سنكون ضمن الاتفاقية نفسها، وهي عملية التهجير القسري لمن لا يرغب بالتسوية، ومن يقبل بها سيبقى. وأنا كناشط لم يكن أمامي إلا خيار التهجير.

هذا هو الطريق الذي سأتخذه فأنا لا أقبل التسوية مع هذا النظام المجرم بأي شكل وبأي صيغة. فخرجت مع عائلتي التي بقيت معي في المخيم وأثناء الحصار.

في الطريق تعرضنا للاعتداء والإهانات عند مرورنا بمناطق النظام. هاجم الشبيحة الباصات وضربونا بالحجارة. وعندما وصلنا إلى المناطق المحررة لم ينزلونا في منطقة معينة. بقينا في الباصات ليومين ندور في المناطق المحررة حتى وصلنا أخيراً إلى طريق جنديرس. وعندها قسموا القافلة إلى نصفين؛ نصف غادر باتجاه دير بلوط. ونحن النصف الثاني عادوا بنا إلى مخيم الإيواء في اعزاز حيث بقيت حوالي العشرين يوماً. وبعدها سمعت أن القرى الموجودة هنا هجرها أهلها الأكراد وبيوتها فارغة. وأنا مثلي مثل الناس الذين كانوا يتوجهون إلى البيوت الفارغة من سكانها. يعني ليس احتلالاً ولا اغتصاباً. فالبيوت متروكة وأصحابها غير موجودين. لهذا، ومثلنا مثل غيرنا، أتينا وأقمنا في هذا البيت، في ريف حلب الشمالي في قرية اسمها قطمة. وهي إحدى قرى عفرين القريبة نوعاً ما من مدينة اعزاز. تقع في المنتصف بين عفرين واعزاز.

صعوبات العيش في الشمال

لا يوجد هنا عمل واضح. فالمنطقة ذات طابع ريفي ولا أعمال فيها. هنا "الواحد بشق الأنفس بدو يدبر حالو تدبير". أعيش مع أفراد أسرتي، أولادي يذهبون إلى مدارسهم وزوجتي ربة منزل.

المشكلة أن العادات اختلفت قليلاً. إضافة إلى أن المجتمع المضيف حيث نعيش يعاملنا باعتبارنا دخلاء. يقولون: "إنتو مش من أهل المنطقة. عاداتكم دخيلة علينا". وأنا كفلسطيني ابن لجوء 1948، أي أنني في سوريا منذ ثلاثة وسبعين عاماً؛ فوجئت كثيراً عندما جئت إلى هنا وعوملت كأجنبي. كانوا يقولون لي: "أنت أجنبي، أنت لاجئ". وكان هذا مما تسبّب لي بمشاكل قانونية ومعيشية وشرخ اجتماعي مع المجتمع الذي أعيش فيه.

بحكم عملي كناشط حقوقي وإنساني، وعندما أتينا إلى هنا، واجهتنا نحن الفلسطينيين الذين جئنا إلى شمال سوريا مشكلة في موضوع الأوراق الثبوتية. فقد الكثيرون منّا مستنداتهم. كان البعض متزوجاً ولم يستطع تثبيت زواجه، منهم من رزق بمواليد غير مسجلين، ناس ماتوا وما من جهات رسمية تسجل وفاتهم. لهذا بادرنا إلى تشكيل مركز توثيق اللاجئين الفلسطينيين عن طريق الحكومة المؤقتة، الإدارة العامة للشؤون المدنية، في شباط عام 2019. من أبرز مهام هذا المركز تسجيل الواقعات المدنية للاجئين الفلسطينيين والحفاظ على سجلاتهم وواقعاتهم ووجودهم كلاجئين فلسطينيين، بالإضافة إلى منحهم أوراقاً ثبوتية ليكون وجودهم في هذه المناطق قانونياً.

أيضاً قمنا، مع بعض الناشطين، بتأسيس رابطة المهجرين الفلسطينيين في الشمال السوري. التي أخذت على عاتقها مواكبة التطورات بالنسبة الفلسطينيين، ومتابعة مشاكلهم والاتصال والتشبيك مع مؤسسات المجتمع المدني والمجالس المحلية الموجودة. تمثّل الدور الأبرز للرابطة بأن نحاول أن نكون ضمن النسيج المجتمعي في الشمال مع الحفاظ على خصوصيتنا، لنا حق العودة والمطالبة بفلسطين وبهويتنا كفلسطينيين.

من خلال متابعة الملفات في اعزاز تحديداً واجهتنا مشكلة في إصدار البطاقات التعريفية عن طريق المجلس المحلي الذي كان يتعامل معنا كأجانب. وبعد حل هذه المشكلة بادرت الرابطة إلى الاجتماع

مع المجلس وتم تقديم طلب له لتعيين "مختار" خاص بالعائلات الفلسطينية بالتوافق مع المجلس المحلي ومع المؤسسات الحكومية الموجودة. والحمد لله تجاوب وتم تعييني مختاراً لمتابعة قضايا الفلسطينيين مع المجلس المحلي في اعزاز.

نحن كفلسطينيين في الشمال السوري صار عندنا يقين أن حل ملفنا مرتبط بحل الملف السوري بشكل كامل. فنحن، أولاً وأخيراً، أحد الأنسجة المهمة في هذا المجتمع، ومصيرنا مرتبط بحل قضيته.

اليوم الفلسطينيون في الشمال متروكون دون غطاء قانوني ولا دولي. تم التخلي عنا من منظمة الأونروا مع أنها المنظمة الدولية المعنية بشؤون اللاجئين الفلسطينيين. تخلت عنا منذ عام 2018 عندما غادرنا مناطق النظام، في خطوة باتجاه عقوبة تم فرضها علينا. منظمة التحرير التي تدّعي أنها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني تخلت عنا أيضاً. ونحن نطالب هذه الجهات بأن تتحمّل مسؤولياتها تجاهنا. فإذا لم تكن هناك فرصة لحل جذري فليجدوا لنا حلولاً بديلة على الأقل. تتمثل في تأمين السكن للاجئ الفلسطيني وإخراجه من الخيمة لحفظ كرامته، وتأمين التعليم والطبابة وفرص العمل. مع العلم أننا سبق ووجّهنا نداءات ومناشدات ورسائل رسمية وغير رسمية لهذه الجهات، لكنها تخلت عنا كما هو واضح.

مررت بمرحلتين من النزوح؛ الأولى عندما نزحت من مخيم اليرموك. غادرته مرغماً بسبب سيطرة داعش. وكما يقولون "اللي بيطلع من داره بيقل مقداره". كنت شديد الضيق حينها. يعني غادرت بيتي وتركت أملاكي غصباً عني. ولكن عند ذهابنا إلى يلدا كان لا يزال الأمل بزوال سيطرة التنظيم عن المخيم موجوداً. رغم صعوبة حدوث هذا لكني كنت في المنطقة المجاورة وعلى مشارف بيتي. أما بعد التهجير القسري إلى الشمال ففقدت الأمل تماماً بالعودة إلى بيتي وإلى المخيم. فقدنا مخيم اليرموك. كسرت هذه الخسارة قلوبنا وحطمت نفوسنا كثيراً. لا يستطيع أحد أن يصف صعوبة شعور فقدان البيت الذي عاش فيه طيلة حياته، وفيه ذكرياته مع أهله وناسه وجيرانه ومجتمعه.

يسبّب هذا الفقدان مشكلة نفسية لن نشفى منها إلا بعودتنا إلى بيوتنا.

وقعنا بين المطرقة والسندان

الكل سيُحاسَب، الحساب للجميع.

اسمي سامر مصطفى. عمري ستة وستون عاماً. فلسطيني الأصل من مجيدل، قضاء الناصرة. ولدت في جوبر قرب دمشق عام 1955. انتقلنا إلى عين ترما بعد أن اشترى أبي قطعة أرض هناك. فسكنّا في عين ترما وأمضينا شبابنا وتزوجنا فيها وتهجّرنا منها. درست حتى الصف الثامن الإعدادي. كنت أشتغل في الأعمال الحرة وكنا نمتلك بناية في عين ترما لي ولأخي. كل منا يملك فيها أربع شقق بناها أبي لنا ولأولادنا. كنا نعيش بسعادة وراحة. الحياة كانت هانئة وكان وضعنا جيداً جداً. كنت في شبابي أعمل في الموزاييك والأدراج والمجالي، لكن بعد أن تزوجت بحوالي عشر سنوات، أي في التسعينات، غيّرت مهنتي وعملت في البناء والإكساء. بنيت بيوتاً لي وبيوتاً أخرى لنتاجر بها، نبيع ونشتري. بعد أن بنينا البيوت وحسنّا أوضاعنا انتهت الحياة التي كنا نعيشها براحة وسعادة وحدثت الأزمة في سوريا.

تصاعد الثورة في الغوطة

في 2011 ابتدأت المظاهرات. كانت تستمر لعشر دقائق أو ربع ساعة وتختفي بما أن السيطرة كانت للنظام. بقيت مدنية وسلمية وغير مسلحة لسنتين. مجرد مظاهرات دون سلاح مع أحد ولا حتى بندقية، حتى عام 2013 عندما بدأ التسليح[16].

كانوا يداهمون المنطقة ليلاً لاعتقال من يعرفون باشتراكهم في المظاهرات. صار الناس يشتغلون ببعضهم، وإلا فكيف للنظام أن يعرف من اشترك في المظاهرات؟ كانت التقارير تأتيهم بأسماء المتظاهرين فيأتون لأخذهم. أغلب من اعتقلوهم لم يرجعوا. من تثبت عليه المشاركة لم يخرج. لا تزال السجون مليئة بالمعتقلين لحد الآن. على الأقل لديهم ستمائة ألف معتقل.

تصارع الطرفان ولم يرحما أحداً. ولم نعرف من نرضي منهما "البايع أو الشاري". صرنا موصوفين إما بالإرهابيين أو مع النظام. ووقعنا نحن بين المطرقة والسندان، لا نعرف هل نخرج من عين ترما إلى مناطق النظام ولا نعرف كيف سنبقى هنا. كانت حياة مزرية ولم تكن حياة بشر طبيعية والله.

لا أعرف من أين جاءتنا قصة هذا درزي أو علوي أو مسيحي أو سنّي. لاحقاً وصلت الأمور إلى التمييز بين أهل المنطقة؛ هذا حزّاني وهذا كفربطناني وهذا جسريني[17]. زادت التفرقة أكثر.

لم أشارك في الثورة، لا أنا ولا أغلب الفلسطينيين، ومع ذلك اتهمت بالمشاركة فيها. كانوا يقولون لنا، نحن الفلسطينيين: "شو بدكن فينا؟ شو إلكن علاقة بالتدخل فينا؟ نحنا ببعضنا إنتو شو إلكن؟". سمعنا الكثير من هذا الكلام: "إنتو مالكن بهالمرض. نحنا بين بعضنا". لم يتقبلوا منا المشاركة. والمعظم كان ضحية وراح بين الأقدام إن كان فلسطينياً أو سورياً. الشباب الذين شاركوا في المظاهرات لم يخرجوا لوجه الثورة بصراحة، وإنما للحصول على ربطة خبز ومساعدة. يعني كانت "طوشة عرب" ولا علم لأحد ما الذي يحدث أو لمصلحة من.

[16] - بدأ التسليح قبل ذلك.
[17] - حزّة وكفربطنا وجسرين بلدات في الغوطة الشرقية.

حين أتى الحصار عشنا حياة أسوأ من حياة الحيوانات. كل ما جنيناه طوال حياتنا أنفقناه في تلك الفترة. كنا نبيع أغراضنا لنشتري الخبز أو اللبنة أو الزيتون. الأسعار كانت خيالية، سبع نجوم كما يقولون. يعني بعنا الذهب لشراء ما نطعمه لأولادنا. أيامها من كان يقدر أن يأكل خبز الشعير فهذا أحواله جيدة. هناك من اضطر لأكل الخبز المتعفن. حتى علف الصيصان طحنّاه وأكلناه. أكلنا ورق الملفوف كبديل عن الخبز عندما لم نعد نجده. كان الحصار صعباً على الجميع، على الفلسطينيين والسوريين معاً الوضع نفسه. لمن كان يدخن وصل سعر السيجارة إلى ألف وأربعمائة ليرة.

تم استغلالنا من قبل التجار من الجهتين. عندما يقولون: "إجا المنفوش"[18] تنزل أسعار البضائع، وعندما يقولون: "ما فات المنفوش" ترتفع الأسعار كلها مائة في المائة. أي استغلالٌ في استغلال. ولا أستثني أياً من الجهتين لا هؤلاء ولا هؤلاء؛ تم استغلالنا من الطرفين باسم "هي لله". ولكن الحقيقة غير هذا؛ "ما في هي لله، طلعت للدولار مو لله".

مرة ذهبت لشراء الخبز اليابس الذي كانوا يطعمونه للبقر فوجدت سعر الكيلو ألفاً ومائتي ليرة ومنه ما كان عفناً. أردت اختيار الأنظف فقال لي البائع إن الكيلو بألف وخمسمائة ليرة. فقلت له: "حطلي بقلب بعضو". كنا ننقعه في الماء ونخلطه مع قليل من الطحين الموجود عندنا ونعجنه مرة أخرى ونخبزه على الصاج.

في إحدى المرات، وكنت عائداً من الجامع، وجدت أرغفة خبز عليها آثار لحم. كنا في الصيف ولهذا كان الذباب يغطي الأرغفة بالملايين. أخذتهم. شخص في الطريق سألني: "شو هاد؟" قلت له: "شوية خبز آخدهن للجاجات". قال لي: "عمي، أنا بدي آكلهن بدي آخدهن لعيالي. نحنا أفضل من الجاجات". قلت له: "والله إنتو أفضل من الجاجات". فتقاسمهم معي، اثنا عشر رغيفاً أعطيته ستة منهم. وقلت له: "وينك عمي، الله يرضى عليك لا يصيبك شي والله خطيتك برقبتي". قال لي: "عمي، الله يسامحك. أنت قلت لي إنو لقيتهن ع الزبالة وأنت ما دخلك". وفعلاً أخذهم وأكلوهم. كنا نعيش حياة قهر بشكل لا يصدق. فقر وقلة ولا عمل. كنا نعيش بتدبير الله. حتى المحروقات من بنزين ومازوت وكاز كانوا يستخرجونها من البلاستيك. حياة قهر وعيشة ليست فيها نظافة ولا أبسط مقومات الحياة. كل من كان يرى أحداً يحمل أكياساً كان يسأله: "شو حامل؟ وبقديش اشتريته؟".

حتى الزعتر صنعته بنفسي. كان عندي بذور رمان فقال لي أحد الأشخاص: "إزا بدك تكبن أعطيني ياهن". قلت له: "شو بدك تساوي فيّن؟" فقال: "بيبسن وبساوين زعتر". قلت له: "لأنك حكيتلي بصراحة بساويهن وبقسمن بيني وبينك". وفعلاً قمت بتيبيس بذور الرمان وأعطاني الرجل قضامة وقمنا بطحنهم حتى أصبحوا مسحوقاً مثل البودرة. أضفنا إليهم القليل من الجوز، إذا كان متوفراً، والسماق وعملنا الزعتر. والله "من القلة ما له علة". أكلناه وكان مقبولاً.

عمل بعض الناس في توزيع المساعدات ليستفيدوا هم وعائلاتهم. كانوا يأخذون ما يريدون وما تبقى يعطونه لنا. كان البعض يطبخون الطعام ويوزعونه. ولكنهم لم يعطوننا كل ما يصلهم من مساعدات. كانوا يوزعون علينا جزءاً ويحتفظون بالباقي لأنفسهم. يعني ما الجيد الذي فعلوه إذا طبخوا الأرز ووزعوا بعض الصحون وصوروا؟ هذا الأرز كان من ضمن المساعدات أصلاً وليس من عندهم. كانوا يحتفظون لأنفسهم بأضعاف ما أعطوه للناس. استفادوا كثيراً ومنهم أصبح ثرياً ومعه

[18] - محي الدين المنفوش: أبرز التجار الذين كانوا يُدخلون البضائع إلى الغوطة أثناء الحصار.

الملايين عند خروجهم من الغوطة، بينما خرج غيرهم على الأرض.

بعض الأشخاص كانت لهم اتصالاتهم مع المنظمات أو المتبرعين؛ فقالوا لهم إنهم مسؤولون عن حياة الكثير من الناس، وإنهم يشرفون على إطعام مائة عائلة محاصرة، كي يرسلوا لهم مساعدات. كانوا يصورون توزيع الوجبات للناس لكن بيوتهم امتلأت بتنكات الزيت والسمن بينما كنا نشتهي ولو زجاجة زيت صغيرة. صحيح أن الغوطة كانت محاصرة ولكن كل الأشياء دخلت إليها من دمشق بطرق التهريب. سيطر التجار على التهريب والبضائع. صارت الغوطة منطقة تجارة عالمية. يشترون ربطة الخبز من الشام بأربعمائة ليرة ليبيعوها لنا بألف ومئتين. مع أن المسافة بين دمشق والغوطة لا تزيد على الخمسة كيلومترات. كانت الأخطاء من الطرفين ولكن الأخطاء عندنا أكثر. كان جماعة الفصائل يدخلون الطعام والأغراض عن طريق الأنفاق. والمنفوش كان يستخدم هذه الأنفاق أيضاً لإدخال كل البضائع، طبعاً بمقابل ضخم.

بعدها وقع الهجوم الكيماوي الذي قتل فيه الكثير. عائلات بأكملها ماتت. ضرب الكيماوي بعد الساعة الثانية عشر ليلاً وكانت المجزرة كبيرة. كانت إبادة للمنطقة.

صارت الحياة لا تطاق. لم يرحمنا الطرفان. هذا له جماعة وأبو فلان له جماعة. كانت صراعات جيش الإسلام والفيلق بسبب مشاكل الأنفاق. وكان شبابنا ضحايا لهذه المعارك. من كان مع إحدى هذه المجموعات كان يستفيد. طبعاً القادة لا يُطعمون عناصرهم إلا الفتات فقط. مثلاً عناصر الفيلق يذهبون لإحضار الحطب ولا يعترضهم أحد. أما أنا، ممن لست مع أحد، فكنت أتعرض للمضايقات وللأسئلة عندما يرونني أحمل الحطب "من وين؟ وليش؟".

بعض من لم يكن معه ما يدفعه مقابل الطعام اضطر إلى بيع شرفه، لكن من المعيب أن نتكلم عن هذه التفاصيل. هناك من مات من الجوع. أقسم بالله إن هذا ليس كلاماً مجازياً، عدة أشخاص ماتوا من الجوع.

كانت الكهرباء اشتراكاً بالأمبيرات عن طريق المولدات. ولكن بعد ارتفاع الأسعار هناك أشخاص لم يعد بمقدورهم الدفع. من كان معه احتفظ باشتراكه ومن ليس معه ألغاه. من ليس عنده كهرباء كان يشحن موبايله عند من لديه كهرباء ويدفع له خمسين ليرة في المقابل. مبلغ رمزي. شبكة الإنترنت استمرت بشكل طبيعي فكنا نتواصل ونعرف الأخبار وما الذي يحدث في الخارج.

الحملة العسكرية والتهجير

أخيراً صارت حملة عسكرية استمرت حوالي الشهر. وقعت خلالها معارك طاحنة كان أثرها كبيراً جداً. امتلأت الشوارع بجثث القتلى ولم يكن من السهل دفنها نظراً لوجود الطيران الدائم. أقامت الطائرات فوق الغوطة في ذلك الوقت.

أخيراً صار تدخل من الدول وتم وقف إطلاق النار وأحضروا الباصات. قالوا من يريد الخروج ليخرج ومن يريد البقاء ليبق، وإن خروجنا إلى الشمال مؤمّن بما أنها مناطق محررة، وإن هناك بيوتاً والخدمات متوافرة وكل ما نحتاجه. خرجنا بحقيبة صغيرة وببعض الملابس فقط. لنتفاجأ عند وصولنا بأن لا شيء مما قالوه صحيح. أعطونا بطانيات وبضع فرشات. وضعنا كان مشابهاً لوضع أهلنا عام 1948 عندما خرجوا من فلسطين. خروجنا إلى الشمال كان مدروساً ومقرراً، وما حدث كان تسليماً في تسليم.

بقي من ليست لديه مشاكل مع النظام. تردد البعض بين البقاء أو الخروج. منهم من فضّل البقاء في بيته. كان رأيهم أن من عاش المأساة مع الفصائل كيف سيذهب معهم إلى الشمال؟ ومنهم من كان خائفاً من انتقام النظام. "واحترنا يا قرعة من وين نبوسك".

وصلنا من الغوطة إلى الشمال خلال يومين وليس ست ساعات كما كان الطريق سابقاً. ذكّرني هذا الطريق بموقف أجدادنا عام 1948. مع الفارق أن عدوهم هو من أخرجهم أما نحن فعدونا منا ومن أهلنا. ألم نكن كلنا أهلاً في سوريا؟

في طريقنا تعرضنا للتهجم والشتائم والسخرية والإهانات من أهالي بعض مناطق النظام التي مررنا بها. بصقوا علينا. "بدّن يبيّضوا وش" إذ لا ناقة لهم ولا جمل.

عند وصولنا نزلنا في قلعة المضيق. أهل القلعة طيبون ومحترمون. منحونا كل ما نحتاج إليه بكثير من الكرم. اختلفوا من يريد أن يعطينا أكثر. سألونا كثيراً إذا كان ينقصنا أي شيء. نزلنا في بيوتهم واستحممنا. ساعدونا جداً بلطفهم. ذهبنا بعد ذلك إلى معرة النعمان وبقينا فيها حوالي خمسة عشر يوماً، لكننا تركناها لأننا سمعنا أن معركة ستحدث فيها. صار الناس يتفرقون في مناطق مختلفة. نحن أتينا إلى عفرين ونقيم حالياً في المحمودية.

هذه ليست حياة!

الفرق بين الحياة هنا وبين الحياة في دمشق كالفرق بين السماء والأرض. هنا إذا عملت تأكل وإذا لم تعمل لن تأكل. مع أنه لا فرص عمل متوافرة. وحتى إذا عملنا فكل شيء غالٍ جداً. في أول أيامنا في عفرين كان سعر ربطة الخبز، التي تحوي عشرة أرغفة، مئتي ليرة. الآن أصبح سعرها ما يقارب الألف ليرة وفيها سبعة أرغفة صغيرة لا يكفي أحدها لإشباع طفل. لكن الروح أغلى من المال. أحسست أنني مجبر على ترك بيتي والخروج. لم نغادر طواعية، خرجنا خوفاً من النظام بما أن الناس تكتب التقارير ببعضها. هدف الواحد منهم أن يثبت لجماعة النظام أنه موالٍ لهم ولهذا خفنا وخرجنا. فضّلنا المغادرة على احتمال أن نتعرض لوشاية أو تقرير فغادرت أنا وزوجتي وأولادي. أسكن حالياً مع ابني وزوجته. كل من أولادي الآخرين يعيش في مكان مختلف مع أسرته. في بعض الأيام أجلس بمفردي وأغلق الباب على نفسي وأبكي. تشتتنا وتفرقنا. أمي في بلد وأختي في بلد وأولادي كل منهم في مكان مختلف. أحفادي لا أعرفهم. "شو هالحياة؟ الحياة متل الشجرة إذا زرعت وكبّرت وما طالعت ثمر راح تعبك عالفاضي".

في عفرين لا توجد حياة. فقط من يملك النقود يقدر على الحياة هنا، أما نحن فبالكاد نحيا. لا أكلنا أكل ولا شربنا شرب. قبل هذا كنا نخصّص يوم الجمعة لأكلات معينة. أما الآن فكل أيام الأسبوع متشابهة. يوم الجمعة كان مقدساً؛ كنا نطبخ المفتول أو صينية البطاطا بالفراريج في الفرن أو أي أكلات دسمة. أو المشاوي في حال أردنا الذهاب في مشوار. من لا يأكل اللحم نحضر له الفروج. أما هنا فلم نعد نقدر لا على هذا ولا على ذاك. لا نريد سمكاً ولا فراريج، نريد المواد الاستهلاكية على الأقل. في أول موسم الزيتون نزل "مخشّب" وبأربع ليرات تركية، قلنا ننتظر. والزيتون من أساسيات البيت. انتظرنا قليلاً فارتفع سعره. زادت الأسعار كثيراً. عند مجيئنا إلى هنا كان سعر تنكة الزيت خمسة عشر ألف ليرة سورية، الآن صارت بثمانية وأربعين دولاراً. "يعني أقل منها الزيت البلدي؟"؟

حالياً لا أشتغل لأنني مريض بضغط الدم وبالسكري ولم يعد بمقدوري العمل. جسمي متعب ولم يعد يساعدني. لا يوجد الكثير لفعله؛ أذهب أحياناً لزيارة أصدقائي بهدف التسلية وتقطيع الوقت، وأذهب إلى الجامع.

عندي ولدان مصابان. أحدهما قطعوا من معدته والثاني في مسالكه البولية. أصيبا بقصف الطيران. استشهد حفيدي وعمره إحدى عشر سنة. قتل وسبعة أطفال كانوا معه يلعبون. يومها ضربوا برميلاً دفن السبعة. كلهم أطفال. أكبر واحد فيهم عمره أحد عشر عاماً.

الوضع سيئ جداً. نحن لا نشتكي لكن الفلسطينيين الذين تهجّروا من الغوطة كلهم وضعهم سيئ، لأنهم خرجوا بثيابهم ولم يحضروا بسيارات ومعهم عفشهم وأغراضهم. كلنا تركنا بيوتنا وجئنا إلى هنا على أساس أننا سنسكن بيوتاً طبيعية كبيوت البشر. نسكن الآن في بيت "على العظم" وأجرته مائة وخمسون ليرة تركية في الشهر. لا شبابيك فيه ولا تدفئة. والله يدبرها. هذه المنطقة "شوبها شوب وبردها برد"، لا أستطيع العيش في خيمة، لسنا معتادين على الخيام. الأرض هنا لها أصحابها ونحن لا أملاك لنا ولا أراض ولا أرزاق. أتمنى أن أعود إلى بيتي ولا أبقى هنا. لا أحس بالاستقرار. أعيش حياتي في انتظار الرجوع إلى بيتي. بالنسبة للأكراد لو كان الأمر بيدهم لما سمحوا لنا بالبقاء. لا يحبوننا. البيوت بيوتهم وهذا حقهم، ولكن ماذا نفعل بحالنا وأين نذهب؟ تركت بيتي مجبراً وإلا فما الذي سيأتي بنا إلى هنا؟ نتمنى من الله أن يأتي أناس شرفاء ليعيدونا إلى بيوتنا ولنرجع لأهل عفرين بيوتهم و"كتر خيرن". حتى لو أخذوا منّا إيجارات مقابل بيوتهم يبقى حقهم، والحق يعلو ولا يعلى عليه. إن شاء لله يأتي الفرج لهم ولنا.

أين الأونروا من فلسطينيي الشمال؟

منذ سنتين وأنا أستفيد من منظمة شفق. كنت أحتفظ بما نحتاجه والباقي أبيعه وأستفيد من ثمنه. لكنهم لم يعطونا شيئاً منذ شهرين. "يعني بهالشهرين شو ساوي؟ من وين نجيب؟ وولادي قاعدين بلا شغل".

حتى الأونروا غائبة تماماً. لم يعودوا يعترفون بنا. من بقي في دمشق ما زال يقبض مساعدات الأونروا، مائة ألف للواحد. ولكن أنا كيف سأقبض؟ اسمي عندهم ولكنهم لا يدفعون إلا للشخص نفسه. حسب ما أعرف فالمساعدات تأتي على عدد الأشخاص المسجلين. وهذا ما نريد أن نسأل عنه مسؤولي الأونروا؛ عدد الفلسطينيين مئتا ألف عائلة؛ منهم في الشمال ومنهم في مناطق النظام وقسم كبير منهم تهجّر، "وين عم تروح هالمصاري؟ وإلا عم تنحط بالجيب؟".

يكفي أن الحكمة[19] والدواء كانا مجانيين من الأونروا. هنا نذهب إلى المستوصف ولكن ليست عندهم أدوية. في مستوصف الأونروا عيادة للأسنان أما في هذا المستوصف فلا توجد. التعليم هنا سيئ جداً والأساتذة بحاجة إلى تعليم. أما تعليم الاونروا فكان الوزراء والضباط يضغطون على المدير لتسجيل أبنائهم فيه، كانوا يقولون له اعتبروهم فلسطينيين. الأونروا مشهورة بالتعليم وبالصحة. والآن نطلب منها أن تلتفت إلينا وتنظر في مشاكلنا وترحمنا. نقبل بإخراجنا إلى أي دولة. ليضعوا أنفسهم مكاننا، هل كانوا سيقبلون بهذه الحياة؟ نحن نقبل أن نعيش مثل الحيوانات عند الأجانب. صرنا نريد حق الحيوان وليس الإنسان. ليخرجونا من هنا. وأنا واثق أنهم إذا سألوا الفلسطينيين

[19] - الطبابة.

من يحب منهم أن يخرج فلا أحد سيرفض. نتمنى من الأونروا أن تنظر إلينا وأن تطلبنا السلطة من القنصلية لتخرجنا من هذا الجحيم ونحن نتدبر أمورنا، ولكن ليخرجونا فقط. هل لا تعرف السلطة أن شعبها فقير؟ ليأتوا ويروا وضعنا ويدرسوا أحوالنا و"يعيشونا عيشة منيحة. إذا مو متل عيشته متل عيشة كلبه!" نتمنى أن يخرجونا من هنا. لا نريد سلة غذائية ولا مساعدات. نعيش في الصحراء ولكن نخرج من هذا المأزق، من هذه "الطابوسة" التي علقنا بها. إذا خرجنا فأولادنا سيشتغلون. بأيديهم مصالح ومهن وأينما ذهبوا فسيتدبرون أمورهم ويعيشون.

لا نجرؤ أن نتصل مع أي أحد في الغوطة لأن النظام إذا عرف فسيؤذيهم. هناك من يتصل مع من في دمشق، لكن الغوطة مغضوب عليها لأنها تأخرت كثيراً حتى سلّمت. هناك مناطق أخرى انتهت قصتها خلال شهرين فلم يحدث شيء لهم. عملوا مصالحات وها هم يعيشون في بيوتهم ولا مشكلة عندهم، أما نحن فنخاف من الطرفين. هل أنا سعيد بخروجي؟ لا والله، بيتي وكل أملاكي في دمشق. ماذا استفدت من وجودي هنا؟ ما الذي استفدناه من ثورتهم. لا شيء. صرنا شحاذين. "عم نقرف حالنا".

هل من يسكن بين أهله مثل من يسكن بين أغرابٍ كل منهم من مكان؟ هناك كنت إذا مرضت فالكل يأتي لزيارتي أما هنا "ما في حدا لحدا". الكل مشغول بتأمين عيشه. لم نعد مثلما كنا. كان الجار مثل الأخ وكنا نسكب لبعضنا مما نطبخ. مؤخراً تزوج أحدهم فلم يأت لحضور عرسه غير ثلاثة من أهله. "أعراس الفلسطينيين مو هيك". عرسي مثلاً كان سبعة أيام حفلة، "تعليلة"، الرجال عند الرجال والنساء عند النساء، والقهوة والشاي تقدّم للجميع.

إذا حدث وعدنا إلى دمشق أريد كرامتي. أريد أن يعاملونا معاملة محترمة. إذا كنت مجرماً ليحاسبوني. ليسألوني لماذا حملت السلاح؟ كي أدافع عن نفسي. وإذا كنت مظلوماً أريد حقي. الكل سيُحاسَب. الحساب للجميع.

الخروج من خان الشيح

> **ع مين بدي أعاود؟ عالحيطان؟ شو بدي بالحيطان؟ مين بدو يعاود لي اللي مات؟**

أنا باسندة العلي. من أهالي فلسطين من غوير أبو شوشة. عمري ستة وخمسون عاماً. أيام مخيم خان الشيح كان عندي محل أعمل فيه لأتعيّش. عندي سبعة أولاد أيتام. وقد علّمتهم جميعاً والحمد لله. لكني تعبت الآن وصحتي صارت "على قدها"، لهذا أبقى في البيت وألتزم بحفظ القرآن الكريم والاطلاع والتعمق أكثر الحمد لله.

النشأة في حي الأمين بدمشق

كان أهل هذا الحي من أكثر من ديانة: يهود ومسيحيون ومسلمون وبينهم فلسطينيون. عشنا مع بعضنا أحلى طفولة ولم نكن نميّز. كنا عائلة واحدة، نلعب مع بعضنا وندخل بيوت بعضنا ولا نخاف. لا هم أحسوا بالخوف منا ولا نحن أحسسنا بالخوف منهم، إلى أن قامت الدولة بإخراج اليهود وأخذت بيوتهم وسافروا إلى فلسطين[20]. بعضنا كان يتواصل معهم هناك فقالوا لهم: "قعّدونا بخيم. كنا عايشين ملوك وهلأ عشنا بالذل والإهانة. يا ريت نرجع نعيش مع بعض متل أيام زمان". من يومها اختفوا كأنه لم يكن لهم أثر. الآن استوطن الشيعة الحي. كانوا يتغلغلون فيه أولاً بأول أما الآن فقد صار بشكل كامل. كنا نراهم. نميّزهم من لفّاتهم ومن لباسهم. صارت المنطقة كلها للشيعة. عدد من بقي من الفلسطينيين قليل جداً وأيضاً قل عدد السكان الأصليين. حتى المخابز هناك مخبز للشيعة ومخبز للبقية. بيوت الحي كلها مبنية من الحجر. البيوت ولا أحلى وما زالت حتى الآن. تضع الدولة جهدها هناك، كل فترة كانت تعمل على تحصين وترميم البيوت كي لا تتهدم. بسبب الحجر لم نكن نحس بلسعة البرد في الشتاء ولا بالحرارة في الصيف.

كنا نعيش في "حوش" كبير فيه أكثر من عائلة. معنا نازحون من الجولان ومن فلسطين ومن جميع الملل. تمنيت لكل طفل أن يعيش طفولة كهذه لشدة جمالها وهدوئها و"عالسبحانية". الكل يحب بعضه والكل يساعد بعضه و"إذا واحد وقع الثاني يشيله". كان الجو جميلاً جداً ولكنه لم يدم للأسف.

لكل شخص عاداته وتقاليده. بالنسبة للمسيحيين مثلاً كانوا يشربون الكحول ولكن ضمن بيوتهم. كنا في الأعياد ندخل ونعايدهم، وفي عيدنا كانوا يعايدوننا. واليهود أيضاً كان لهم كنيس يصلون فيه. وعندهم عيد يصنعون فيه خبزاً مثل "الناعم" الذي نأكله في رمضان، يسمونه "خبز المص"[21] ويوزعون منه في العيد. كنا نفرح به.

والدي من الفدائيين القدامى وكان قد أصيب في عام 1967. كان في جسمه ثلاثون طلقة وقد كتب الله له عمراً. حتى مات ولم تزل فيه شظية بجانب القلب. كان متقاعداً. يمتلك سيارة سوزوكي يعمل عليها ويتعيّش منها ليؤمن احتياجاتنا. وعندما يعود يأخذنا إلى الغوطة أو إلى طريق المطار.

درست الإعدادية في معهد فلسطين بحي الأمين. ولما حصلت عليها دخلت ثانوية القدس في حي باب توما وواصلت دراستي حتى الثالث الثانوي الأدبي لكني لم أحصل على البكالوريا. كنت أتمنى أن أصبح محامية لكن كان نصيبي أنني تزوجت. في هذا العمر تكون رغبة البنت أن تتزوج وتستقل بحياتها.

---

[20] - لم يصدر قرار بتهجير اليهود ومصادرة أملاكهم.
[21] - htoztaM أو المصة: خبز غير مخمّر يتناوله اليهود في عيد الفصح الخاص بهم.

ومع مسؤولية البيت والأولاد والفلاحة وزراعة الزيتون والخضار لم تعد هناك فرصة. ولهذا بذلت كل جهدي وتعبي على تعليم أولادي، والحمد الله كلهم نالوا الشهادات. والآن عندي بنت في الثانوي، وإن شاء لله هي من ستحقق طموحي.

تزوجت إلى مخيم للفلسطينيين بعد الضمير، وعشت فيه تسع عشرة سنة حتى وفاة زوجي. كان فلاحاً واستنشق الكثير من المبيدات التي كان يرشّها للمحاصيل مما أدى إلى إصابته بالتهاب في الدم. بعدها تحول الالتهاب إلى مادة خبيثة في جسمه. بقينا نعالجه لثلاث سنين ولكن الله لم يكتب له الحياة. في ذلك الوقت كان أهلي يسكنون في خان الشيح فساعدتني وكالة الغوث على بناء بيت بجوارهم وعشت مع أولادي هناك.

بداية الثورة

بعد هذا ببضعة سنوات ابتدأت الثورة في عام 2011. كانت الأحداث بسيطة عندنا ولهذا نزح أهل مخيم اليرموك، أهل يلدا، أهل الحجر، أهل السيدة زينب؛ كلهم هجّوا إلى خان الشيح. فتح الناس بيوتهم ومحلاتهم لاستقبال النازحين. حتى الشوارع كنا ننظفها ونمدّها. يعني لم نترك شيئاً إلا وقدمناه لهم. جعله الله في ميزان حسناتنا. بعدها بقليل صاروا يقولون إن عندنا مسلحين و"انخبص المخيم". بدأ الناس بالخروج. منهم من ذهب إلى المزة ومنهم ذهب إلى الجديّدة، وإلى كل المناطق.

بدأت عندنا فعلياً في خان الشيح في 2015. كان هناك فصيل يقال له أبو دجانة حاول أن يعتدي على أهالي المخيم فوقفوا بوجهه وشكلوا لواء أسموه "لواء العز" بقيادة الأخ أبو النور[22] الله يتقبله. كان هدف لواء العز وهمه حماية أهل المخيم والمدنيين الذين فيه حتى لا يعتدي عليهم أحد. وفعلاً منعوا أي مسلح من دخول المخيم. فصيل أبو دجانة بالذات قالوا إنه يتعامل مع النظام فقد كان يحاول أن يسحب الشباب ليسلّمهم للنظام، وحاول فتح مناطق ليدخل النظام منها إلى المخيم. في النهاية شعب فلسطين لا علاقة له بهذه القضية كلها. "يعني البلد بلدهم أول الشي". وكانوا يقولون لنا: "بدنا ناخذ بيوتكم. البلاد بلادنا. أنتم فلسطينيون ما إلكم شي". ولهذا وقف الشباب في وجوههم وقالوا: "طالما في حدا من شعبنا موجود مستحيل نخلي حدا يؤذيهم، وبالأخص البنات". أحضر لواء العز معاطف للبنات التي تلبس "سبور" للحفاظ عليهن لا أكثر وليس من باب التعصب.

بقينا نعيش بأمان لكن المشكلة أن شبابنا لم يعودوا يستطيعون الخروج من المخيم. يعني البلد لا تخلو من العملاء. أي واحد منهم قد يبلّغ عن أسماء الشباب الذين يحمون المخيم لهذا لم يتمكن الشباب من الخروج، إذ سيتم اعتقالهم على الحواجز. لهذا كنا نحن النساء نخرج لنحضر لهم مساعداتهم من وكالة الغوث. العائلات التي لم تستطع أن تستلم مساعداتها كنت أحضرها. كنت ألبس حزاماً من القماش ومعطفاً واسعاً. وبما أنني لست صغيرة في العمر لم يكونوا يدققون؛ يكتفون بتفتيش حقيبة اليد. لكنهم كانوا يدققون في تفتيش الشبان والشابات. فكنت أحضر المساعدات للعائلات بموجب توكيل.

يقع بيتي بين بنايتين ولهذا كان الكل يجتمع عندي وقت القصف. تضحك أختي وتقول لهم:" ليش بتيجوا عبيت أختي أم كفاح؟" فيقولون: "بيتها بيت أيتام، الله بيحميه". وسبحان الله، رغم كل صعوبة ما حدث إلا أن البيت لم يتأذّ والزجاج لم يصب. لكن المأساة وقعت أثناء الصيام في ليلة

[22] - عز الدين حمد.

القدر 25 تماماً في 2016. نزل صاروخ وقصف بناء بجوارنا مكوّناً من ثلاثة طوابق صارت ركاماً على الأرض. استشهد أخي وابنه وعمره خمس سنوات وكان يصلي الفجر. حملت ابن أخي بيديّ وكان مقسوماً إلى نصفين.

النظام والروس والموساد هم من ضربونا. إسرائيل أيضاً اشتركت بالضربة. اتفقت هذه الدول الثلاث على الضربة لأن الأخ أبو النور قائد لواء العز، وهو بالأساس من حماس، كان معنا في هذه المنطقة. كانت الدنيا كلها تحبه، وكان يعمل بما يرضي الله. كان أباً للأيتام وللمحتاجين ولكل إنسان هناك. لم يكن يسمح لأي شخص بظلم غيره.

في إحدى المرات نزلت قذيفة في قلب المخيم على عائلة نازحة فأصيبت ابنتهم. حاولوا أن يسعفوها ولكن لم يتجرأ أحد على الخروج. أخذتها لأسعفها وعلى الحاجز سألوني: "شو اللي صابها هاي البنت؟" فقلت لهم: "من المسلحين". كانت هذه الكلمة التي تنقذنا على الحواجز. فسبحان الله ضحك العسكري وقال: "ليش تكذبوا تقولوا من المسلحين؟ إحنا شفنا الطيارة وقت كانت تقصف". قلت له: "يعني شو بدك نحكيلك بالنهاية؟". أخذناها إلى مشفى المواساة ولكنها ماتت بين يدي. الله يتقبلها.

كان الوضع صعباً فعلاً. لم نعد نحس بالأمان. كنا نحاول أن ننام ولا نقدر. كانت العائلة كلها تجتمع في مدخل البيت عند بداية القصف. مع أن من كان مقدراً له الموت فسيموت. لكن الخوف ليس سهلاً. الصغار أصابهم "أبو صفار"[23] من الخوف. أغلب الأطفال في خان الشيح أصيبوا به. كنا نتوضأ بلمح البصر تحسباً من وقوع قذائف على البيت.

شبه حصار

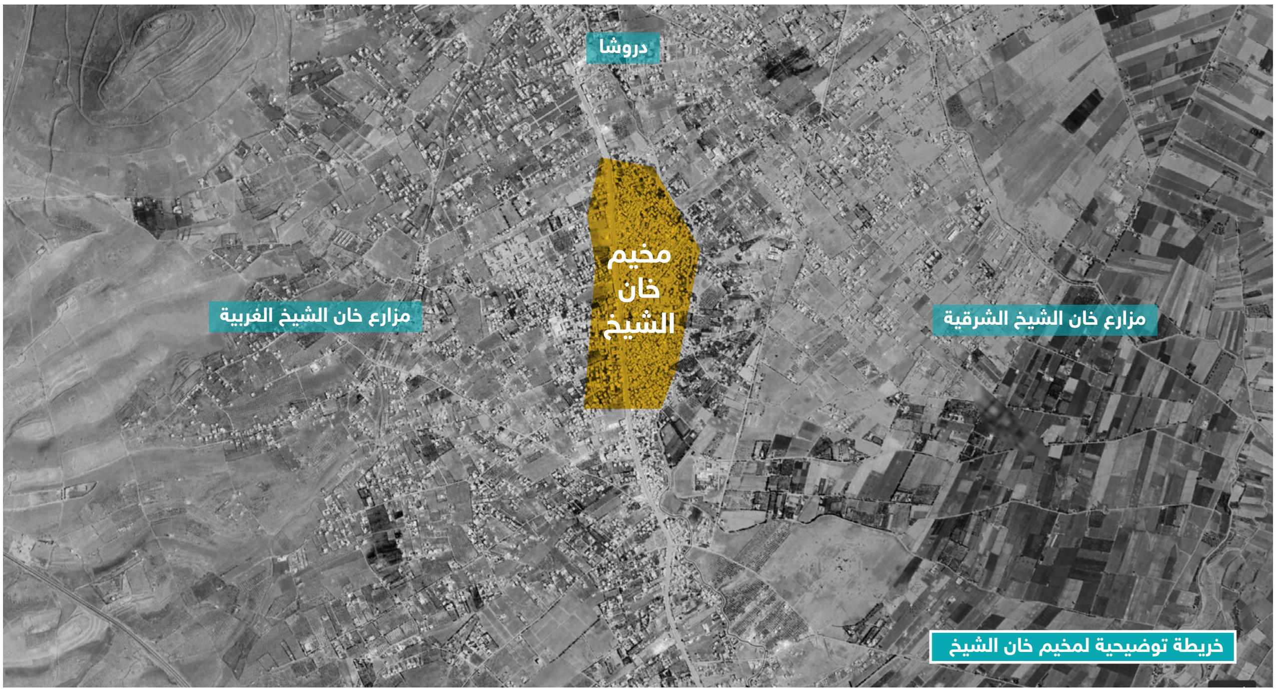

[23] - مرض اليرقان.

في خان الشيح لم يجُع أحد قولاً واحداً. أولاً لأن المنطقة كلها عشائر تعيش على العادات القديمة و"تموّن" كل شيء. ومن عنده "مونة" أو أكل يعطي لغيره. ومن ليس عنده كان يخرج ليحضره. لم نجع لكنهم ذبحونا عندما قطعوا عنا مخصصات الطحين ومنعوا دخول الغاز، لهذا صرنا نطبخ على الحطب لنمشّي أمورنا. منطقة خان الشيح كانت مفتوحة من جميع الجهات وحولها مزارع وبساتين. كانت الحواجز تمنعنا من إدخال أي شيء. لكن كان هناك خط مخفي بين زاكية وبين خان الشيح. كان بين البساتين فكان الناس يستخدمونه ليخرجوا على الموتورات أو سيارات الهونداي ولكن بدون ضوء وفي الظلام. بعدها انتبه الفوج 137 لهذا الطريق وبدأ يقنص الناس عليه وصار اسمه خط الموت.

هذه المنطقة كانت كلها للجيش الحر. لكن الطريق الذي كنا نحضر منه الأكل والطحين والغاز، وهو المنفذ الوحيد الحيوي إلى زاكية، صار مرصوداً من قناص الفوج. مات كثير من الشباب. منهم من كانوا ذاهبين لإحضار الغاز فرموا عليهم قذيفة تكفلت بشيّهم. على الأقل قتل خمسة عشر شاباً ضحية الخبز والغاز. أيضاً كانت الكثير من العائلات تريد الذهاب إلى دمشق، وعند خروجهم في الظلام يتم قنصهم.

في أحد الأيام قرر الجيش الحر الهجوم على الفوج لكن المعركة لم تستمر طويلاً. اشتبكوا لبضع ساعات وتوقفوا. لم يقدروا عليه ولم يجدوا حلاً. ومن مات مات ومن خرج خرج.

بلدة زاكية بجوارنا كانت قد أبرمت تسوية مع النظام فكانوا يدخلون لهم كل شيء. استغل أهل زاكية أهل خان الشيح بما أنه ليس أمامهم مجال آخر ليأتوا بأغراضهم غير زاكية. رفعوا أسعار المواد ولكنها بقيت ضمن المعقول وليست خيالية. كان من مصلحتهم أن لا يرفعوا الأسعار كثيراً وإلا فأهل المخيم سيجدون بديلاً لأن له عدة منافذ أخرى وإن كانت خطرة. لهذا حافظ أهل زاكية على اقتصادهم شغّالاً من خلال أهالي خان الشيح. وفي المخيم كان هناك تجار يأتون بالبضائع من زاكية بأسعار مقبولة. فقد كانوا يعلمون بوضع الناس. الشهادة لله بخان الشيح لم يستغل أحد.

كان الناس يعيشون على مساعدات وكالة الغوث التي كانت تصل كل ثلاثة أشهر. وكما قلت من لم يقدر على الذهاب من الشباب خوفاً من الحواجز كانوا يعطوننا توكيلاً عنهم. توجد باحثة تابعة للأونروا في خان الشيح هي من كانت تكشف لتتأكد من وجود هؤلاء الأشخاص ومن عدم قدرتهم على الخروج من المنطقة، وهي من كانت تكتب التوكيل لجماعة الوكالة ليوافقوا على تسليمنا المساعدات. كانت المساعدات تكفي كل شخص حسب عائلته، مع بعض التقنين، حتى تأتي المساعدة اللاحقة.

سمحوا للموظفين بالخروج بباص خاص بهم، لكنهم اعتقلوا نصف الخارجين بتهمة مساعدة المسلحين. على الحاجز الطيار كان معهم شخص يدلّهم على الشباب. لم يقدر أحد على كشف هذا العميل حتى تعرف عليه أحد الأهالي أخيراً فضربه بالرصاص في قلب المخيم. اتضح أنه من كان يقوم بتسليم أبناء المخيم. هناك نساء أيضاً لم يعجبهن الوضع من تقييد في اللباس والتحرك؛ فتعاملوا معهم.

استمر الجيش الحر الموجود بتوزيع المساعدات حتى آخر لحظة. حتى يوم خروجنا وزعوا كل ما لديهم من سمن وزيت وسكر وجميع المواد التموينية على من بقي هناك.

انقطعت الاتصالات الأرضية كلياً لأن القصف دمر المقسم، وكان التواصل عبر الموبايلات فقط.

كنا عندما نتكلم مع أحد في مناطق النظام ويتشوّش الخط نعرف أن هناك من يتنصت علينا. لهذا لم يكن الشباب يتواصلون مع أحد هناك حتى لا يتسببوا بأذيتهم. ظلت الكهرباء موجودة لأن التوتر كان ضمن المخيم وأهل المخيم هم المتحكمون به. وفي أي اشتباك يحصل كانوا يقطعون التوتر فتنقطع في مناطق النظام أيضاً. لخمس سنوات لم تنقطع الكهرباء عندنا.

ظل الوضع هكذا حتى مقتل الشيخ أبو النور[24]، فهو من كان يمسك بالمنطقة ولم يكن يريد المصالحة. نزل الصاروخ عليه واستشهد. قالوا وقتها إن أحد العملاء وضع له قطعة تم من خلالها تحديد مكانه. كانوا لا يريدون أحداً من حماس، وأبو النور كان من حماس. ساعدت حماس كل المناطق إجمالاً، وساعدت مخيم خان الشيح بالمواد الغذائية وبكفالات الأيتام وبكل شيء.

المعركة فالتهجير

بعد استشهاد أبو النور بدأ الهجوم علينا من جميع الجهات. قاتل الشباب ولكن عددهم كان قليلاً. كانوا أقل من مائتي شاب يحمون المخيم كله. وظنهم النظام ألوفاً. أذكر أنني سألت واحداً منهم: "قديش عم يعطوك؟" فقال: 3000 ليرة. يعني لم يكن المال هدفهم بل حماية أهل المخيم فقط. ولكن لم يبق مقاتلون. "بالنهاية هما كلهم أكم واحد. فاللي تصاوب، اللي تشلخ، اللي حالته حالة". ولم يبق أحد. حتى حدثت المفاوضات وأتوا بالباصات وخرجوا ولم يقبل أحد أن يصالح.

خان الشيح كانت مثل الشوكة في حلوقهم لأنهم لم يقدروا أن يدخلوها ولا بأي شكل. بدأت الثورة فيها في 2015. واستمرت لسنة ونصف حتى تشرين الثاني 2016. لم يقبل أحد بالصلح، الكل خرج. طبعاً لم يكن خروجنا سهلاً. تعب كل هذه السنوات وضعناه في البيت. كل ما جنيناه في حياتنا في هذا البيت، وفجأة فقدنا كل شيء. كان الوضع مأساوياً لكننا خرجنا. عندي مثل أقوله دائماً "بالمال ولا بالعيال". يعني نستطيع أن نعوّض البيوت ولكن أولادنا كيف سنعوّضهم؟ وأنا عندي صبايا ولا أضمن أن النظام لن يغتصبهن عند دخوله كما حصل في مناطق كثيرة. عندي ست بنات وشاب واحد. خرجت من أجلهم. خرجنا أنا وابني وبناتي، منهن اثنتان تزوجتا أثناء الحصار وخرجتا مع زوجيهما وأولادهن، وإخوتي وزوجة أخي الشهيد، خرجنا كلنا.

لم أسمح لابني بالانضمام إلى الجيش الحر. لكنه كان يساعدهم في حفر الأنفاق لحماية المخيم إن لزم. ولكني لم أقبل أن يخرج للقتال لأنه مسؤول عن أخواته الست وعني وعن زوجته وأولاده. وهذا الجهاد الأكبر. كان عنده محل دجاج ولكن النظام لم يكن ليفهم هذا؛ بالنسبة له مجرد أننا كنا نعيش بينهم فالأكيد أننا معهم.

بعد أن ركبنا الباصات بتنا فيها ليلة قبل أن يسمحوا لنا بالذهاب، عقوبة لأهل المخيم. عند خروجنا كان الجيش سعيداً بخلاصه من هذه الشوكة التي كانت في حلقه. تخلصوا أخيراً من أهل خان الشيح. كانوا يبصقون علينا ويشتموننا. لم نتعرض لشيء من مناطق النظام على الطريق لأننا سافرنا ليلاً ووصلنا في الفجر.

كل التعب الذي تعبناه في طريقنا في الباصات نسيناه مع استقبال أهل قلعة المضيق. كانوا أهلاً بكل معنى الكلمة. كانوا قد أمّنوا البيوت وأتتنا المساعدات من "صوبيات" للتدفئة بما أننا كنا في الشتاء، وفرشات إسفنجية وكل شيء. منظمات كثيرة ساعدتنا وقتها. وكان الأهالي سعداء بنا.

[24] - في 2 تموز 6102.

نزوح في النزوح

وجدنا باصات تنتظرنا لتأخذنا فوراً إلى إدلب المدينة. بقينا هناك حوالي ستة أشهر، ولما بدأ القصف عليها خرجنا. لم نعد نستطيع التحمل. كانت نفسيتي متعبة والأولاد مثلي. خرجنا إلى تل مرديخ وبقينا فيها ثلاثة أشهر. صاروا يقصفونها أيضاً فتركناها وذهبنا إلى منطقة اسمها سلوى وبقينا هناك لسنتين. "ذبحونا ذبح ع قد ما سحبوا منا عملة". البيوت تعيسة ومع هذا فأجرة أقل بيت من خمسة وثلاثين إلى خمسين دولاراً. أخذوا بطاقاتنا ليستلموا المساعدات على أسمائنا ولم يعطونا شيئاً منها. سنتين يشهد الله لم نأخذ منهم مساعدة. بعدها قالوا إنهم يريدون البيت فذهبنا إلى بلدة أطمة وبقينا هناك خمسة عشر يوماً كلّفتنا خمسين دولاراً. فعاودنا الخروج إلى عفرين ووجدنا هناك بيتاً "عالعظم" بدون أجرة فسكنّا فيه ومشّينا وضعنا ولا زلنا منذ سنتين ونصف. ابني صار أباً لخمسة أولاد وبالكاد يقدر على تأمين الخبز لهم. لا توجد فرص عمل هنا. أنا وزوجته وأخواته كان معنا بعض الذهب فبعناه و"طيّنّا" الأرض ومددنا صحية. البيت صغير، غرفتان ومطبخ صغير وحمام. والآن أتى صاحبه يطالب به وبعدها قال: "إذا بدكم اشتروه".

أشعرنا الأكراد أننا نحتل بلدهم. لم يفهموا أننا متضايقون أكثر منهم. نحن نتمنى أن يتم إصلاح الأوضاع وأن يعود الكل إلى بيوتهم. بالإضافة إلى أننا لم نختر عفرين وإنما سكنّاها بالصدفة بسبب عمل ابني. وهي ليست آمنة أيضاً. تحدث فيها تفجيرات، وجماعة قسد[25] يطلقون عليها القذائف فيموت أشخاص لا ذنب لهم.

غالبية سكان الحارة التي نحن فيها من حلب والمضيق والغوطة. لا توجد فيها إلا عائلة أو عائلتان أكراد. إجمالاً ألفاظ الأولاد حولنا بذيئة وعندهم "قلة دين"، يعني أحياناً أسمع منهم الكفر. الطفل ينشأ حسب ما يربيه أهله. ولهذا منعنا أولادنا من النزول واللعب معهم. ألعابهم وصلاتهم وتعليمهم كلها في البيت. منعتهم من الاختلاط مع أحد. عندما ينشأ الطفل مع أطفال عديمي الدين والأخلاق سيُدمر. لهذا انزويت لوحدي لأحافظ على بيتي، وعلى أولادي، وعلى أولاد أولادي.

أعيش أنا وابني وأولاده وابنتي طالبة الثانوية. ابنتي هذه تعذبت كثيراً بسبب النزوح المستمر في كل منطقة فتأخرت دراستها. كان من المفروض أن تكون الآن في الجامعة وعلى وشك التخرج. لم تستطع أن تأخذ الشهادة الإعدادية حتى السنة الماضية. هذه السنة سجلتها في معهد ثانوي ولكنها تواجه صعوبات، إذ لا تقدر أن تتقدّم لامتحان الثانوية العامة حتى يكون قد مضى على نيلها الإعدادية سنتان.

خصوصية وضع الفلسطينيين

بالنسبة لنا كفلسطينيين لا توجد هنا مؤسسات إغاثة. هيئة فلسطين[26] تعطينا كيساً صغيراً فيه بعض المواد الغذائية مرة واحدة في السنة. ذهبنا إلى المجلس المحلي فقالوا لنا: "أنت فلسطيني إلك مندوبك، إلكم دعم لحالكم". نذهب إلى مندوبنا فيقول: "عم بنقدم لكم وما عم يبعتولنا شي". منذ أتينا وهم يجرون الاستبيانات عنا دون فائدة. في أول وصولنا إلى الشمال كانت هناك لجان خاصة بالفلسطينيين يسجلون أسماءنا ويرسلونها إلى الأونروا من خلال الهلال الاحمر.

[25] - قوات سوريا الديمقراطية: تأسست عام 5102 ويغلب عليها الطابع الكردي ونفوذ حزب الاتحاد الديمقراطي dyp.
[26] - هيئة فلسطين للإغاثة والتنمية: مؤسسة تطوعية تنشط في وسط اللاجئين الفلسطينيين في سوريا.

طالبوا ولكن لا حياة لمن تنادي. لم ترد الأونروا ولم يتجاوب أحد.

نحاول من خلال شباب هنا باسم الفلسطينيين. نطالبهم أن يقدموا لنا طلبات لهيئة الأمم ولأي جهة كانت. نحن ما نزال ضمن البلد ومعنا ما يثبت ذلك. البطاقات البيضاء الخاصة بالطبابة تثبت وجود الفلسطينيين في هذه المنطقة. ونحن نحاول من خلالهم تقديم مطالبات للمساعدة.

لا توجد أونروا هنا. يقولون إن هذه منطقة مسلحين ولهذا لا يوجد مندوب لهم ولا يساعدون فيها. منذ دخولنا إلى هنا ولا أي فلسطيني أخذ مساعدة منهم. إذا كانوا هم يأخذون المساعدات على أسمائنا هناك فالله يعلم. لا نستطيع أن نسأل أحداً في دمشق، فهم يخافون من الحديث معنا لأن النظام اعتقل الكثيرين من خلال مراقبة الهواتف.

لو أن الأونروا موجودة في الشمال كان وضع الفلسطينيين اختلف بالتأكيد. فهي تساعد الناس من الناحية الصحية ومن الناحية المادية. تعليم وكالة الغوث يختلف كلياً. كان الطالب يرجع من مدرسته وقد حفظ كل دروسه ولكن الآن إذا لم يتعب الأهل مع أولادهم من المستحيل أن يتعلموا. كانت الأونروا تتكفل ببعض العمليات الجراحية. يعني يجري المواطن العملية ووكالة الغوث تساعده بتسعين أو خمسة وتسعين في المئة. كانوا يجرون للقلب والضغط فحوصات شهرية بينما هنا لا أحد يهتم بهذا.

نريد من المنظمات أن تلتفت إلى الفلسطينيين "العايفين حالهم". مطلبي أن يؤمّنوا لنا مكاناً لنستقر فيه. ومحلاً لأتعيّش منه لا أكثر. أطالب لكل فلسطيني هنا وليس لي فقط. هناك أيتام ونساء وشيوخ، هناك عائلات تحت خط الفقر بحاجة للمساعدة.

هنا أشعر بأنني ضيفة قد تخرج في أي لحظة. أتذكر بيتي في خان الشيح دائماً وأبكي. سيبقى غصة في القلب. والله كنت أقطع من لقمة أولادي لأؤسس لهم بيتاً من أحسن ما يكون ولا ينقصهم شيء. كان بيتي كبيراً فيه ثلاثة غرف وصالون ومنافع، وأمامه مصطبة جميلة. حاولت أن أجعل منه الجنة التي يعيشون فيها ولا يحتاجون شيئاً.

لن أرجع إلى دمشق فلم يبق لي أحد هناك. لا أب ولا زوج ولا أخ. عندي خمسة أخوة قد استشهدوا. أحبائي كلهم ماتوا. "ع مين بدي أعاود؟ عالحيطان؟ شو بدي بالحيطان؟ مين بدو يعاود لي اللي مات؟ مين بدو يعاود لي البسمة اللي كانت بقلب الواحد؟". إذا رجعت يوماً فسأعود لبيع البيت هناك وأؤسس بيتاً هنا. "خلص. قلبي ما عاد يتحمل. شلون ما تفتل في غصة". وهناك لا يوجد أمان. كثيرون أمّنوا وعادوا إلى البلد واعتقلوهم. مستحيل أن نثق بالنظام مهما قدّم من ضمانات ووعود، فهو ظالم وغدار.

لكن أملي بالله أن تكون الرجعة إلى فلسطين... إن شاء الله تكون إلى فلسطين.

هجّرونا لأسباب طائفية

اختبرنا الكثير من الألم ولا نريد هذا لأطفالنا، أريد بلداً آخر لنعيش فيه بسلام

اسمي محمد فلاح (أبو المجد). عمري ثلاثة وأربعون عاماً. أصولي من فلسطين، طبريا، جسر المجامعة. هُجر جدي في النكبة 1948 إلى هضبة الجولان المتاخمة لفلسطين وطبريا الأقرب إليهم. واستقر هناك إلى أن باع حافظ الأسد الجولان لإسرائيل أثناء عدوان 1967، فاضطروا للنزوح مرة أخرى إلى ريف دمشق وأقاموا في منطقة السيدة زينب.

السيدة زينب

كانت المنطقة شعبية بسيطة وبأسعار رخيصة لشراء البيوت والسكن، متاخمة للعاصمة. ضمت خليطاً سكانياً من جميع المحافظات السورية؛ دير الزور والرقة وحلب وإدلب. إضافة إلى أنها حوت مخيمات للفلسطينيين. لم يكن هناك أي تمييز بيننا ولم نعش أي تفرقة بين السوريين والفلسطينيين. لم يسألوني عن جنسيتي إلا في الأفرع الأمنية أو المراكز الحكومية.

لا شك أن لكل منطقة عاداتها وتقاليدها لكننا لم نختلف في المحبة. حظيت بأصدقاء من مناطق مختلفة. التجمع المعروف للفلسطينيين في المنطقة هو مخيم السيدة زينب، خلف مقام السيدة، وهو للفلسطينيين حصراً. هناك حي آخر صغير لا يعدّ مخيماً اسمه حي غربة فيه أكثر من أربعين عائلة فلسطينية. وأيضاً هناك فلسطينيون في شارع فايز منصور. وأقامت عائلات أخرى في أحياء المنطقة. في أوائل التسعينات، أثناء حرب الكويت، أخذت المنطقة تستقبل وفوداً من زوار مقام السيدة زينب. وابتدأت تنتعش تجارياً واقتصادياً وعلى وجه الخصوص سياحياً. ظهرت فيها مطاعم ومحلات وأسواق كبيرة. وسرعان ما أصبحت من المناطق السياحية في ريف دمشق. توافرت فيها فرص عمل متعددة، فأتى الناس إليها بهدف العمل والتجارة.

وصلت إلى الصف التاسع (الثالث الإعدادي) ولم أكمل دراستي بسبب الظروف المعيشية الصعبة. لوالدي سبعة أولاد وخمس بنات والكل كان يدرس، مما شكل عبئاً كبيراً عليه. بعد تركي المدرسة عملت في أحد أسواق السيدة زينب. كانت بدايتي من لا شيء تقريباً، "بسطة" صغيرة كنت أبيع عليها في شارع قريب من المقام. بعدها كبر مشروعي وامتلكت "كشكاً"، ثم محلاً في السوق لأصبح من تجار الجملة في المنطقة في أدوات التجميل وإكسسوارات العرائس، مستفيداً من الازدهار الاقتصادي.

وبدأت الثورة

كنت أقيم في منزلي بجوار أهلي. كانت البداية مع مظاهرات في درعا. يوم الجمعة التالي خرجت عندنا مظاهرة صغيرة. اعتقلوا عدداً من المتظاهرين ليخرجوا بعد أيام. بعد جمعة أخرى خرجت مظاهرة أكبر، قتل فيها شاب اسمه محمد الشديد من أبناء محافظة القنيطرة، لا يتجاوز 16 أو 17 عاماً. أصيب بعيار ناري في رأسه وكنت شاهداً على قتله. تم اتهام شاب اسمه يامن العزيزي، اعتقل وظهر على التلفزيون واعترف بقتل الشديد، وكعادة النظام بمحاولاته الدائمة لزرع الفتن بين العشائر،

نظراً لانتماء الشابين إلى عشيرتين مختلفتين، علماً أن المتهم خرج من السجن لاحقاً. كنت أحد الشهود الذين رأوا القاتل وهو يطلق النار مباشرة على الشديد. اسمه أبو جعفر من فرع أمن الدولة. ذهبت إلى بيت القتيل مصطحباً شاهداً آخر، وأقسمنا على القرآن ان القاتل ليس يامن العزيزي وإنما أبو جعفر. الأب والأم كانا مقتنعين أن النظام قتل ابنهما، لكنهما كانا بحاجة إلى من يؤكد هذا.

بدأت المظاهرات تكبر وتزداد حدة وتمتد لأكثر من حي في السيدة زينب وشاركت فيها. اعتقلني جهاز أمن الدولة في أواخر 2011 وبقيت معتقلاً لسبعين يوماً، تعرضت خلالها لأنواع عديدة من الضرب والإهانة والتعذيب ووسائل النظام الإجرامية كافة. فرع الخطيب الكائن في شارع بغداد هو من قام باعتقالي لخمسة وأربعين يوماً، وبعدها تم نقلي إلى الفرع المركزي لأمن الدولة في كفر سوسة لأكمل فيه السبعين يوماً. خرجت بعد عرضي على محكمة شكلية[27] أجبرتني على توقيع ورقة أتعهد فيها بعدم المشاركة في المظاهرات، وورقة أخرى أتعهد فيها بالإبلاغ عن أي شخص أعرفه يشارك فيها. كان سبب اعتقالي هو أن هناك ممن نسميهم "عواينية" أو شبيحة النظام قد أبلغوا في تقاريرهم للأمن عن مشاركتي في المظاهرات، وتحديداً في واحدة تم فيها تكسير صنم حافظ الأسد في منطقتي واتهموني بتحطيمه. بعد خروجي بشهر أو أقل اعتقلت للمرة الثانية من قبل فرع الأمن العسكري هذه المرة، وبقيت عندهم خمسة وأربعون يوماً. بعدها تم نقلي من هذا الفرع الواقع في كفر سوسة مقابل شام سنتر إلى فرع فلسطين ومن هناك خرجت.

اعتقلت لأنني لم أتوقف عن التظاهر ولا عن مطالبتي مع السوريين، الذين أعتبرهم أهلي ووطني الأول، بإسقاط هذا النظام الفاجر. كنت أرى منذ البداية أن هذا النظام لا يمتلك أي نوع من المصداقية ولا الإنسانية. إضافة إلى ذلك فقد دفعني الاعتقال الأول للمشاركة أكثر في مطالبتنا بالحرية. فقد داهموا منزلي في الخامسة فجراً. كنت نائماً مع زوجتي وأطفالي عندما اقتحموا علينا غرفة نومنا. استيقظنا لنجدهم فوق رؤوسنا دون أدنى احترام لخصوصية البيوت أو حرمتها. ضربوني وأهانوني أمام زوجتي وأطفالي واقتادوني إلى السجن. في المعتقل لم يكن هناك تمييز بيننا كسجناء بين سوري وفلسطيني، لكن هذا لا ينطبق على الشبيحة، فقد تعرضت لإهانات شتى بسبب هذا. في إحدى المرات طُلبت للتحقيق وكانت كل الإهانات والشتائم بسبب جنسيتي: أنت فلسطيني؟ أنت ضيف هنا. ماذا تفعل عندنا؟ تريد إسقاط النظام؟ تعرضت للضرب والإهانات. وقد تكرر هذا أكثر من مرة خارج التحقيق أيضاً.

في المعتقل كان معنا شيخ من درعا البلد لا أذكر اسمه ولكني أتذكر أنه من عائلة الصياصنة، عمره يتراوح بين 50 و55 عاماً. تم تعذيبه بشكل يومي وفي كل الأوقات، صباحاً وليلاً. منعونا من التحدث معه. كان يبكي لتعرضه للكثير من الإهانات والضرب. شخص آخر تعرض لكثير من الضرب والشتائم اسمه أسعد من جبل الزاوية. كانوا يأخذونه ماشياً على رجليه ولا يعيدونه إلا وهو فاقد للوعي من شدة التعذيب. شاب آخر من دير الزور تم تعذيبه أمامنا، أوقفوه على الحائط واستمروا بضربه حتى فقد الوعي، أيقظوه بالماء وضربوه على ظهره ولكن بشفرات مشرط هذه المرة، وتركوه دون أي نوع من المعالجة حتى تعفنت جروحه. كنا خمسة وثمانين معتقلاً في زنزانة مساحتها أربعة في خمسة أمتار. كلنا بتهم متشابهة، المشاركة في الثورة السورية. من هذا المعتقل حولوني إلى فرع كفر سوسة وأعادوا التحقيق معي وأعادوا الضرب والإهانات مجدداً، لأُحوّل بعدها إلى المحكمة وأخرج.

اعتقلت من قبل فرع الأمن العسكري بالطريقة نفسها، تعرضت للضرب والإهانة والتشبيح.

[27] - لا تقوم المحكمة عادة بطلب توقيع أوراق، قد يكون حدث ذلك أمام المحقق في فرع الأمن.

قبل خروجي بخمسة عشر يوماً تم تحويلي إلى فرع فلسطين حيث عذبوني بشكل وحشي. كانوا يقولون لنا: أنتم إرهابيون.. مخربون. تعرضت للشتم لأنني فلسطيني. في إحدى الليالي نادوا أسماء ثلاثة وكنت أحدهم. جعلوني أوقع على أوراق بنفس التعهدات السابقة، إضافة إلى ورقة التعامل معهم والتي كانت شرطاً أساسياً، يجب إثبات الولاء مقابل الخروج. زودوني برقم هاتف لأتصل به في حال تعرفت على أي من المشاركين في المظاهرات لأبلغ عنه. هنا كنا قد أصبحنا في عام 2012.

بعد مدة من اعتقالي الثاني اتصل بي أحد معارفي ليخبرني عن وجود عناصر مخابرات في أول شارعنا يراقبون منزلي ويسألون عني. استعنت بأحد أصدقائي، وكان يعمل في أحد أفرع الأمن، فأخبرني بأنني مطلوب لديهم. صرت أختبئ في بيوت أصدقائي ومعارفي لمدة ليست قصيرة.

المجزرة

يوم 18 تموز 2012 خرجت مظاهرة في شارع علي الوحش، وتم استهدافها وإطلاق النار على المتظاهرين فقتل شاب اسمه عبد الرحيم السمور. في الثامنة مساءً من اليوم نفسه خرج الناس لتشييع الشهيد. ورغم أنني كنت مطلوباً إلا أنني خرجت في التشييع المتجه إلى مقبرة حجّيرة بجانب دوار السبينة. كنت في آخر التشييع بسبب اتصال هاتفي أجبت عليه مما أدى إلى تباطؤي وتأخري قليلاً. في لحظة مفاجئة خرج صوت غريب وملأت رائحة الموت الجو. شعور من الصعب نسيانه. فقدت الوعي قليلاً ولم أعرف ما الذي حدث حولي. استغرقت دقائق حتى بدأت أستوعب. نظرت إلى المتظاهرين لأجد أغلبهم جثثاً ملقاة على الأرض. من كانت يده مقطوعة.. رجله.. رأسه. جثث متناثرة ومنتشرة على امتداد الشارع. أصبت بالرعب، هل كان تفجيراً؟ صاروخاً ضرب المشيعين؟ لم أكن أعرف.

صرنا نسعف الناس، أنا وبعض الناجين. طبعاً لم نكن قادرين على أخذهم إلى مستشفيات حكومية، فصرنا نأخذهم إلى الجوامع حيث شارك بإسعافهم أطباء وممرضون. استغرق نقل الجثث ست ساعات تقريباً. بعدها بدأ شهود عيان ممن كانوا على أسطح منازلهم بالتوافد وأعطونا شهادات عن ما حدث؛ طائرة هليكوبتر قصفت التشييع بصاروخين مما سبّب التفجير الذي راح ضحيته أكثر من أربعمائة وخمسين شاباً من أبناء أحيائنا أو أكثر. يومها استشهد صديق مقرب لي اسمه عبد المنعم النميري، كان صديقاً رائعاً. بين من أسعفتهم شخص اسمه محمد المشتولي، قطعت رجلاه الاثنتان، بقي حياً حوالي النصف ساعة قبل أن يستشهد. شاب آخر حملته اسمه محمد القصريني، كان رأسه شبه مفصول عن جسده، معلقاً كأنما بخيط.

حتى هنا كانت الاحتجاجات سلمية في المنطقة. في اليوم التالي، وعندما بدأنا بدفن الجثث، أتى أشخاص يركضون إلى الشوارع ويصرخون أن الشيعة سيهجمون علينا ويقطعون رؤوسنا. هنا كل من كانت لديه قطعة سلاح، وإن كانت سكيناً أو عصا، حملها. وبدأنا نقطع الشوارع بهدف حماية أهلنا وأولادنا ونسائنا. في هذا اليوم بدأ التغيير من سلمي إلى شبه مسلح. كنا متداخلين بمنطقة السيدة زينب التي يعتبرونها مرجعاً لهم. بدا النظام وكأنه يخطط لهذا الأمر بشكل مسبق. رأيتهم بأم عيني، أفغان وإيرانيون وعراقيون يحملون أسلحة. حزب الله ظهر فوراً وبشكل صريح في المنطقة. وكذلك فصيل آخر اسمه أبو الفضل العباس، لقب قائده أبو عجيب، من نبّل ومن سكان السيدة زينب. كمية السلاح معهم كانت جنونية. قتلوا فوراً كل شاب اعتقلوه من شبابنا. من هذا اليوم بدأت الأحداث المسلحة.

قبل هذه الأحداث شعرنا بالتغييرات الحاصلة في المنطقة؛ حسينيات ظهرت بين الأحياء الشعبية، أحياء السنّة، فنادق خاصة بالشيعة، مستشفيات منها مستشفى الصدر ومستشفى الخميني. ظهرت معالمهم في المنطقة بشكل غير طبيعي حتى قبل حدوث الثورة. لنتفاجأ أثناء الثورة أن من كان يقود هذه الحسينيات ويشرف عليها عناصر أمن تابعون لجهة معينة. أكثر من سبعمائة عنصر تابعين لحزب في العراق كانوا موجودين مع أسلحتهم في حسينية الفاطمية، ظهر السلاح في هذه الحسينيات وابتدأ القتل.

أخذت الأحداث تتسارع بشدة وكانت الاعتقالات خارجة عن نظام الأسد. في منطقتنا تحديداً تمت الاعتقالات من قبل الميليشيات. ميليشيا أبو الفضل العباس ظهرت بقوة بعد تجهيز مسبق، حزب الله، فصيل اسمه فاطميون تابع لإيران لكن عناصره أفغان.

تسلحنا لحماية أنفسنا

بعد ظهور هذه الفصائل بدأنا بالتسليح الفردي لحماية أنفسنا في ظل عدم وجود أي جهة داعمة. من كان يمتلك سلاح صيد أو بندقية أو مسدساً حمله. لم يكن بحوزة أحد أكثر من هذه الأسلحة البسيطة. نظمنا أنفسنا كعائلات وأحياء وأصدقاء، مثلاً بدأنا أنا وإخوتي باقتسام المهام، أحدنا يراقب المنطقة، وعند دخول أي غريب يخبرنا، من معه بندقية صيد يقف في إحدى الزوايا لحماية أطفالنا من القتل.

بدأت الأحداث تتسارع والهجمات علينا تزداد. صرنا نغتنم الأسلحة من الطرف الآخر. نظمنا أنفسنا وظهرنا مع سلاحنا بشكل علني، كان هذا في أواخر 2012 تقريباً. بدأنا بالمرابطة على نقاط معينة وهم رابطوا عليها في الوقت نفسه.

كانت مسألة الذخيرة صعبة، مع توقع الهجوم علينا في أي لحظة. لذلك اضطررنا أن نتبع لفصيل اسمه أحفاد الرسول بدأ يعطينا الذخائر. هذا الفصيل كان موجوداً في درعا وإدلب. بقينا مرابطين في تلك المنطقة حتى سقوطها سنة 2013 بتخاذل بعض الأشخاص، الذين اكتشفنا مع مرور الوقت أنهم عملاء للنظام، ليظهروا لاحقاً باسم داعش.

سنة 2013 كانت أصعب سنة عشتها. كان والدي في منطقة الكسوة وكان مريضاً، فاضطرت والدتي إلى إسعافه إلى مشفى في دمشق. أوقفه حاجز الكسوة الذي كان تابعاً للأمن العسكري كما أعتقد. أخذوه إلى إحدى الغرف المجاورة للنقطة ومنعوا والدتي من مرافقته. غاب حوالي ساعة أو أقل ثم سلموه لها جثة هامدة. كان يبلغ اثنين وسبعين عاماً. قالت والدتي إنهم ضربوه وأهانوه، ولكن لا أحد يعلم ما الذي حصل بالضبط. لم يطلقوا النار عليه، كان جسده مزرقاً وعليه آثار التعذيب. ربما جسده المريض لم يحتمل الضرب أو صعق الكهرباء فاستشهد. كان السبب هو انتماؤنا، نحن أولاده، للثورة السورية. غالباً تعرض والدي للوشاية نظراً لوجود أكثر من سيارة على الحاجز ومع ذلك أنزلوه هو بالذات، أو ربما كانت أسماؤنا معممة على الحواجز. توفي في 25 تشرين الأول 2013، وكان هذا مؤلماً جداً لنا.

بعدها بأسابيع حدثت حملة عسكرية وحشية على منطقتنا فاضطررنا إلى القتال لحماية أهلنا وبيوتنا. كانت غايتنا فقط حماية المدنيين لأن المهاجمين كانوا وحوشاً.

آخر يوم من المعركة، في 14 تشرين الثاني، تعرضنا لضغوط كبيرة وخذلتنا جهة معينة ذكرتها فاضطررنا للانسحاب. أثناء انسحابنا وقعنا في كمين أنا واثنين من إخوتي وبعض العناصر، كنا ثمانية أشخاص. استشهد الجميع وتلقيت إصابتين واحدة في الرأس وأخرى في البطن وأحمد الله على نجاتي. استشهد أخواي الاثنان، وأحد العناصر وكان لقبه أبو شهد، وآخر اسمه محمود من الذيابية، وواحد اسمه علي، وأيضاً شاب فلسطيني اسمه عبد. بعدها بحوالي أسبوع قتل ابن أخي أثناء استهداف أحد الأبنية بصاروخ.

أثناء خروجنا جلست على الأرض أبكي. كان الشعور أصعب من أن يستوعبه عقل. لم أكن أترك بيتي فقط بل أترك وطني وذاكرتي وكل شيء. بيتي الذي ولدت ونشأت فيه يُغتصب أمام عيني. نظرت آخر مرة إلى بيتي، كيف حدث كل هذا؟ متى سنعود؟ متى سنحرر المنطقة وأستعيد بيتي؟ كان الموقف صعباً جداً.

الحصار في مخيم اليرموك

لأننا فلسطينيون لجأنا إلى مخيم اليرموك، الحاضنة. المخيم متاخم لمنطقة يلدا المتاخمة للسيدة زينب. في هذا التوقيت بالذات بدأ حصار هذه المنطقة المحاصرة أصلاً ولكن ليس إلى هذه الدرجة من الوحشية. بقيت في المخيم مع زوجتي وأطفالي الأربعة، وزوجة أخي الشهيد وأطفاله الأربعة، وزوجة أخي الشهيد الثاني وأطفاله الستة. وأقمنا في البناء نفسه مع أختي وابنها، زوجها اعتقل قبل هذه الأحداث ثم ورد خبر استشهاده.

عشنا أياماً من أصعب الأيام. كان يمر يومان أو ثلاثة حتى نستطيع تأمين وجبة حشائش حتى لو كانت سامة كنا نضطر لأكلها. كان تأمين الطعام مسألة صعبة جداً. بكيت في كثير من المرات، كنت أذهب صباحاً لأفتش علّي أجد شيئاً يسد رمق الأطفال الذين كانوا يجلسون على باب البيت منتظرين من يأتي حاملاً معه ما يأكلونه. كنت أعود ولم أجلب شيئاً وكان هذا يتكرر بشكل يومي. هذه المأساة لن تمحى من ذاكرتي ما حييت.

كنا نذهب لجلب عشبة يسمونها برسيم (فصّة) موجودة على خطوط الجبهة. اضطررت للذهاب ليلاً متخفياً بلباس أسود كي لا يراني القناص. زحفت مسافة كيلومتر لجلب هذه العشبة لإطعام الأطفال. في إحدى المرات وجدت جثة شاب صغير ملقاة بين الزرع، غالباً كان يريد جلب العشب للأكل أيضاً. الكثيرون ذهبوا ولم يعودوا. أكلنا عشبة اسمها رجل العصفورة (فجّيلة)، وهي عشبة سامة تتجنبها الحيوانات. كانت تسبب لنا ورماً في اليدين والوجه ولكنها كانت الحل الوحيد لبقائنا على قيد الحياة. لا خيارات أخرى. أعرف أشخاصاً ذبحوا القطط وأكلوها.

كنا نمشي كيلومترين لنصل إلى منطقة اسمها القدم لإحضار مياه للشرب، أو نتدبر القليل من ماء الآبار بطرق بدائية. كانت الأدوية شحيحة ومفقودة. المحروقات غير متوافرة، لجأ البعض إلى حرق البلاستيك وتذويبه وتكريره وصنع مادة شبيهة بالمازوت منه. هي طريقة خطرة جداً، تعرض البعض للحروق والتشويه وحتى الموت أثناءها. عانينا أيضاً من صعوبة في التواصل وكنا نتجنب الاتصال مع أي أحد من خارج دائرتنا حتى لا يتعرض للاعتقال. حصار مخيم اليرموك كان من أشد وأقسى الحصارات في تاريخ البشرية. رأينا أطفالاً ونساء ومسنين ماتوا جوعاً. وسائل الإعلام لم تذكر هذا إلا قليلاً، لكننا كنا شهود عيان.

المأساة الأكبر كانت مجزرة علي الوحش، التي لم تذكر في الإعلام ولا في الجهات الأممية لحقوق الإنسان إلا بشكل بسيط. راح ضحيتها أكثر من ألف وخمسمائة شهيد موثقين، وحسب توقعاتي فإن عدد الشهداء تجاوز الألفين وخمسمائة. حدثت في 5 كانون الثاني 2014. قبل هذا بدأ الترويج بأنه سيتم فتح معبر إنساني للمدنيين من جهة حي علي الوحش. انتشرت الشائعة بشكل كبير في المنطقة ولم نعلم من الذي يروج لها. وفي هذا التاريخ توافد الناس باتجاه المعبر. ذهبت لأرى ما سيحدث لأتفاجأ أن المسؤول عن المعبر شخص اسمه أبو صياح فرّامة، اسمه الحقيقي عبد الله فارس طيارة من سكان يلدا، كان مسؤولاً عن هذا الحاجز مع أخيه أبو جعفر وعدة عناصر مقنّعين لم نعرف لمن يتبعون لكنهم كانوا خارج نطاق الجيش الحر. اعتقد البعض أنهم من جبهة النصرة، والبعض الآخر قال إنهم فصيل إسلامي معتزل لنفسه. أبو صياح فرامة كان المشرف الأول على هذه المجزرة في اتفاق مع عناصر فصيل أبو الفضل العباس الشيعة الذين استلموا النقطة من الجهة الثانية. أتى الناس بالآلاف، نساء ورجالاً وأطفالاً، إلى معبر علي الوحش حوالي الساعة الثامنة صباحاً. حاولت منعهم. قلت لهم إن من هم ذاهبون إليهم لا أمان لهم ولا عهد، لكن لم يستجب أحد. أوهمهم أبو صياح أن هناك اتفاقاً بينه وبين الطرف الآخر بعدم إيذاء المدنيين أو التعرض لهم. تعب الناس من الجوع، ولهذا ذهبوا بأعداد ضخمة. حوالي الساعة الرابعة أو الخامسة بدأ البعض يعود بشكل فردي هاربين. سألت بعض من أعرفهم عما حدث. إحدى النساء قالت لي: قتلوا الشباب، أحرقوهم. كانت مرعوبة جداً. ذكرت لي ما حدث بالتفصيل: اغتصبوا الفتيات. أخذوهن إلى مسجد اسمه فاطمة في شارع علي الوحش واغتصبوا النساء واعتدوا على الأطفال. في ساحة خلف هذا المسجد أحرقوا الشباب وعائلات بأكملها. تم توثيق ألف وخمسمائة رجل وشاب لم يعرف مصيرهم للآن، غالبيتهم قتلوا. لكن العدد أكبر من ذلك ويتجاوز الألفين أو ألفين وخمسمائة شخص. ولم يتم الكلام عن المغتصبات حفاظاً على سمعة عائلاتهن.

أمير داعش الأول

بعد هذه المجزرة ظهر أبو صياح فرامة بشكل علني على أنه أمير داعش الأول في المنطقة. رفع الرايات السود وجند الناس وبدأ بالاغتيالات. كانت تصل إليه سلل غذائية من منطقة اسمها الخيالة مقابل تسليمه بعض الأشخاص. بدأ يكبر ويتغلغل في المنطقة من يلدا وصولاً إلى الحجر الأسود. عناصره صاروا يتجاوزون 3000 وبدأ بقتل الناس. يقول البعض إن لقبه فرامة لأنه "فرم"[28] الكثيرين، لكن الحقيقة أنه كان يمتلك سابقاً ماكينة لفرم البلاستيك والخردة التي كان يشتريها من الناس. كان معتقلاً عند النظام عام 2011. وفي 2012 ظهر، بعد أن تم الإفراج عنه، وبدأ في إنشاء فصيله. دخلت داعش إلى الحجر الأسود وكبرت هناك، ثم بدأت تهاجم مخيم اليرموك وتغتال شبابه. قتلوا حتى المدنيين، فخخوا البيوت وفجروها. تم اعتقالي عندهم لمدة أربعة عشر يوماً. أخذني أبو جعفر أخ أبو صياح واليد الضاربة له، صورني وأوهمني أنه سيعدمني. كانت غايته أن يحصل على معلومات عن بعض الاشخاص وأماكن إقاماتهم واختبائهم وكيفية إيجادهم. بعدها خرجت بصفقة تبادل لأسرى من عناصر في الجيش الحر ومدنيين مثلي، إذ كنت مدنياً في هذا الوقت، كانوا معتقلين لدى داعش، مقابل أسرى لداعش عند الجيش الحر.

اعتقلت داعش كل من رفع صوته في وجهها، كل من رفض الانتماء إليها واستهجن ممارساتها.

[28] - قتل.

اعتقلوهم أو قتلوهم مباشرة. أعدمت داعش كثيراً من شباب مخيم اليرموك حصراً. كان هناك إصرار من قبلهم على تشويه المخيم وتدميره بأي طريقة، وكأن الأمر ممنهج ومتفق عليه سلفاً. منذ البداية شككت بأن أبو صياح فرامه عميل للنظام بشكل مباشر. ولدي أدلة تؤكد أن كل ما فعله هو تحت رعاية بشار الأسد.

التهجير من ببيلا

بعد الاعتقال وتبادل الأسرى لم أعد أستطيع البقاء في المخيم فاضطررت للالتجاء إلى ببيلا المتاخمة. كانت محاصرة من داعش والنظام والميليشيات الشيعية التي شكلت طوقاً على منطقة لا تتجاوز الثلاثة كيلومترات مربعة تضم ببيلا ويلدا وبلدة بيت سحم الصغيرة. بقيت هناك من 2015. في البداية أقمت كمدني، ولكن بعد فترة اضطررت للمرابطة على الجبهات لغاية 2018. ثم بدأ الكلام في المنطقة عن تسويات وعن تهجير، وبدأ العملاء يروجون للتسوية حتى أيار 2018، عندما دخلت القوات الروسية التي كانت قوات فصل بيننا وبين النظام وبدأت بإدخال الباصات لإخراجنا إلى الشمال.

كان التهجير هو الرأي الصائب لي ولأمثالي. خيار بقائي في مناطق الأسد كان إما غباءً مطلقاً أو أنني كنت عميلاً له. لم أقدر أن أحتمل، بعد كل ما رأيت وعشت من قتل وإجرام، أن أبقى وأوافق على تسوية معه. اخترت الاتجاه الصحيح. لحظة خروجي كانت صعبة جداً. أحسست بألم كبير وكأني أخسر شيئاً من قلبي. عندما تركت بيتي لأول مرة انتقلت إلى منطقة مجاورة لا تبعد كيلومتراً واحداً. كان بمقدوري الصعود إلى سطح أي مبنى ورؤية بيتي. لكن هذا التهجير أصعب.

خرجت وأسرتي وإخوتي وزوجاتهم وأطفالهم. زوجتي كان حاملاً في الشهر التاسع. كانت رحلة شاقة تعرضنا خلالها للإهانات من الأمن وللضرب بالحجارة من قرى الشبيحة على الطريق. حتى وصلنا إلى منطقة الباب حيث معبر أبو الزندين. احتُجزنا خلف المعبر لحين وصول موافقة الجانب التركي على دخولنا المناطق المحررة. في هذا الوقت حانت ولادة زوجتي فأسعفها الهلال الأحمر، تركنا القافلة واتجهنا إلى مستشفى الباب. أنجبت زوجتي توأماً وكان أحدهما بحاجة إلى الأوكسجين والرعاية، وهو ما لم يكن متوافراً في هذا المشفى، فاضطررنا إلى الانتقال إلى مشفى اعزاز، وهي مكان إقامتي حالياً.

الصعوبات منذ أول يوم

بعد أن أخذت الطفل إلى المشفى نمت في الشارع أمامه ليوم كامل رغم أن الجو كان بارداً وممطراً. لم أكن أعرف أحداً في المنطقة ولا مكاناً أذهب إليه. وفي اليوم الثاني طلبوا مني إخراج زوجتي وأطفالي من المستشفى فاضطررت لإخراجهم. جلسنا في الشارع حوالي الست ساعات وبدأت البحث عن سكن. سألت أصحاب المحال التجارية والمارة وسائقي السيارات عن بيت للإيجار. عندما كنت أقول لهم إنني مهجر من دمشق كنت كمن يقول إنني آت من السعودية أو أوروبا. طلبوا أسعاراً كبيرة جداً، مائة دولار أو مائة وخمسين لبيوت لا تستحق عشرة دولارات. اضطررت لاستئجار بيت بمائة دولار، بالكاد توافرت معي أجرة لشهر. كنت أمتلك قطعة سلاح فبعتها ودفعت أجرة شهر آخر.

وخلال الشهرين أنفقنا ما تبقى فاضطررت للالتجاء إلى المخيم وسكنّا فيه حتى اليوم. المخيم بحد ذاته معاناة لا تنتهي، شتاءً من البرد والطين والأمراض، وصيفاً من الحرارة والحشرات السامة التي قد تسبب الموت.

حالياً لا أعمل بشيء محدد بسبب انتشار وباء كورونا ولقلة فرص العمل في المنطقة. ليس هناك أي نوع من الاستقرار الذي يسمح بإقامة أي مشروع. عملت طوعياً مع جهة إغاثية لسبعة أو ثمانية أشهر، ومع جهة ثانية في توثيق للأرامل والأيتام أيضاً لثمانية أشهر. وكانت أعمالاً تطوعية.

نجد صعوبة كبيرة في التأقلم حتى الآن. بعد أربع سنوات لم نتآلف مع المحيط. قد يكون السبب اختلاف العادات والتقاليد والأطباع عموماً. هنا يختلفون تماماً عن منطقتنا، يتعاملون بشكل مادي، في مناطقنا كنا نخدم بعضنا بشكل ودي، هنا إذا أردت سؤال شخص عن مكان فأول ما يفكر فيه هو طريقة استغلالك ليربح منك. هذا الاختلاف بيننا وبينهم هو السبب الأكبر لعدم تآلفنا معهم.

اعتقلت في عام 2020 لخمسة وعشرين يوماً من قبل جهة أمنية محلية هي الشرطة العسكرية. حققوا معي في أشياء سابقة وقديمة، ولم أعرف ما سبب اعتقالي حتى بعدما أفرجوا عني.

فوجئت بأن الناس هنا لا يملكون أدنى فكرة عن الوجود الفلسطيني في سوريا. سألني البعض: هل أنت مهاجر من فلسطين؟ قلت إنني لست مهاجراً، جدي مقيم في سوريا منذ 1948، ولدت هنا، أمي سورية وزوجتي أيضاً. كثيراً ما تعرضنا لمواقف كهذه. حتى أوراقنا الثبوتية في المراكز الحكومية التابعة للمناطق المحررة تعاني من إشكالات. مثلاً يستغرق استصدار هوية شخصية سورية بضع دقائق بينما عانيت لأربعة أشهر حتى حصلت عليها. هذه المناطق مغيبة تماماً عن القضية الفلسطينية والوجود الفلسطيني في سوريا.

كفلسطيني أطالب الأونروا أن تلتفت إلينا. كل المؤسسات المفترض أنها مسؤولة عن الفلسطينيين في الشمال السوري تخلت عنا تماماً منذ أربع أو خمس سنوات، أي منذ التهجير.

غايتنا، مثل غاية أي مهجر، هي في سكن وملاذ آمن، أو بلد آمن لنا ولأسرنا. تأمين فرص عمل أولوية قصوى في الوقت نفسه. غايتنا ليست مادية فقط، سلة أو كرتونة غذائية. أصبح عندنا زيجات وولادات جديدة غير موثقة، هؤلاء لا يمتلكون أي ثبوتيات في الأونروا لوجودهم في الشمال السوري. اليوم نطالب كل الجهات الفلسطينية والمعنيين والمؤسسات المسؤولة عن الشأن الفلسطيني أن تنظر إلينا، نحن الفلسطينيين في الشمال السوري المغيبين عن جميع حقوقنا الإنسانية. ما نبحث عنه اليوم هو الأمان لأولادنا كي لا يعيشوا ما عشناه. اختبرنا الكثير من الألم ولا نريد هذا لأطفالنا. أريد مكاناً أو بلداً آخر لي ولأولادي لنعيش فيه بسلام.

عندي أمل كبير بالعودة إلى دمشق. آمل أن يكون قريب التحقق إن شاء الله، فهو متعلق بشخص واحد هو المجرم بشار الأسد ولن يبقى لمئات السنين. إذا لم أعد فسيعود أبنائي إلى مكان ولادة أبيهم ونشأته، مع تحقق شرطنا بسقوط النظام بكل مكوناته ومؤسساته العسكرية. كان هذا مطلبنا وسيبقى لنعود.

عندي أمل أيضاً بيوم عودة إلى فلسطين. هناك كلمة متداولة بين العائلات الفلسطينية من الجد إلى الأب إلى الابن حتى اليوم. كنا نسمع من جدي: يا جدي بس نرجع بتشوف، بس نرجع رح نعمل كذا وكذا... أبي صار يحكي لنا القصص ذاتها وبالطريقة نفسها: بس نرجع على بلادنا رح نعمّر ونفعل ونساوي...

أتى جيلنا وسنحكي لأولادنا الذين سيحكون لأولادهم. قضيتنا ليست قضية بيت أو شارع، هي قضية وطن سيبقى راسخاً في ذاكرتنا حتى الموت، وسنبقى جيلاً بعد جيل نذكر أنه: بس نرجع على فلسطين سنعمّر ونعمل...

أمل دائم في قلوبنا... سنرجع.

على الأقل كنا أحضرنا ثيابنا

حتى لو كنا نعيش هنا من زمن طويل سنظل نعتبر غرباء

اسمي نضال غزال. أصلي من فلسطين، حيفا، قرية عين غزال. في سوريا كنا نعيش في مدينة تل رفعت بريف حلب، قبل أن ننزح إلى مخيم بجانب قرية سجّو القريبة من معبر باب السلامة الحدودي مع تركيا. عمري أربع وخمسون سنة. درست حتى الصف السادس الابتدائي. كنت أعمل في التريكو عندما كنا في تل رفعت.

ذاكرة فلسطينية

ما سمعته من أهلي عن قريتنا في فلسطين أنها بلدة زراعية؛ فيها بساتين وكروم وبيارات برتقال. كانوا يزرعون فيها القمح والشعير. في الربيع كانوا يقطفون من البرية الخبّيزة والعكّوب والسلق البري للطبخ. تقع قريتنا على سفح جبلي يطل على البحر؛ كانوا يذهبون ليصطادوا الأسماك. في قريتنا عين ماء تأتي الغزلان لتشرب منه؛ لهذا أطلقوا عليها اسم عين غزال. فيها أيضاً مقام أو مزار الشيخ شحادة.

عندما كان والدي في فلسطين عمل بأرزاقهم. كانت لديهم أبقار وكانت مورداً لهم. بعدها اشتغل عاملاً في منجم فحم مع الإنجليز وعاش معهم. في البداية لم يخطر لهم أبداً أن هؤلاء الإنجليز كانوا يخططون لشيء ما ويبيّتون لهم نوايا عدوانية. كانوا يشاهدون اليهود يتدربون ويجرون أمامهم، وعندما سألوا عما يفعلونه قالوا إنهم يلعبون الرياضة. بعدها هجم اليهود عليهم بأسلحتهم يريدون تهجيرهم من قراهم ومن بيوتهم. وصار الطيران الأميركي[29] يقصفهم. لم يدروا إلا وطائرة أميركية ترمي عليهم قذيفة هدمت الحارة. تعاون الناس فباعوا ذهب نسائهم واشتروا مدفعاً صغيراً يقال له "برنجل"، ومن كان قادراً اشترى بندقية. ظلوا يقاومون حتى خروجهم من القرية. ظنوا وقتها أنهم سيعودون بمجرد انتهاء العساكر من تفتيش القرية. ولكن ما حدث كان غير هذا تماماً. بعد إخراجهم قالوا لهم إنهم ينوون تهجيرهم. تجمع الناس في بعض المناطق في البداية وبعدها تفرقوا؛ منهم من أتى إلى سوريا ومنهم من ذهب إلى العراق وهكذا، كل مجموعة في بلد. أتى أبي إلى سوريا. ومنذ مجيئه استوطن في تل رفعت. ليس هو فقط، بل الكثير من العائلات. لكن بعد إقامة المخيمات ذهبت أكثرية الناس لتعيش فيها. أبي لم يوافق على الخروج. بقينا نحن وثلاث عائلات فلسطينية حتى تهجّرنا هذه الهجرة الأخيرة من تل رفعت بعد أن عشنا فيها ثلاثة وسبعين عاماً.

[29] - لا علاقة للطيران الأميركي بالمعركة.

في تل رفعت بريف حلب

في البداية استقبلنا أهل المنطقة في بيوتهم وأعطونا غرفاً عندهم وعشنا معهم. بعدها، عندما اتضح أن الأزمة ستطول بعد تسليم فلسطين لليهود، يئس المهجّرون وقطعوا الأمل. فمن كان قادراً منهم استأجر بيتاً، واتخذوا أعمالاً يشتغلون بها ليعيلوا أنفسهم وعائلاتهم. عمل أبي رحمه الله لحساب شخص وصار لأبي عنده مستحقات فأعطاه الأرض التي بنى عليها بيتنا. كان كل سنة يبني قليلاً حسب قدرته إلى أن صار بيتاً كبيوت الناس. وبقينا نعيش فيه حتى خروجنا من المنطقة.

كان أبي متزوجاً قبل أمي. إخوتي من أبي لم يسكنوا معنا. لم يحتملوا فكرة وجود زوجة أب في البيت. أخوهم الكبير كان متزوجاً فأخذهم ليعيشوا عنده. أما نحن فكنا ستة شباب وابنتين. أحد الشباب درس الأدب العربي في الجامعة. الكبير لم يستطع أن يكمل دراسته مع أنه كان ذكياً. أهمل دراسته وصار يعمل بمهنة أبي، البناء.

أخي الأصغر أيضاً صار يعمل معماراً كأبي. أغلبيتهم عملوا معه في الصيف لضيق اليد، بهذا وفر أجرة العمال. كبر إخوتي وصار لزاماً عليهم الالتحاق بالخدمة العسكرية. الثلاثة الكبار التحقوا في الوقت نفسه تقريباً. كانوا يحتاجون إلى مصروف وكنا نعيش في ضيق مادي. في هذا الوقت كنت في الصف السادس الابتدائي ولم أستطع أن أكمل دراستي لعدم قدرة أبي على شراء المستلزمات من كتب ودفاتر وبدلة "فتوّة". تركت المدرسة مع أنني درست شهراً في الصف السابع بعد أن افتتحوا إعدادية تلك السنة. قالت أمي قالت إنها ستأخذني إلى معلّمة صوف (تريكو) وفعلاً صرت أذهب إليها إلى أن تعلمت المهنة. لم نكن نمتلك شيئاً. لا أراضي زراعية عندنا ولا أحد يعمل. أخوتي الكبار في الجيش ومنهم من يريد أن يتزوج وهكذا. باعت أمي قطعة ذهب كانت عندها واشترينا الماكينة. تعبت أمي كثيراً. عملت في البداية في الأراضي الزراعية وبعدها صارت تساعدني في التريكو، كانت تلفّ الصوف وتشمّعه ثم نقوم بخياطته. يمرّ شغل الصوف بثلاث مراحل. تعبت أمي كثيراً وهي تساعدني. كنا نساعد إخوتي العساكر في مصروفهم كلما نستطيع.

عندما بنى أبي البيت لم يكن يمتلك شيئاً. بنى في البداية غرفتين وصبّ السقف. عشنا فيهما لفترة طويلة؛ وحوت إحداهما حماماً ومطبخاً كنا نخبز فيه على التنور. نسكن في الغرفة نفسها ونستخدمها لثلاثة أغراض. حتى استطعنا بناء منافع وصار عندنا حمّام ومطبخ قبل عشرة أعوام تقريباً من مغادرتنا البيت.

بيوت حارتنا متراصة، الحائط بجانب الحائط. حتى أسطح البيوت متلاصقة. كنا نستطيع الذهاب من أول الشارع إلى آخره على الأسطح. بجانبنا أرض زراعية. وبعدها صار قربنا معمل سجاد عملت الفتيات فيه. لم أذهب إليه ولكن الكثير من الفتيات اشتغلن هناك. بعدها صار عندنا فرن آلي. تطورت تل رفعت كثيراً وتوفر كل شيء في حارتنا.

الحياة في تل رفعت بسيطة وهادئة. عندما كان إخوتي في المدرسة كان أبي يستيقظ في السابعة. يشعل "الصوبيا". يشرب الشاي ويدخن الكثير من السجائر. كنا نستيقظ بعده ونحضّر الفطور والشاي ونفطر. يذهب الأولاد إلى المدرسة ويعودون ظهراً. في ذلك الوقت تكون أمي قد جهزت الغداء. كانت تطبخ الأكل الفلسطيني؛ شيش برك، سمبوسك، مناقيش. في الربيع كنا نأكل الخبيزة التي نحبها كثيراً. الملوخية أيضاً من أكلاتنا المفضلة ونحن من أدخلناها إلى تل رفعت وعرّفنا أهل المدينة عليها. أحد رجال العائلات الفلسطينية الثلاث التي استوطنت تل رفعت كان بستانياً فاستأجر قطعة

أرض وصار يزرعها. أخذنا عنده "مسكبة". كنا نذهب لنحضر منها الملوخية التي زرعناها ونعود لتيبيسها والاحتفاظ بها للشتاء. سألنا أهل تل رفعت عنها، اعتقدوا أنها نعناع. قلت لهم إنها ملوخية. لم يكونوا يعرفونها لكنهم بعد أن جربوها صاروا يأكلونها أكثر منا. كنا "نموّن" ثلاثين أو أربعين كيلو وهم ما شاء الله يحتفظون بأكثر من مئتي كيلو. والله الملوخية أكلة شهية جداً.

أهالي تل رفعت يعتمدون على الزراعة. كانوا يزرعون القمح والشعير والعدس والبقوليات، وزرعوا الزيتون أيضاً. عندما يحصدون القمح قبل استوائه يصنعون منه الفريكة، وهي مادة أساسية عندهم يخزّنون منها كميات كبيرة ليطبخوها في المناسبات ويدعوا أهل المنطقة. قد يصل عدد الضيوف إلى الأربعمائة أو الخمسمائة أو أكثر.

كانوا ينتظرون الموسم الزراعي ليستطيعوا تزويج أولادهم. هذه حياة الجميع في منطقتنا لا عندنا فقط. في الصيف كنا نذهب معهم إلى أرضهم لننظف ونحصد. وفي الشتاء أعمل على ماكينة التريكو. تعبت أختي كثيراً من العمل في البرية لجمع البطاطا والبصل وغيرها. ليست عندنا أرض ولهذا عملنا مع أهل البلد.

المصدر الوحيد الثابت كان الإعاشة التي تعطينا إياها الوكالة وكنا نسميها الإغاثة. استمر توزيع الإغاثة علينا حتى سنة الثمانين، وكانت تأتي بكميات كافية. مع بداية حرب لبنان انقطعت لفترة ولم يعودوا يعطونها إلا للحالات شديدة الصعوبة، لمن لا معيل لديهم. بقينا مدة لا نأخذها بما أن إخوتي كلهم صاروا شباباً. ولكن بعد زواجهم واستقلالهم عن البيت عادوا لإعطائنا إياها. صرنا أنا وأمي وأختي ضمن الحالات الصعبة. كانت تحوي الطحين والرز والسكر والسمن والفول والعدس، وبعض الملابس أحياناً، وزيت الكاز، وكثيراً من الأشياء.

شعارات على الجدران

في بداية الأحداث أخذ بعض الناس يكتبون على جدران تل رفعت شعارات لإسقاط النظام. ناس تكتب ويأتي غيرهم ليمسح الكتابات، يعني مؤيدين ومعارضين. بعدها صار الكل يخرج في مظاهرات. مؤيدون يخرجون ليتظاهروا ومعارضون يخرجون ليتظاهروا. في إحدى المرات كنت أقف في الحارة يوم كانت انتخابات مجلس الشعب[30] لأفاجأ بمعارضين هجموا على مركز اقتراع ويأخذون الصناديق. في هجومهم كانوا سيأخذوننا في طريقهم. صاروا فوقنا وصرنا بينهم ولم أعرف كيف نفدت.

في بداية المظاهرات كان يأتي الأمن ليفرّقهم فكانوا يضربونه بأحجار سوداء يأتون بها من جانب سكة القطار. حدثت اشتباكات وضرب متبادل. "الطرفين ما قصّروا ببعض". تطورت الأمور وصاروا يحملون الأسلحة ويضربون بها. أنا لم أر شيئاً لأن المعارك كانت على أطراف البلد ولم تحدث داخلها. حاصر المعارضون مطار منّغ؛ ولتخفف الدولة الضغط عنه ضربت على البلد. ضربنا الطيران أحياناً. في كل مكان فيه مقرات للمعارضة كانت الطائرة تضرب. أغلب مقراتهم كانت بين البيوت وفي الحارات. حدث قصف للطيران حولنا وتهدمت عدة بيوت لكن بيتنا لم يتضرر نهائياً رغم أن الكثير من الخراب حدث في تلك الفترة. كان الجيش يأتي في بعض الأحيان ليفتش البلد. بعض الحارات لم يفتشوها أبداً ولم يمروا عليها حتى مروراً. بيوت بقيت على حالها بينما تعرضت بيوت أخرى للتخريب بشكل فظيع، كسروا الأثاث والأدوات الكهربائية، وبيوت تم إحراقها. قال البعض إن الجيش أحرق

[30] - في 7 أيار 2102.

البيوت، وقال غيرهم إن من قام بالحرق هم الحاقدون على المؤيدين، ولم يعرف أحد ما الذي حدث. احترقت بيوت اثنين من إخوتي ضمن البيوت التي أحرقت، ولكن لا أحد يعرف الحقيقة. في إحدى المرات التي قصفنا فيها الطيران ضربت الطائرة قرب بيت أخي. كان يقف أمام باب بيته ومعه ابنته الصغيرة. أصيب بشظية دخلت كتفه وخرجت من الجهة الأخرى، ووجده الجيران مصاباً وقد أغمي عليه، وابنته التي كان عمرها ثلاث سنوات في صدرها الكثير من الجروح.

أسعفهم شباب الجيش الحر إلى النقطة الطبية، "يعني الجماعة ما قصّروا". لكن قلوبنا لم تطمئن عند رؤيتنا له ينزف وقلنا له أن يخرج من البلد فسافر إلى تركيا. ابنة أخي قتلت هي وزوجها وأخوة زوجها بقصف الطيران. تهدم بيتهم وكل حيهم. عندها طفل صغير عمره بضعة أشهر كان نائماً في سريره. من شدة الضربة وقعت عليه الخزانة وهو في السرير. بقي حياً رغم أن رأسه أصيب بأذى. أرسلوه أيضاً إلى تركيا للعلاج. بقي حوالي الشهر لوحده وهو رضيع عمره أشهر.

عندما كنا نعرف أن هجوماً كبيراً سيحدث نخرج ونذهب إلى إخوتي ونبقى عندهم ليومين. في إحدى المرات بقينا أكثر من اثني عشر يوماً عند أخي. كان قد ترك تل رفعت واستأجر في مخيم حندرات واستقر هناك. بعدها عدنا أنا وأمي وأختي إلى بيتنا ولم نغادره رغم حصول معارك. كان الطيران يأتي ويقصف، وداعش ضربتنا بصواريخها. تأذينا كثيراً من الدواعش الذين أقاموا في قريتنا لفترة وقام الجيش الحر بقتالهم. حدثت معركة كبيرة وطردهم الجيش الحر. لكن الدواعش كانوا قد أمسكوا ببعض شباب الجيش الحر وحبسوهم في مطحنة كبيرة. وبعد خروج داعش ذهب الجيش الحر إلى المطحنة ليجدوا رفاقهم مقتولين. لم أشاهد بشكل مباشر وإنما سمعتهم يقولون إنهم كانوا حوالي عشرين شاباً تم قطع رؤوسهم ودفنهم.

بعد عودتنا من حندرات عشنا في قلق دائم. كنا نخاف عند مجيء الطائرة لتقصف. بعد ذهابها كانت الأمور تعود إلى طبيعتها وكأن شيئاً لم يكن، الأطباء والمطاعم والكل يعود إلى عمله وحياته. لم أكن أخاف من الطيران ولم أشعر بالرعب إلا عندما صاروا يرمون البراميل. تأذينا كثيراً في ذلك اليوم. خوف رهيب عشناه. الطائرة الحربية أرحم من البراميل. البرميل مرعب. عندما يسقط على حارة يهدمها بأكملها. ابتدأت مرحلة البراميل قبل خروجنا بمدة ليست طويلة. أقل من سنة تقريباً.

إلى الخيام!

بعدها صاروا يقولون لنا أن نغادر المنطقة لأن الجيش سيدخلها ويجب أن لا يبقى أحد من الأهالي فيها، فغادرنا مرة أخرى. ذهبنا في البداية إلى مخيم الحرمين. اسم المنطقة باريشا ولكنهم أسموه الحرمين لأن داعمه سعودي. هكذا سمعت.

بقينا هناك ثلاثة أيام دون خيمة. كنا في الشتاء وكانت أيام "مربعينية وسعد دبح" في شباط. كان البرد شديداً جداً وصقيعياً والمطر غزيراً. تجمدنا ورغم ذلك لم يعطونا خيمة واحدة. كان الناس فوق بعضهم. الكل نزح وليس أهالي تل رفعت فقط، من القرى التي حولنا نزحوا. كنا نحتاج إلى خيمة ولم نجد. كنا قد أجرينا عملية جراحية لأمي في رجلها فلم تقدر على المشي وكانت تتحرك على كرسي.

رأف بحالنا أحد الرجال، وكان يسكن في محاضر بنتها منظمة، فأخذنا إلى بيته المكوّن من غرفة واحدة ومنافع. بقينا عنده ليومين أنا وأمي، وأتت أختي وابنة أخي معنا. كنا ننام فوق بعضنا.

الغرفة صغيرة لا تبلغ مساحتها نصف مساحة خيمة. يعني الرجل جزاه الله خيراً استقبلنا ولكن كم من الوقت سيتحمّلنا وهو غريب؟ لم أعد أستطيع البقاء. توترت كثيراً. بعدها أعطونا خيمة فانتقلنا إليها. كانت المياه تمشي تحتنا فلم نستطع النوم أو الجلوس. وكانت مياه الشرب ملوثة فأصيب الأطفال بالإقياء والإسهال.

قالت زوجة أخي: "امشي نرجع أنا ما بضل هون". وجدنا سيارة فركبناها وعدنا نحن وزوجتَي اثنين من إخوتي، واحدة منهما تسكن معنا والأخرى لوحدها. التي تسكن معنا نزلت هي وأولادها عند أختها وأكملنا نحن إلى تل رفعت. زوجة أخي الثانية ذهبت إلى بيتها ونحن إلى بيتنا. أمضينا النهار بطوله في البيت ولكن لم ننم ليلة واحدة فيه. نظفنا وأكلنا وسهرنا حتى الثانية عشر ليلاً وشغّلنا الكهرباء على المولدات. كنت أشاهد التلفزيون فوجدتهم كتبوا أن الجيش يصل إلى كفتين، وهي تبعد ستة كيلومترات عن تل رفعت. قلت لخالد أخي: "معناتا الجيش جاي قصده تل رفعت". قال: "ما عاد تقدري تضلي إذا بده يفوت الجيش وإنتي مدنية لحالك بين جيش وما في أمان وطيران". أتى جارنا وقال: "اطلعوا ما حدا ضل". أردنا الخروج ولكنا لم نجد سيارة لتأخذنا. مع جارنا سيارة كيا زراعية. طلبنا منه أن يأخذنا معه فوافق ولكن دون أي أثاث فسيارته ممتلئة بأغراضهم. وفعلاً ركبنا معه وأوصلنا إلى بيت أخت زوجة أخي وكانت تعيش في قرية اسمها كفر كلبين. كنا أكثر من خمسة وثلاثين أو أربعين شخصاً في بيت مكوّن من غرفتين وصالة صغيرة ومنافع. الأطفال أكثر من الكبار. بقينا حوالي الخمسة عشر يوماً. ولكن كم يمكن لنا أن نحتمل؟ أمي عاجزة تحتاج حماماً متنقلاً. كنت أحس طول الوقت بالإحراج. لا أعرف. شيء صعب.

في أحد الأيام، وبينما كانوا يطبخون للعشاء، أتى الخبر بأن الأكراد[31] دخلوا تل رفعت. صعقنا مما سمعنا. كنا نتوقع أن الجيش النظامي من سيأخذ تل رفعت، ولم يخطر ببال أحدنا نهائياً أن يدخلها الأكراد ولا أن يهجموا عليها. كيف دخلوها لم نعرف! صرت أفكر أين سنذهب؟ هل سنبقى عند هذه المرأة؟ كم من الوقت سنبقى؟ موضوع تل رفعت انتهى وتم حسمه تقريباً. لا نستطيع أن نبقى ضيوفاً في بيوت الناس. هل نعود إلى الحرمين؟ ولكن لا خيام هناك والجو بارد جداً وصقيعي. أين سنسكن؟ وإذا بهم يقولون إن الأكراد قد وصلوا إلى عين دقنة القريبة من كفر كلبين. جاء الشباب ومعهم سيارات وقالوا: "بتطلعو ما بتضلو هون". سيارات كثيرة أتوا بها وأخذونا إلى مخيم باب السلامة. كنا خمساً وثلاثين امرأة وأربعة أو خمسة رجال. وضعونا عند عروس منذ أربعة أشهر في خيمة تبلغ مساحتها نصف مساحة خيمتنا الحالية. لم نستطع أن ننام أو نتمدد أبداً. وكانت العروس منزعجة، فكيف ستحتمل وجود كل هؤلاء الغرباء؟

قلت لابنة أخي، وكانت تدرس في معهد عندنا في تل رفعت: "روحي شوفي عمك خلّي يدبرنا شلون ما كان. أنا هون ما بضل". عادت بعد قليل لتقول إنهم أحضروا لنا خيمة وهم يقومون بتركيبها، وإن شاء الله سنذهب إليها. هي خيمتنا نفسها الآن ولكن وقتها كانت في مخيم باب السلامة. فعلاً بعد أن أنهوا تركيب الخيمة انتقل كل من كان معنا إليها. أكثر من خمسة وثلاثين شخصاً ننام في الخيمة فوق بعضنا. بقينا حوالي أسبوع على هذه الحالة. بعدها المجموعة التي كانت معنا قالوا إن المشاكل في قريتهم قد انتهت فعادوا إلى بيوتهم. بقينا نحن وبيت أخي فقط. أهل زوجة أخي كانوا في هذا المخيم فأرادت أن ننتقل إليه لتكون بين عائلتها وأهل قريتها. المكان جيد وليس فيه ازدحام، ولهذا أتينا إليه.

---

[31] - المقصود «قوات سوريا الديمقراطية» التي تشكّل «وحدات حماية الشعب» الكردية قوتها المركزية.

يوميات المخيم

في البداية كان المخيم في تلك الأرض المنخفضة المجاورة. وبعدها طلبوا منا الخروج لأن صاحب الأرض يريد البناء فيها فخرجنا. نسكن الآن هنا وننتظر الفرج من رب العالمين. قالوا إنهم استأجروا هذه الأرض لخمس سنوات لكن صاحبها يريدها هو الآخر. معنا مهلة حتى الشهر الثالث وسيخرجوننا منها ولا أعرف إلى أين سنذهب.

في بداية انتقالنا من باب السلامة إلى هنا نصبنا الخيمة وسكنّاها. أحضروا (تواليتات) حمّامات مسبقة الصنع لكل الناس. حفروا جوراً فنية بدلاً من المجارير وكلها هكذا واضحة على العلن، عدا الأمطار والطين والوحل. تعذبنا كثيراً في السنة الأولى. كانت الماء تمشي تحتنا. كنا ننتظر طلوع الشمس لنُخرج أغراضنا حتى تجف ونعيدها إلى الخيمة. عانينا من هذا كل شتاء. في بداية نزوحنا فكرنا أنها مسألة مؤقتة. اعتقدنا أن هذا الوضع سيطول عدة أيام نحتملها و"نمشّي حالنا". أنا شخصياً لم أكن أريد صرف ليرة هنا؛ لن أشتري الإسمنت أو أي شيء آخر لتحسين الوضع. سنعود وعندها أدفع في بيتي. لا أريد أن أصرف على "شغلة فاضية". لم يقم أحد بأي إصلاح أو تحسين. كانوا ينصبون الخيمة ويركمون التراب حولها ويشدون الحبال. كنا نمد النايلون العازل فوق التراب ونضع فوقه الحصر. بعد فترة أعطونا عوازل سوداء وكانت فعلاً تعزل المياه ولكن عند سيلان المياه تحتنا كانت تصبح رطبة وعفنة في الشتاء. والخيمة حارة جداً في الصيف، كأنها نار جهنم. كنت لا أستطيع الوقوف، صرت أتمنى الموت، أريد أن أموت. كانت أختي وقت وصولها إلى الخيمة تبدأ بالصياح: "جيت على القبر". صارت الخيمة في منطقة منخفضة جداً. وكان الشارع بجانبنا، عدا الغبار وعدا القذارة وعدا... غير صالحة للسكن أبداً.

بعدها توسعنا قليلاً، أخذنا قطعة صغيرة قطّعناها واستخدمناها لأغراض الطبخ والغسيل والحمّام. يعني ارتحنا بعض الشيء. بعدها بفترة قال صاحب الأرض تحت إنه يريد أرضه ليبني عليها فعدنا للعذاب. صعدنا مرة أخرى إلى جانب الجامع. عندها اشتريت خيمة تانية بحوالي مائة دولار حسب الأسعار وقتها، وكانت مستعملة لثلاثة أرباع عمرها، استخدمناها للمطبخ ولأغراض المطبخ. اقتطعنا قطعة أرض صغيرة عملنا منها حمّاماً و"زرّقنا" أرضها، كنا مضطرين. نوعاً ما أصبح الوضع أفضل من أن يكون الحمام داخل البيت. يعني حسّنّا بعض الأشياء سنة بعد سنة. بعد فترة أحضرت منظمةٌ لنا عوازل ووضعوها أعلى الخيمة لتخفيف الحرارة. فعلاً خفت الحرارة والبرد صار أخف قليلاً. أيضاً وضعنا العوازل على الأرضية. أنا لم "أزرّق" أرضي ولكن أغلب السكان فعلوا ووضعوا أبواباً نظامية. الآن نحن مرتاحون الحمد لله بما أن الطين خف والبرد أيضاً. لكن مهما كان يبقى ليس مثل بيت حقيقي بسقف وأبواب.

تعبت والدتي كثيراً وتعبنا معها. كانت مقعدة على الكرسي. لم نكن نستطيع إخراجها عندما تمطر وتصبح الأرض طيناً فكانت تبقى في الخيمة لمدة طويلة قد تصل إلى شهر أو شهرين، فتنزعج كثيراً. عندما كنا في الأسفل لم أكن أستطيع إخراجها طيلة الشتاء، فتتوتر كثيراً وتطلب أن نخرجها. كانت تصرخ وتتشاجر معنا دائماً ولا تنام الليل. أمضينا أوقاتاً صعبة معها. كانت تمرض أيضاً. عندما كنا تحت انخفض معها السكّر وأخذناها إلى المشفى. طلبنا سيارة إسعاف ولكنهم لم يرسلوها لأنه لا صلاحية لديهم. اتصلت بطبيب أعرفه فأرسل لنا سيارة إسعاف وأخذناها إلى المشفى. رفع هذا الطبيب تقريراً بأنهم رفضوا إرسال سيارة الإسعاف لمريضة حالتها خطيرة وكان يمكن أن تموت. يومها توتر جماعة المشفى وانزعجوا كثيراً وعرفوا أننا سبب الشكوى. كانت مريضة جداً وسكرها

منخفض لدرجة أنني ظننتها ستموت. أخيراً أعطوها العلاج وتحسنت وارتاحت. عانت كثيراً وكانت مشاكلها كثيرة. كانت قد كبرت وأصبح عمرها ستة وثمانين عاماً ومصابة بألزهايمر. أتعبتنا كثيراً. أكثر معاناتها كانت أنها تريد بيتها وأولادها. أحياناً كانت تنزل عن الكرسي وتمضي مسرعة تريد الرجوع إلى بيتها وكنت أعيدها بصعوبة. وفي الفترة الأخيرة من حياتها صرنا نلبسها الحفاضات. قسم يعطوننا إياه من المنظمة وقسم نشتريه أو نقوم بتأمينه من ناس نعرفهم وحسب تيسير رب العالمين.

لم يكن في المخيم إلا دكان سمانة واحد. سجو بعيدة بالنسبة إلينا. من الصعب الوصول إلى هناك سيراً على الأقدام، وخصوصاً في الشتاء. الآن، وبعد تحسين الطرقات، صارت الأمور أسهل قليلاً. قبل ذلك كان الوصول إلى السوق صعباً جداً بسبب الطين والمسافة. لم تكن عندنا برادات. وفي هذه الحالة كنا نرسل أحداً معه دراجة آلية أو سيارة ليأتي باحتياجاتنا. اللحمة مثلاً موجودة في السوق داخل سجو، إذا اشتهينا أو أتانا ضيف أو لأي أمر طارئ كنا نحتاج أحداً يأتي بها، وكل الاحتياجات أيضاً. إذا احتجنا إلى الدواء أو الذهاب إلى طبيب كنا نستخدم المواصلات. كان من الصعب جداً الذهاب مشياً.

لم أتعامل مع أهل هذه المنطقة أو أحتك بهم، فسكان المخيم كلهم من أهل بلدنا وأعرف الجميع وعلاقتي بهم جيدة وهم ناس جيدون. لهذا لا أريد تغيير المنطقة ولا السكان فأنا مرتاحة معهم بصراحة. في البداية كان أهالي تل رفعت متفقين مع أهالي سجو، لكن الأمور ساءت بعد ذلك. تصادم منهم أشخاص أولاً ثم تطورت الأمور إلى فصائل. حدثت اشتباكات وضرب رصاص راح ضحيته قتلى من الطرفين. لهذا بينهم أحقاد وحساسيات حتى اليوم. لكن في المخيم، وبما أن الجميع يعرفون بعضهم وتجمع بينهم صلات القربى، فالمشاكل قليلة. لا توجد بينهم حساسيات ولا أحد يقاتل أحداً. الكل أصحاب وأحباب.

نعتمد على أنفسنا في المصروف. تصل الإغاثة كل خمسة أو ستة أشهر، لتتوقف ستة أشهر أخرى. نحن الآن في كانون الأول ولم تصل من الشهر السابع وغالباً لن يعطونا شيئاً قبل رأس السنة، يعني خمسة أشهر بلا إغاثة. هذه طريقة عمل كل المنظمات. عند انتهاء عقودهم يتوقفون ليجروا دراسة جديدة تستغرق عدة شهور ليعودوا إلى توزيع الإغاثة. هناك منظمة تتبنى توزيع المياه والخبز، يعني نعمة من الله أن الماء والخبز لا يزالان مؤمّنين لحد الآن. يؤمّنون النظافة أيضاً. سيارة القمامة تأتي يومياً، أحياناً مرتين في اليوم. بقية الخدمات، كالصرف الصحي، جيدة. أصبح عندنا كهرباء وإنارة والحمد لله. واحد من أهل تل رفعت استثمر في الكهرباء وأوصلها للناس. لكن أسعارها مرتفعة جداً ولهذا نقنن كثيراً في استهلاكها. أيضاً أسعار المحروقات، من بنزين ومازوت وغاز، مرتفعة جداً.

فلسطينيون ولكن

أنا أستفيد من الأونروا نظراً لوجود شخص من أقاربي في مناطق النظام ومعه توكيل منا كي يساعدنا في أمورنا، بما أنني لم أكن أستطيع الوصول إلى هناك بسبب إغلاق الطريق. لكن المبالغ التي يرسلونها لا تسد الرمق كما يقولون. آخر مرة أرسلوا لي ولأختي مائة دولار. هذا المبلغ لا يكفينا شهراً ونحن اثنتان فكيف لو كنا عائلة كبيرة من سبعة أشخاص أو أكثر؟ كل عدة شهور، قد تصل إلى الخمسة، يرسلون لنا دفعة. لحد الآن لم يأت من يقول لنا إننا تابعون لمنظمة التحرير أو للسلطة أو لأي أحد. هنا في المخيم يوجد شخص يتبع تنظيماً لا أعرفه، أحياناً يحضر لنا أشياء بسيطة جداً،

كيف يقولونها؟ لا تسد الرمق. صحن أرز مع لحمة لا يكفي شخصاً. حتى عندما كانت أمي على قيد الحياة لم نستفد منهم شيئاً. مع أنها كانت أرملة وعاجزة وكانوا يساعدون الأرامل، لم يأت أحد وقال هذه المساعدة للأرملة. أين حق الأرملة؟ أنا وأختي أيضاً في عداد الأرامل إذ لا معيل لنا ولا دخل. لماذا لا يحسبون حسابنا؟ منذ أكثر من سنة لم نستلم سلة غذائية. حتى عندما كانوا يأتون بالملابس كانت دائماً خاصة بالأطفال.

بنوا هنا قرية أسموها بذور فلسطين، ولكن لم يستفد فلسطيني بشقة منها أو بمحضر أرض. كلنا نعيش في خيام منذ ست سنوات ولم يأت من أعطانا خيمة جديدة. حالياً تأتي خيام جديدة ولكنهم يوزعونها على بعضهم حسب الواسطة أو المحسوبيات. هناك من أخذ أكثر من خيمة وهناك من ما زال منذ سنوات في الخيمة نفسها. نحن في هذه الخيمة منذ أكثر من خمس سنوات، لم يسألنا أحد عن وضعها أو ماذا تحتاج. خيمة المطبخ عندنا قطعة قماش مهترئة ولولا أن منظمة بنتها لنا لما استطعنا بناءها. لا أحد اهتم بنا أو سأل عنا. خيمنا اشتريناها ولم يعطنا إياها أحد، لا المنظمة ولا حماس ولا غير حماس. حتى قرية بذور فلسطين كل من سكنها من غير الفلسطينيين وعندما اعترضنا قام المسؤولون علينا. مع أنني لم أفعل شيئاً إلا مجرد سؤال طرحته: "إحنا مو مستفيدين منها، ليش عم بتفرجونا هي بتحرقو قلبنا وتقهرونا؟".

الأهم في الوقت الحالي هو تأمين السكن لأننا مهددون بالخروج من هنا خلال الشهر الثالث القادم، أنا وأخي وخمس عائلات فلسطينية، ومعنا سوريون من تل رفعت. لكن هناك من يستطيع تدبر أموره. هناك من أوضاعه المادية جيدة فاشترى وبنى بيتاً. لكن نحن لحد الآن لا نعرف إلى أين سنذهب عندما يحين موعد تسليم المخيم. أكثرية أهل تل رفعت منسيون أصلاً بغض النظر عن كوني فلسطينية أو غير فلسطينية. لم يهتم بنا أحد. نحن مهددون بالخروج منذ أكثر من سنتين. كل سنة كانوا يقولون إنها الأخيرة وكنا "نطنّش". هذه السنة عندما أرسلنا الأجرة لصاحب الأرض رفض استلامها. حُسمت المسألة ولم يعد هناك شك بخروجنا. أين سنذهب والله لا نعرف. ولا نملك ما يكفي لشراء أرض والبناء عليها. صار الموضوع يكلف كثيراً.

كان أخي قوياً وبصحة ممتازة. لكن بسبب الوضع الذي نعيشه أصابه ارتفاع في الضغط ونزيف دماغي وجلطة. راتبه خمسمائة ليرة تركية لا تكفي خمسة أيام له ولعائلته. وبقية الشهر من أين يأكلون؟ أهل الخير يساعدونه لشهر، شهرين، وبعد؟ ليس عنده أبناء شباب. عنده صبي في الخامسة عشرة ما زال يدرس والباقي بنات. يحتاج أخي مكاناً للسكن أيضاً، سيخرج من الأرض معنا ونحتاج السكن والإيواء.

تعرّض الفلسطينيون للمضايقات. من لم يشارك منهم في الثورة تم اعتباره شبّيحاً وكانوا يتعاملون معه بجفاء. قالوا لنا إننا شبيحة بما أننا لم نشارك في المظاهرات ولا قمنا مع الثورة ولم نتسلح. لأخي ثلاثة أبناء شباب تم سجنهم. كان الجيش الحر يأخذهم ليحقق معهم ويعيدهم. ولاحقوا أولاد أخي الآخر أيضاً. صاروا يعاملوننا بتمييز وعنصرية لأننا لم نتدخل. لا مصلحة في التدخل فنحن ضيوف. حتى ولو كنا نعيش هنا من زمن طويل سنظل نعتبر غرباء. الحكومة تعتبرنا لاجئين وتعطينا هوية مؤقتة وجواز سفر اسمه وثيقة سفر وليس جوازاً حقيقياً. نحن الفلسطينيين أكثر من تعرّض للاضطهاد. قبل الأزمة السورية كنت أدعو ربي كثيراً أن أعود إلى فلسطين ولو لأشم هواءها، لأقبّل ترابها. لكن الآن، بعد أن رأينا ما رأيناه، نسينا بصراحة. ما عشناه في الأزمة، منذ بدايتها وحتى اليوم وإقامتنا هنا، أثر فينا كثيراً. قتلت أحلامنا وانتهى الأمر. كنا نتمنى أن يأتي يوم يقولون فيه

إن فلسطين تحررت ونعود، لكن الآن ليس عندي أمل بعودتنا حتى إلى تل رفعت. الثقة بقدرة رب العالمين موجودة دائماً، لكن في الوقت الحالي لا أعتقد أن هناك أملاً ولا واحد في المائة. لا أتوقع أن يخرج الأكراد من تل رفعت طالما مشكلة عفرين قائمة. طالما سلّموا عفرين للجيش الحر وتل رفعت للأكراد فالأمور واضحة. هذا مخطط مدروس. أخذوا مناطقنا ورموا بنا في المناطق الشمالية، خطة مبرمجة، هذا رأيي.

لا يسمح لنا الأكراد بدخول البلد. ومن يريد الذهاب لتفقّد بيته يجب أن يذهب إلى المخفر أو الضابطة الخاصة بهم أولاً ليحصل على موافقة تسمح له بالدخول. زوجة أخي ذهبت لتتفقّد بيتها فوجدت أنهم كسروا الشبابيك والأبواب وأحرقوها ليتدفؤوا عليها. أخي الثاني يسكن في تل رفعت ولكنه غير قادر على العودة إلى بيته في المنطقة الشرقية بعد أن جمعوا كل السكان في منطقة واحدة هي الغربية بحجة تأمين الخدمات من ماء وكهرباء وإغاثات إذا أتت.

لو كنت أعلم أن هذا ما سيحدث وأن هذا هو المخطط المرسوم لكنت أتيت بأغراضنا. عندي غسالتان وبرادان وماكينة كبة جديدة. ولكننا لم نتوقع أن تطول المسألة ولا أن نهجّر هذا التهجير. كنا نظن أنها عشرة أيام ونرجع. لم يخرج أحد معه شيئاً من أغراضه. من يمتلك سيارة أخذ بعض الأشياء حسب حجم سيارته. لكن من استأجر سيارة بالكاد أخذ ثيابه معه وبعض النقود. عندما خرجنا استأجرنا سيارة سرفيس وأخذنا معنا بعض "الدشكات" والبطانيات والمياه في حال اضطررنا للنوم في العراء. على الأقل كنا أحضرنا ثيابنا.

فعلنا كل ما في وسعنا

> **حتى أقربائي قالوا: إذا بدها تجي تجي وتجيب أولادها معها، أما زوجها لأ**

اسمي مهند النادر. عمري خمس وخمسون سنة. كنت طبيباً بيطرياً في سوريا، أما حالياً فأعمل في السويد مساعد طبيب بيطري. أنا فلسطيني الأصل من قرية حطين قضاء طبريا. ولدت في دمشق بمنطقة جوبر وعشت فيها عشر سنوات ثم انتقلنا إلى مساكن برزة. درست الجامعة وأقمت عشر سنوات في مدينة حماة بوسط سوريا، وعدت بعدها لمتابعة العيش في دمشق.

أنا مها خضور. عمري ثلاثة وخمسون عاماً. من منطقة المخرّم الفوقاني شرقي حمص. درست الأدب الإنكليزي في الجامعة في حمص ثم انتقلت إلى دمشق بعد زواجنا. وعشت فيها حتى لجأنا إلى السويد.

ذاكرة الطفولة

أنا مواليد عام 1968 بالمخرم. أيام كانت تقريباً ضيعة صغيرة شرقي مدينة حمص بحوالي أربعين أو خمسين كيلومتراً وأقرب إلى البادية. مساحات واسعة جداً تُزرع قمحاً، ولاحقاً صارت كروم زيتون ولوز. كان بيتنا ريفياً صغيراً مع مساحة كبيرة جداً للعب وقطف الورد.

من الصور الجميلة في الذاكرة عندما كنا نحضّر "سليقة البرغل" مرة كل سنة. بعد موسم الحصاد كانوا يجمعون القمح ويجهّزون "مونة" البرغل للسنة كلها. كانت تلك الأيام مثل أيام العرس في الضيعة. الكل يطهو السليقة في الوقت نفسه، يعني مثلاً الحارة الغربية والحارة الشرقية، مستخدمين الأداة نفسها التي هي "حلّة" كبيرة تتسع لنصف طن تقريباً. وعندما يُسلق القمح يجتمع الرجال والنساء والأولاد. أنا كنت من هؤلاء الأولاد. كنا نستغرق في اللعب وننتظر أن تنضج السليقة ليعطونا صحناً منها نضع عليه قليلاً من السكر ونأكله. أتذكر أيضاً عندما كانوا يحضّرون "الكشك". وتجتمع الصبايا والنساء لهذه الغاية. كان ممنوعاً وجود الأطفال للمحافظة على النظافة. تجتمع النساء على سطح إحداهن وتبدأن بغناء المواويل والعتابا ونحن في البيت نستمع. ذكريات الطفولة حلوة جداً جداً.

قريتنا حطين في شمال غرب طبريا، في منطقة الغور عملياً. ما يميزها -على حد كلام العجائز- أنها لم تكن تعرف الثلج، فقط المطر والندى، مما كان ينشّط الزراعة، وينشّط الفطر، وينشّط النباتات البعلية. في القرية عدة ينابيع مياه. وفي الصور الحديثة القادمة من فلسطين لا يزال نبع القسطل موجوداً حتى اليوم. حطين مشهورة بالزراعة. فيها الكثير من أشجار الزيتون، وفيها ليمون وصبار ورمان، بالإضافة إلى القمح، وكذلك الخضروات. القرية ليست كبيرة. كان عدد سكانها في 1948 ما يقارب ثمانمائة نسمة. كانت فيها مدرسة ابتدائية. والطلاب الذين أنهوا الابتدائية كانوا ينتقلون إما إلى طبريا أو إلى صفد ليكملوا الاعدادية وما بعدها. هُجّرت القرية بالكامل عام النكبة. وحتى الآن يُمنع أن يعود إليها أي من أهلها. معظم أهلها خرجوا باتجاه بنت جبيل في لبنان، لكن بعض العائلات نزحت إلى قرى فلسطينية في الجليل، والآن هم في منطقة سخنين وأم الفحم.

في حطين يوجد مقام النبي شعيب. القرية وقفٌ ولم تدمر كلياً. ظلت بقايا الجامع. المقام موجود، والحواكير، وبقايا البيوت موجودة. لكن تُمنع عودة أي أحد من أهلها إليها حتى لو كان من أهالي 1948.

عندما هُجّر أهل القرية ذهب أهل أبي باتجاه وأهل أمي باتجاه آخر. ذهب أهل أمي إلى بنت جبيل ومنها إلى بعلبك. في بعلبك أركبوهم القطار ووزعوهم على المحطات وكانت محطتهم حلب. بعد حلب انتقلوا إلى مخيم برزة واستقروا فيه.

عند بداية وصول المهجّرين إلى منطقة برزة وزّعت عليهم الدولة أيامها خياماً ومساعدات. كانوا يقومون بتزفيت الخيمة وقاية من المطر، ويضعون التراب حولها كي لا تدهمهم الفيضانات. ثم أخذ كل منهم يسوّر قطعة أرض في المنطقة التي كانوا فيها ويبني بشكل منفرد. وتحولت الخيمة من قماش إلى لبن وخشب وزينكو وغيره. حتى هذه اللحظة ظل مخيم برزة يبدو كمخيم؛ زواريبه صغيرة وبيوته متلاصقة. تستطيع المشي من أول سطح لآخر سطح فيه. ولا توجد فيه شوارع عريضة.

عندما تشكل هذا التجمع عام 1948 كان معظم سكانه من قرية حطين من عائلات مختلفة؛ الدقة، أبو سويد، شعبان، قدورة، السعدي، مهنا، رباح. هذه أهم عائلات حطين التي كانت موجودة. من هذه العائلات هناك فروع في حلب وفي لبنان في عين الحلوة. عند خروجهم من حطين ذهبوا إلى منطقة اسمها الزويّة في الجولان السوري. ومنها نزحوا ثانية؛ جزء منهم إلى مخيم خان الشيح، وجزء ذهب إلى جوبر، وجزء إلى السيدة زينب، وأيضاً أقاموا في المخيمات التي تشكلت في تلك المناطق. أبي عندما تزوج أمي كان يسكن في جوبر. أنا ربيت عشر سنوات في جوبر ثم انتقلنا إلى مساكن برزة. لكن معظم نشاطي كان في مخيم اليرموك؛ النشاط الوطني والعلاقات والناس والمعارف.

معارفي في المخيم أكثر منهم في مساكن برزة.

أتذكر جوبر جيداً. في تلك الأيام كانت منطقة زراعية. كنا نعيش في بيت من غرفة وحدة. كل العائلة عاشت فيه، ستة شباب وبنت وأب وأم. تسعة أشخاص في غرفة واحدة. هؤلاء من بقوا أحياءً لأن هناك أطفالاً عاشوا لسنة أو لسنتين وماتوا. كانت الغرفة كبيرة مبنية من الطين وسقفها خشبي. مع حوش كبير فيه خمّ دجاج و"فرنية" للخبز ومطبخ إلى جوارها والتواليت في الجهة الثانية. وكانت هناك شجرة تين وشجرة توت. وبئر في الأرض كنا نملأ الماء منه، لا أنساه. كنا نزرع في الحوش خضروات، بصل ونعنع وكزبرة وغيرها. ربّينا الدجاج والأرانب. المنطقة حول البيت كانت كلها بساتين. أغلبها كانت بساتين جوز أو بساتين خضرة عادية. كانت المنطقة جميلة جداً جداً. عشنا فيها طفولة رائعة. والوجود الفلسطيني فيها كان كبيراً. ولكن لاحقاً بدأت الناس تنتقل إلى اليرموك والمخيمات الأخرى أو إلى مناطق مختلفة من دمشق.

لا أنسى كيف كنا أيام حرب تشرين 1973، كباراً وصغاراً، نركض عندما يسقط طيار إسرائيلي في الغوطة لنبحث عنه. لحظات لا تنسى. كان أمام بيتنا ملعب وكنا دائما نلعب فيه كرة القدم. وهناك أمر يسميه الفلاحون في ريف دمشق "البعوّرة". بعد أن ينهي الفلاحون قطاف الجوز؛ يصبح من المسموح لنا، بما أننا لسنا أصحاب الأرض، أن نبحث عن بقايا الجوز. أيضاً كانت هذه من الأنشطة الجميلة التي كنا نقوم بها كأطفال.

الزواج في بيت مفتوح دائماً

كنا ندرس في الجامعة نفسها التي تسمى جامعة البعث، لكن أنا في حمص ومهند في حماة. تعارفنا في رحلة جامعية مشتركة "وصار النصيب" عام 1995.

تأخرت في دراستي الجامعية بحماة لأنني اعتقلت في السنة الأولى بسبب نشاطي السياسي، وتحديداً في شباط 1986. كانت تلك مرحلة الشباب الطامح إلى الحرية والعدالة الاجتماعية، الذي حاول أن ينضوي مع مجموعات تناقش هذه المواضيع وتنشط من خلالها، إلى جوار الثورة الفلسطينية. هذا الكلام لا يعجب النظام ولهذا قام بحملة اعتقالات؛ فوجدوا معي منشوراً بسيطاً لأحد الاحزاب السورية وبسبب هذا المنشور بقيت سنة في المعتقل، رغم أنني كنت عضواً في تنظيم فلسطيني موال للنظام في ذلك الوقت. كان السجن تجربة قاسية. بالقياس إلى تجربة الثورة السورية الحالية صارت تفاصيلها تبدو سلسة للغاية، لكنها كانت قاسية جداً في حينها.

عشنا في دمشق، في بيت أهل مهند بمساكن برزة، أعطونا طابقاً وأقمنا فيه. وأنجبنا علي وعمر. أنا كنت مدرّسة لغة إنكليزية وأبو علي كان متفرغاً للعمل الوطني. هو طبيب بيطري لكنه لم يمارس مهنته إلا في السنوات الأخيرة، فقد كان مشغولاً بالسياسة أكثر. بيتنا كان مكتباً تقريباً. كان يأتينا شباب وصبايا بشكل يومي. كنا نشعر بالحياة في هذا البيت وكانت حياتنا جميلة جداً. مثلاً كان من الطبيعي أن يتصل بنا أحد هؤلاء الشباب في الساعة الواحدة ليلاً ويسألنا: "عندكم عشاء؟". "أهلاً وسهلاً. البيت مفتوح دائماً". طبعاً كان عندي التزام بالعمل الوطني ونشاط لا بد منه في مكتب المرأة.

كنت مثل كل الشباب الفلسطيني الذي ينتمي لأحد فصائل العمل الوطني تحت عنوان المساهمة في عملية تحرير فلسطين وزوال الاحتلال الصهيوني. وكنت أرى دوري داخل حركة فتح الانتفاضة أيامها بسبب المواقف التي اتخذناها من مسألة التسوية والموقف الجذري من طبيعة الصراع. كنا نحلم أن من الممكن أن تشكّل الانتفاضة التي قمنا بها عام 1983 على ياسر عرفات ونهجه حركة وطنية رائدة ببرنامج وطني أفضل وأداة تنظيمية أفضل. كان هذا مفهومنا ووعينا، وحاولنا جهدنا في هذا الجانب. من يعرفني يعرف أني لم أدّخر جهداً، لا أنا ولا رفاقي، لفعل شيء أكثر إيجابية. بذلنا جهداً كبيراً جداً. نجحنا في بعض القضايا ولكن بالمحصلة فشلنا بعد سنوات طويلة لظروف خارجة عن إرادتنا. يبقى أن هذا النضال الوطني الذي مارسه المرء قد أسهم في تطوير وعي الناس حوله على أصعدة مختلفة. حاولنا أن نسهم في رفع السوية الوطنية عند قطاعات متعددة، وأن نتفاعل معها على المستوى السياسي والثقافي، وعلى مستوى النشاط الاجتماعي والنشاط الفني كالرسم والكاريكاتير والشعر والقصة. كان جل نشاطي ضمن الأوساط الطلابية في جامعة دمشق والجامعات السورية المختلفة. والعالم الطلابي الفلسطيني يمتد إلى أقطار أخرى كالأردن والداخل والخليج على مساحة وجود شعبنا. حاولنا جهدنا.

بعد مقتل رفيق الحريري[32] عام 2005 بدا واضحاً أن نشاطاً يتم بالاتفاق بين قيادة الحركة، كاملة أو بجزء منها، وبين المخابرات السورية، لتشكيل حالة إسلامية سنّية في لبنان تكون مواجهة لتيار الحريري أيامها. ولهذا استعانوا بالحاج شاكر العبسي وببعض المجموعات التي كان يعرفها ومعظمهم من بقايا قاعدة العراق التي كانت تدخل وتخرج من سوريا، وأعطوهم مواقع في لبنان ومنها عين الحلوة وشاتيلا والبرج. في المرحلة التالية تمردت هذه الكتلة على واقع الحركة وتمردت على الكل، لتخرج إلى مخيم نهر البارد في طرابلس. وفي 20 أيار 2007 بدأت أحداث البارد الدموية والتي تم تدمير المخيم على أثرها. وكان هذا الحدث سبباً في أزمة كبيرة داخل الحركة، إضافة إلى أزماتها الداخلية المتعلقة بتطوير عملها وعقد مؤتمراتها وتفاصيل كهذه. حاول السوريون أن يلقوا مسؤولية هذا الحدث المهم على أبو خالد العملة. فتم اعتقاله ووضعه في الإقامة الجبرية وفصله من الحركة ليستلمها أبو موسى. بعبارة أخرى، جرى تفجير الأوضاع الداخلية في الحركة وتشتيتها ليبقى منها شكل هامشي جداً شكّله أيامها أبو موسى وأبو حازم صغيّر (زياد صغيّر) وهما أدوات عند المخابرات السورية. وأدى هذا إلى خروج قسم كبير من تنظيم فتح الانتفاضة منها، يعني تقريبا جل إقليم سوريا، بالإضافة إلى جزء كبير من إقليم لبنان وإقليم الأردن.

وجاءت الثورة

في بداية الثورة السورية كنا نسكن في بيتنا في مساكن برزة. موقعه كان استراتيجياً مقابل فرع الأمن 211[33] وبجانبه الشرطة العسكرية والرحبة والوحدات الخاصة، بمعنى أننا كنا ضمن منطقة أمنية. لكننا أيضاً قريبون جداً على القابون، كان بين القابون وبيننا عشرة دقائق من المشي أو أكثر قليلاً، وبيننا وبين برزة البلد المسافة نفسها. بدأت المظاهرات في أيام الجمعة في برزة البلد والقابون في نيسان 2011. منذ الأسبوع الأول حدثت صدامات بالحجارة. جلبوا عمال البلدية ليضربوا الناس بالعصي، وفي الأسبوع الثاني بدأ إطلاق النار. خلال شهر ونصف كان قد سقط خمسة وثلاثون شهيداً في برزة البلد في أيام الجمعة، غير الجرحى والمعتقلين. مع أن المظاهرات كانت

[32] - رئيس الوزراء اللبناني الأسبق.
[33] - الفرع الفني أو فرع الحاسب في شعبة المخابرات العسكرية.

سلمية جداً أيامها ولم يطلق أحد رصاصة واحدة باتجاه أجهزة الأمن. كان الناس يخرجون ويهتفون. وعند تجمّعهم يبدأ إطلاق النار عليهم ويبدأ قنصهم. والشيء نفسه حصل في القابون.

أذكر أننا في إحدى المرات كنا نعدّ سيارات الإسعاف القادمة من برزة. كانت مظاهرة يوم الجمعة ولا يفصلنا عن برزة البلد سوى شارع فقط، وكان بيتنا يبعد عنها حوالي مائة أو مائتي متر لا أكثر. كانت الأصوات تصل إلينا عند خروج المظاهرة لكننا لم نكن نقدر على الدخول أو الخروج لأن الأمن كان يقوم بإغلاق المنطقة مسبقاً. فالمظاهرة كانت تحدث داخل برزة عملياً. وكنا نترقب إذا خرجت المظاهرة وإذا سمعنا صوت إطلاق النار، لكن دون أن نعرف ما الذي يحدث هناك. ليس أنا ومهند فقط، بل كانت أعين الحارة كلها على الشارع. كنا نعدّ سيارات الإسعاف التي تخرج، ست وخمسون سيارة إلى مشفى ابن النفيس وحده. وبعدها صرنا نرى سيارات إسعاف تأتي إلى فرع الأمن 211. خمس سيارات أو ست. عرفنا بعدها أن من أسعفوهم إلى الفرع قتلوا فيه. كان هذا في نيسان 2011، لكني لا أتذكر في أي جمعة تحديداً.

ربما تأخرت الثورة كثيراً. لكنها جاءت في اللحظة التي كنا فيها بحاجة ماسة لهذا التغيير، بحاجة لمن يرمي حجراً في هذا المستنقع ليحرّك المياه الراكدة. بحاجة لإعادة بناء الدولة بشكل ديمقراطي على قاعدة الحرية والكرامة. لكي يشعر الإنسان بكرامته، وليشعر بأن هذا الوطن وطنه فعلاً وليس مزرعة لآل الأسد. كل من عاش في سوريا رأى القمع والاعتقالات والقهر، وعرف الفساد والإفساد والنهب والجوع الذي عانى منه الشعب. كل مبررات قيام الثورة في سوريا كانت متوافرة.

ومن جهة أخرى يقول أحد الأمثال: "من واجه عدواً وهو مقيد فليعلم أن قيده هو عدوه الأول". والنظام السوري قيّد جميع جهود المقاومة الشعبية للكيان الصهيوني، كما عمل على تدمير كافة البنى الوطنية والحزبية والتشكيلات السياسية التي حاولت أن تقوم بدور في مواجهة الكيان الصهيوني. فالخلاص من هذا النظام، والأنظمة العربية الأخرى، وبناء نظام وطني ديمقراطي يقوم على قاعدة الانتخابات، سيكون مقدمة لمواجهة الكيان الصهيوني، ومقدمة لشن حرب شعبية طويلة الأمد في مواجهة هذا الكيان. أوقن تماماً أن كل الدعم الذي يتلقاه نظام الأسد من أميركا وإسرائيل ومن كل المجتمع السياسي الغربي والشرقي هو لمنع انتصار الثورة السورية التي لو أتيح لها إسقاط النظام لامتد الحراك إلى كافة الأقطار العربية. فهذه الأنظمة، ومنها النظام السوري، عملت على قمع كافة أشكال الحريات والديمقراطية والتعبير عن الرأي، ودعمت كافة أشكال الاستبداد السياسي والديني والاجتماعي، لكي يبقى المواطن العربي جاهلاً، وكي يعيش صراعات ماضوية لا يدرك من خلالها حاضره ولا مستقبله.

وأنا، بكل بساطة، واحدة من هؤلاء السوريين الحالمين بالحرية وبالعدالة الاجتماعية، أحلم أن أعيش في بلد أكون قادرة فيه على التعبير عن رأيي، قادرة على الانتماء لحزب مثلاً. وكانت الثورة هذا الحلم المنتظر، ولهذا كنت معها بكل ما أملك.

لم نشارك في المظاهرات، لا الأمور ولا الصحة سمحت لنا، لكن كانت لنا مشاركاتنا بأشكال أخرى. كنا نتفاعل مع القائمين على هذا العمل في المناطق، نقدّم مساعدات طبية أو إنسانية، عملنا أيضاً في الأنشطة الدعاوية والسياسية. أما التظاهر والركض في الشارع فلا قدرة لي عليه. أنا مريض قلب ولم تعد عندي القدرة كما في السابق. لكنا كنا نحاول أن نقدّم أي شكل من أشكال الدعم الممكن إنسانياً ومادياً وطبياً. بحكم عملي كطبيب بيطري في ريف دمشق، أو كما كنا نسميه "القوس الناري"،

كنا نتفاعل كثيراً مع المقيمين في المنطقة. يعني كانت تتوفر أحياناً بعض الإمكانيات أو التفاصيل المختلفة وكنا نقدّمها لهم ولم نقصّر. إضافة إلى التفاعل السياسي مع كثير من ناشطي الثورة السورية أيامها.

أنا أيضاً لم أشترك في المظاهرات. لكنا اضطررنا في بعض المرات أنا وأبو علي، مع شباب آخرين، أن نقدم مساعدات طبية لجريح هنا أو مصاب هناك. شاركت في التعازي التي كانت تقام في القابون أو في برزة مثلاً. أتذكر حضور مي سكاف وفارس الحلو ومنتهى الأطرش أيام مجزرة القابون. كنت أعمل في مدرسة حكومية ولهذا كانت مشاركتي صعبة، لكن طلابي هم من أبناء برزة والقابون ولهذا كان وجودي في هذه المواقف يهمني كثيراً.

كثيراً ما استعنت بعلاقاتي كطبيب بيطري وبحكم معرفتي للكثير من العاملين في المجال الطبي، حتى نؤمّن بعض المستلزمات من لقاحات ومضادات حيوية وأدوات إسعاف. أو نحضر أطباء آخرين كي يعالجوا الجرحى. فعلنا هذا في الكثير من المواقف والمناطق وليس في منطقتنا فقط.

في إحدى المرات أصيب شاب في الحجر الأسود فأسعفوه إلى مستشفى الجمعية الفلسطينية. تعرض المشفى للقصف فاضطروا إلى إخلائه، لكن الشاب كان مصاباً في رقبته وإصابته خطيرة جداً. أحضره أصدقاؤه إلى بيت عمته التي اتصلت بأقاربها لطلب النجدة لكنهم خافوا بسبب خطورة الوضع. كنا في 2012 وهي تسكن في منطقة أمنية حساسة من الصعب التحرك فيها. كانت عمة الشاب صديقتي فاتصلت بي. كانت خائفة لأن الشاب ينزف ووضعه خطير جداً. لا أنسى زياراتنا له، كنا نأخذ الشاش والأدوية لعلاج جرحه.

الثورة في القابون وبرزة

دفع استمرار القتل من قبل النظام الناس للدفاع عن أنفسهم بشكل أو بآخر فبدأ التسليح، وبدأت بعض الأطراف بتزويد مجموعات بالأسلحة. النظام نفسه كان يترك وراءه أسلحة في مناطق مختلفة. دخلت القابون مرحلة العمل المسلح قبل برزة البلد التي بقيت محافظة على سلمية الحراك فيها حتى 2013. بعدها تعرضت القابون لقصف شديد وجائر من الطيران، غير القصف المدفعي والدبابات ومحاولات الاقتحام المستمرة. وجرى تهجير بشع جداً لأهالي القابون

كنا نصحح امتحان البكالوريا والتاسع في تموز 2012. المنظر الذي كنا قد شاهدناه سابقاً في مسلسل "التغريبة الفلسطينية" رأيناه واقعياً. خرج الناس من القابون باتجاه كراجات العباسيين. شلال من البشر. نساء وأطفال ومسنّون. نساء القابون أغلبهن محجبات ويلبسن الجلباب الأسود. كان من أكثر ما يؤلم رؤية تلك السيدات يهربن بقمصان النوم و"الشحاطات". كان مؤذياً كثيراً أن نرى هؤلاء النساء خارجات من بيوتهن وذاهبات سيراً على أقدامهن باتجاه العباسيين بهذا الشكل. سمعنا بعدها أن منهن من أكملن مشياً إلى قرى جبعدين وتلفيتا.

قرى القلمون، قراهم الأصلية.

لن يمحى ذلك من ذاكرتي أبداً. كلما رأيت هذا المشهد من مسلسل التغريبة أقول إننا رأيناه في الواقع.

امتلأت حدائق مساكن برزة بأهالي القابون. كل الحدائق التي كانت ملاهي للأطفال أقامت فيها عائلات. رغم كل هذا الألم إلا أن مشهداً جميلاً تخلل هذا الحزن. أهالي مساكن برزة، بمن فيهم "الأزعر" أو غيره، صاروا ينادون بعضهم: من عنده فراش أو لحاف أو ملابس زائدة. وبدأوا يجمعون ما يساعد هذه العائلات على الحياة.

في هذا اليوم كان أهالي القابون سيمرون من طريق المساكن. وضع الكثير من الناس عند أبواب بناياتهم الماء أو التمر أو أشياء للأطفال الذين كانوا مع أمهاتهم.

ملفتٌ جداً هذا التفاعل الشعبي. مع أن أحداً لم يتجرأ على الإيواء في منزله، لكن حاول الجميع المساعدة قدر استطاعتهم.

في ذلك الوقت كان الطيران مستمراً بالقصف. كنا نحسب الوقت، كل أربع ساعات قصف مقابلها ساعة أو نصف ساعة استراحة. وكنا نرى الطائرة وهي تضرب.

"هليكوبتر بالجو تنزل رش على المدينة".

أسقطوا طائرة في إحدى المرات. احتفلنا يومها كما لو أنها طائرة إسرائيلية. كانت الطائرة ذاتها التي تقصف ليلاً نهاراً.

من المؤلم كثيراً أنها كانت تقف فوقنا وهي تقصف القابون.

في فترات الصمت، عندما كان القصف يتوقف، كنا نخاف أكثر. طبعاً الكهرباء مقطوعة. كانوا يرمون قنابل ضوئية فيصبح كل شيء مصبوغاً بالأحمر. ويستمر الصمت حوالي النصف ساعة أو أكثر، صمت حقيقي، لنعرف في اليوم الثاني أن مذبحة وقعت أثناء هذا الصمت. كنا نعرف بعض ضحايا المذبحة، كأستاذ معنا في المدرسة مثلاً أو أحد طلابي أو أهل طالب عندنا. كانوا معروفين بالأسماء. تموز 2012 كان الأبشع، لشدة التوتر والخوف الذي عشناه مع هذه الطيارة التي لا تتوقف عن القصف. لم تقصف القابون فقط، بل قصفت برزة وركن الدين بالتوازي، لكن تركيزهم الأكبر كان على القابون. يبدو أن هدفهم كان تهجير الناس منها.

أذكر في بداية 2013 أنني كنت في الشارع أقف وأشاهد طائرة الميغ 21 تضرب الصواريخ على برزة البلد.

مثل أغلب نساء المنطقة صرت أنام بملابس الخروج تحسباً لما قد يحدث. في إحدى المرات غفوت قليلاً وأفقت على صوت القصف في حالة بين الحقيقة والحلم، كان كابوساً. تفقدت مهند والأولاد واطمأننت إلى أنهم موجودون ونائمون، وبعدها فتحت باب المنزل وخرجت دون أن أنتبه إلى الساعة. مشيت لمائة متر كمن في مخه لوثة، وإذ رآني جارنا أبو بسام، رجل عجوز ربما كان ذاهباً إلى الفرن، فاستغرب وقال لي: "أم علي إلى أين أنت ذاهبة؟" فأجبته: "أريد أن أرى وجهة قصف هذه الطيارة؛ ركن الدين وإلا برزة وإلا القابون؟" فقال: "لا حول ولا قوة إلا بالله. ارجعي ارجعي لبيتك". كانت الساعة الثالثة أو الرابعة فجراً.

في نهاية 2012 تعرضت برزة للحصار. برزة منطقة صغيرة مساحتها عملياً كيلومتر مربع، لكنها محاطة من كافة الجهات بمراكز أمنية؛ مركز البحوث من جهة الجبل، مشفى تشرين الذي تحول إلى ثكنة، ومن شماله ثكنة عسكرية، وهناك أيضاً الشرطة العسكرية والوحدات الخاصة والمخابرات.

هؤلاء كلهم يحيطون ببرزة القديمة. لكن رغم ذلك شكلت حالة صمود في مواجهتهم، خاصة وأن الثوار حافظوا على سيطرتهم على البساتين التي تصلهم بالغوطة. وبقي تواصلهم مستمراً مع حرستا وصولاً إلى الغوطة رغم الحصار. شباب "كدعان" من أبناء المنطقة، صمدوا أمام هجمات النظام المختلفة التي وصلت حد القصف بالطيران الحربي ومع ذلك ظلوا صامدين حتى صارت التسوية.

لم نكن ضمن منطقة الحصار، بل كنا من جهة المحاصِرين. ولكن كان لي تواصلي مع الناس في برزة وكنت على علم بما يحدث. في الفترات الأولى من الثورة كان النظام قد استهدف كل الناشطين في تنسيقية برزة البلد. لا تحضرني الأسماء لكنهم كانوا سبعة شبان في التنسيقية تمت تصفيتهم وقنصهم على مدى أسابيع. وأعتقد أن هذا حدث في معظم المناطق. لاحقاً، ولما زادت شدة الحصار، بدأ الناس يتسلحون ويحاولون أن يؤمّنوا أنفسهم. كان النظام قد "دفش" شبيحته من جهات مختلفة. مثلاً في منطقة عش الورور، وهي جبل يطل على برزة، يسكن الكثير من رجال الأمن، وعناصر الجيش أيضاً كانوا يستخدمون المنطقة للقنص ولإطلاق النار المستمر على برزة. بالمقابل حاول أهل برزة الدفاع عن أنفسهم باتجاه عش الورور وباتجاه مشفى تشرين. وفعلاً نجحوا في تشكيل حالة صمود وتكاتف داخلي قوي جداً. مثلا أذكر في 2012-2013 أنهم كانوا قد نظّموا كافة الأمور الإدارية. كيفية توزيع الأكل والخبز وأي شكل من أشكال الدعم الطبي أو التموين، ليتم توزيعه وإيصاله للكل. كان هذا أحد أشكال السلوك الراقي عندهم. لاحقاً، وبعد خروجنا من هناك، سمعت أنهم تعرّضوا لغدر من قوى إسلامية، وعلى وجه التحديد من جبهة النصرة التي سيطرت على منطقة حرستا وأغلقت الطرق أمامهم. وكان هذا ما دفعهم إلى عقد مصالحة مع النظام.

عندما خرجنا من بيتنا لأول مرة

في شباط 2013 كنا نحاول أن نعيش حياة طبيعية عندما وقع تفجير عند الفرع 211 بجوار بيتنا تماماً. كنت في المدرسة وأولادي في مدارسهم وأبو علي في عمله. حوالي العاشرة أو الحادية عشر صباحاً وقع تفجير كبير جداً. وبعدها علمنا أنه بجوار بيتنا. لتظهر بعدها مروحيات في السماء وتبدأ بإطلاق النار. لم أعرف إذا كانت هناك اشتباكات أو أنه إطلاق نار عشوائي فقط. خفنا أن يصاب أحد طلابنا في المدرسة، وفعلاً أصيب أحد طلابي في خاصرته لكنه بقي حياً. انقطعت الاتصالات في المنطقة. استطعت أن أحضر ابني الصغير عمر من مدرسته التي كانت بجانب مدرستنا. وكان أقرب مكان آمن نستطيع الذهاب إليه هو بيت أخت أبو علي. اكتشفنا عند ذهابنا إليها أن كل من كان من العائلة خارج بيته مثلنا أتى، وتحول بيتها فجأة إلى مخيم. وكنت أحضرت معي ثلاثاً أو أربعاً من زميلاتي لم يستطعن الذهاب إلى بيوتهن لأن المنطقة أُقفلت تماماً. بقينا هناك حتى المساء تقريباً فصاروا يقولون إن هناك طريقاً نستطيع المرور به. وعندما حاولنا أن نذهب باتجاه بيتنا اكتشفنا أنهم أعلنوا المنطقة عسكرية.

حاولنا أن نرجع إلى بيتنا فأطلقوا النار باتجاهنا في الهواء لمنعنا من الاقتراب. عدنا في اليوم الثاني فقالوا إن باستطاعتنا الرجوع. وفعلاً عدنا لنأخذ بعض أغراضنا على الأقل.

"الدنيا كانت برد. يعني نجيب تياب شتوية ندفّي حالنا".

دخلنا مواربة من خلف المنزل. كان الزجاج كله مكسوراً. الشرفات التي فوقنا انهارت على بيتنا. وكان الأمن "نابشين البيت نبش، ناكشين كل التفاصيل". دخلنا لنلملم بعض الأغراض ونخرج. وأنا أفتح الباب سمعت ضجة خارج البيت. كانوا خمسين أو ستين عنصراً يوجهون البنادق نحونا. قلنا لهم إننا سنخرج فصاحوا بالميكروفون: "على جميع السكان الإخلاء. أعلنّا المنطقة منطقة عسكرية". ذكرني هذا بكفر قاسم وأحداث الأرض المحتلة عندما كانوا يقولون: "المنطقة عسكرية، ممنوع حدا يتحرك، ممنوع حدا يطلع". وفعلاً أخرجونا كلنا من المنطقة وغبنا أياماً. التجمع الذي كان أمامنا لنازحين من أبناء الجولان. تم بناؤه أصلاً للعمال، ولكن عند خروج أهل الجولان في سنة 1967 أسكنوهم فيه. كانوا فقراء معدمين، ولا مكان آخر يذهبون إليه في حال تم إخراجهم. معظمهم كان موظفاً في الحزب أو الدولة وبدأوا يجرون الاتصالات والوساطات حتى لا يخرجوهم. فالقرار كان أن يقوموا بتجريف المنطقة كلها لتصبح منطقة آمنة للأجهزة الأمنية.

سمعنا لاحقاً أنه عند حدوث الاشتباكات مع الأمن جُرح أحد المهاجمين ودخل أحد هذه البيوت فأحرقوا البيت والبيوت التي بجانبه. أتذكر أن تسعة مدنيين من جيراننا أبناء الحي استشهدوا في هذه الاشتباكات. أحدهم صاحب محل سمانة، وامرأة كبيرة، وشاب، وغيرهم ممن لا علاقة لهم.

في إحدى المرات التي حاولنا فيها أن ندخل البيت كانت جارتنا تبكي وهناك من يحاول مواساتها ويقول: "مو بيتكن لحالكن". يبدو أنهم كانوا قد أحرقوا بيتها أيضاً. فقالت: "أنا مو منشان البيت، أنا منشان جود -جود ربما ابنها أو ابن أخيها- إلو 3 أيام ملفوف بالحصيرة مو مسترجيين ندفنه".

"ما بيسترجي يقول انقتل عندي واحد، لأنه إذا انقتل بالاشتباك بيعتبروه إرهابي".

لم نعش يوماً مريحاً بعد هذا التفجير. عدنا إلى بيتنا عندما سمحوا لنا بعد اثنين وعشرين يوماً. استخدمنا البلاستيك بدلاً من الزجاج الذي كان قد تكسّر، أزلنا الركام الذي كان على الأرض. كان شيئاً مرعباً.

"منطقة مكتظة وين بدن يقلعوها؟ وتعتبر موالية".

كان عمر صغيراً وكنت أمسك بيده ونمشي في الشارع عندما رأينا ثلاث جثث على الأرض. وعند ذهابي إلى المدرسة كان الأولاد يقولون لي: "آنسة اليوم شفنا راس بحاوية الزبالة عند المدرسة". صار من الطبيعي أن يرى الأطفال رأساً وهم في طريقهم إلى مدارسهم.

بعدها، وبينما كنا في طريق العودة من المدرسة، مرّت طلقة قناص قرب رأس عمر. وبعد وصولنا إلى البيت وردنا اتصال من رقم خاص وقال: "لو بدنا نجيبها براسه كان جبناها".

في الفترة الأخيرة صرنا مستهدفين أنا وزوجتي.

حتى من أقربائي، باعتبار أني علوية، قالوا: "إذا بدها تجي تجي هيي وبيصير تجيب أولادها معها، أما زوجها لأ. منحميها هي وأولادها لكن زوجها لأ". لم يبق أمامنا خيار سوى مغادرة البلد، فهذا أفضل وأكثر أماناً للعائلة. وغادرنا إلى تركيا في 6 نيسان 2013.

وبدأت هجرة الألف ميل

اتخذنا قرار الخروج بشكل سريع بعد أن صارت التهديدات بالاعتقال أو حتى القتل جدية، وبناءً على نصائح كثير من الأصدقاء. عملنا على جمع مبلغ من المال من هنا وهناك. وتواصلنا مع واحد من أصدقائنا كان قد ذهب إلى السويد فأعطانا رقم مهرب. اتصلنا به فقال: "اوصلو على حلب، ومن حلب نحن مندبركم". في تلك الفترة كانت المواصلات صعبة. كان هناك باص بولمان ينطلق في السادسة صباحاً من كراج العباسيين باتجاه حلب. "ظبّطنا حالنا كأسرة أوادم وحبابين، وحطينا شوية غراض معانا، وحملنا حالنا وطلعنا". كان مشوار حلب يستغرق ثلاث ساعات أو أربعاً في الأيام الطبيعية، لكنه يومها استغرق أكثر من عشر ساعات.

> خرجنا في الساعة خمسة ونصف صباحاً من بيت أخت أبو علي في مساكن برزة، لنصل إلى دوار الموت في حلب الساعة الخامسة عصراً.

مررنا على حواجز مختلفة لكن لم يكن هناك تعميم بأسمائنا بعد. من الممكن أن أعمارنا كان لها دور، "يعني تنين كبار بالعمر ومعهم أطفال ما حدا دقق فينا". وصلنا إلى حلب والوضع فيها متوتر جداً. بحثنا عن المهرب ووجدناه. يسمّونه الشيخ، بلحية بيضاء وكلابية بيضاء. أصعدنا في سرفيس باتجاه طريق باب الهوى من جهة إدلب وقال لنا: "لما تصلوا عالحاجز قولو له نحن من المخيم"، نتيجة السمعة الطيبة لمخيم حلب عند النظام. فعلاً عندما وصلنا إلى الحاجز سألوا السائق: "معو غراض؟" فقال: "معه لابتوب". قلت له: "أنا دكتور بيطري وكل شغلي عليه". قال: "أنت منين؟". قلت له: "من المخيم"، فقال: "روحوا روحوا".

المهم قطعنا الحاجز ودخلنا المناطق الواقعة تحت سيطرة ما يسمى الثوار، جماعات مختلفة منهم إسلامي ومنهم عادي. أوقفنا حاجز ليرى هوياتنا. أحد العناصر قرأ الكنية -خضور- وكان يعرف أن المخرم ضيعة علوية فقال: "إنتي بدك تنزلي". هو من إحدى القرى التي تعرف التقسيمات الطائفية للقرى الأخرى. فتجادلت معه: "شو بتنزل يعني؟ شايفنا موالين للنظام ومارقين من عندك بكل هالطمأنينة؟" فخجل وقال لنا: "يلا روحوا". أتى المسؤول عنه وسمع حديثنا فقال: "كمل".

شيء معيبٌ ومخز أن يتعامل أحد الثوار، أو من يعتبرون أنفسهم ثواراً، بهذا التقسيم الطائفي. يجعلونك تعيش حالة من التوتر والإحباط بلحظة. جزء من خروجنا من دمشق كان بسبب هذا الإحباط نفسه. يعني مثلما كانت هي تستطيع الذهاب إلى أهلها ليحموها ولكنهم لن يستطيعوا حمايتي؛ كنت أنا أيضاً لا أقدر أن أذهب بعائلتي إلى الغوطة، فقد نصحني الشباب هناك: "لا تجيب مرتك، لأنو عنا جحاش". هكذا ببساطة. وقد رأينا ما حدث مع من كانوا في الغوطة، رزان زيتونة وسميرة الخليل وغيرهما. لاحقاً الثوار أنفسهم الذين كنا نعرفهم أعدمهم جيش الإسلام. "بيتطلع الواحد يعني وين قهر النظام إلك ووينك قهر هذه المجموعات اللي تسلبطت على الثورة السورية، من جيش الإسلام والمجموعات الإسلامية الأخرى في ريف حماة وإدلب وحلب وغيره".

وصلنا في النهاية إلى باب الهوى، وبصعوبة قطعنا الحدود. كان هناك شرطي تركي يبدو أن الشيخ المهرب "مزبّطه". مها سورية الجنسية فسمح لها بالمرور، لكنه منعنا أنا وعلي وعمر لأننا فلسطينيون. صرت أقول له: "يا ابن الحلال، يطولك يقصرك". أعرض عليه النقود. سمح لعمر بالدخول لأنه صغير، وبعدها بقليل سمح لعلي، وقال لي: "فيني فوتك لكن روح نط من على الحيط". فعلاً مشيت حوالي الخمسين متراً ورفعوني وقفزت من الجدار.

التنقل في مدن تركية عديدة

دخلنا وركبنا سيارة المهرب. وصلنا إلى منطقة إسكندرون بحدود الساعة الثانية عشر ليلاً تقريباً. أخذونا إلى شقة في منتجع سياحي، كان فيها ثلاث عائلات أخرى أيضاً على طريق التهريب. عائلة من مخيم النيرب، ورجل وزوجته من اليرموك، وامرأة من اليرموك أيضاً. بقينا معهم إلى اليوم الثاني. كنا مرهقين إلى درجة لا يتخيلها أحد. في اليوم التالي انتقلنا إلى مكان آخر ضمن المجمع السياحي نفسه. بقينا هناك حوالي عشرين يوماً ونحن ننتظر. كان المهرب يأتي ليرينا صوراً وجوازات سفر ويقارن إذا كانت تشبهنا أو لا.

في يوم 29 أو 30 نيسان 2013 أتت مجموعة من حوالي ثلاثين شاباً، سوريي الأصل ولكنهم من أهالي إسكندرون، يعني أتراك. كانوا مسلحين. أطلقوا رصاصتين في الهواء أمام المنزل وقالوا: "معكم عشر دقايق تخلو البيت". كانوا يتبعون لعلي كيالي الذي قام بمجزرة البيضا في بانياس. وكانوا يلاحقون السوريين. قالوا: "إنتو لو مع بشار ما بتجو لهون".

قالوا لنا بالحرف: "كلاب ضد بشار ما بدنا ياهم عنا". فكرت أن أتفاوض معهم قليلاً فقلت له: "إنتو شفتو منا شي عاطل؟ أنا مدرّسة وهو طبيب". وصرت أستخدم حرف القاف كثيراً ليعرف أني علوية بما أنهم علويون. قلت: "شفتو منا شي عاطل؟ نحن حابين نقعد مع أولادنا ونعيش بأمان معكم يا أخي". كان قد قال لنا من قبل أن معنا عشر دقائق لنخلي البيت. نظر إلينا، هو المسؤول عنهم كما يبدو، وقال: "أنا مجبر إني أعطيكم جواب شي؟" قلت له: "لأ، مانك مجبر". فقال: "صار معكم خمس دقايق".

وفعلاً أخذنا بضعة أشياء صغيرة وخرجنا من البيت.

ثيابنا لم نأخذها.

أدويتي لم آخذها. عدت في ما بعد لإحضارها.

طرد حقيقي.

كنا نأكل وبقي الطعام على الطاولة ولم نستطع إعادته إلى البراد. فراشنا لا يزال على الأرض. بعد بضع ساعات، وبعد مفاوضات مع حرس المنتجع، استطعنا الدخول لإحضار أغراضنا وجلب أدويتي. أنا آخذ الأنسولين وأدوية للقلب.

مسؤولة الإيجار امرأة اسمها سهيلة من سكان المنطقة. قالت لهم: "عيب عليكم هيك تتعاملوا مع البشر. هدول أولاد عالم وناس ودافعين آجار لشهر وما بصير تجوا بكل سهولة تطردوهم". فردّوا عليها بشتائم قذرة كثيراً، وهي امرأة كبيرة وليست شابة. المشرف أو المسؤول الأمني عن المنتجع قال لمهند: "دكتور لا تعذب حالك. بيدفنوك هون ما حدا بيسأل عنك أنت وعيلتك. لا تقاوح ولا تجادل. أنا حاسس إنو ظلم كتير كبير لكن ما فيكن تعملوا شي. ونحن منعتذر منك". وفعلاً سكتنا وخرجنا.

كنا ننتظر السفر. استأجرنا في مدينة إسكندرون لشهرين. وسكنّا في إسطنبول حوالي ستة أشهر، وفي غازي عنتاب عشرة أشهر تقريباً.

انتقلنا إلى إسطنبول لنكون أقرب إلى المحاولة. هدفنا أن نسافر ولا نريد البقاء في تركيا لأننا لم نكن نرى أن لنا مستقبلاً فيها. في ذلك الوقت لم يكن من السهل أن يذهب الطفل السوري إلى المدرسة. عندما سكنّا في إسطنبول صرنا نحاول. قالوا لنا إن هناك جمعية إسلامية اسمها "جمعية النور" يمكن أن نسجّل الأولاد فيها رغم أن أقساطها كبيرة، ولكن كان عندهم شروط. مثلاً من شروطهم التي رفضوا أولادنا بسببها أن أمهم ليست محجبة. لهذا ظل الأولاد دون مدارس في إسطنبول. بقينا هناك لعدة أشهر وكان الوضع مأساوياً، ولدان في عمر الدراسة ولا شيء ليفعلاه. لم نسافر بعد ولا حياة طبيعية ليعيشاها. عندما كنا نرى الأولاد من الشباك وهم يحملون حقائبهم في طريقهم إلى المدرسة كنا نبكي أحياناً.

في إسطنبول استأجرنا شقة مؤقتة من مكتب عقاري. وفي هذه الشقة حدث معنا شيء شنيع جداً. يبدو أننا كنا مرصودين وصرنا من المستهدفين بالسرقة. عادة كنا نحرص جداً على المبلغ الذي بحوزتنا. لكن في هذا اليوم أتوقع أن من سرقنا كان قد رشّ غازاً مخدراً، لأن النعاس غلبنا جميعاً بحدود الساعة العاشرة أو الحادية عشرة. وفعلاً دخلنا لننام ولم نخبّئ أغراضنا. يعني حتى أم علي كانت قد خلعت الأساور والخواتم وتركتهم مع المال على الطاولة. عادة كنا نخبّئهم. لديهم طرق كثيرة لفتح الأبواب بالبطاقات وبوسائل لا نعرفها، أو أن معهم مفتاحاً بالاتفاق مع المكتب العقاري. بما أن كاميرات المراقبة التي تلتقط الوجوه على باب البيت كانت معطلة، والأخرى لا تلتقط إلا أسفل الجسم فقط.

المهم عندما استيقظت بحثت عن موبايلي فلم أجده. رأيت أغراضنا مبعثرة ومتناثرة. بحثت أيضاً لأجد أنهم قد أخذوا موبايلي لأنه جديد والنقود وذهب مها. قدّرنا مجموع المسروقات بحوالي ثلاثين ألف دولار. ولم يبق معي إلا مائة دولار.

كنا نحكي للشرطة ونبكي بينما يضحكون وكأنهم يشاهدون فيلماً كوميدياً. كان موقفهم غريباً فعلاً. قالوا بعدها: "سوري سوري"، أي أن سورياً مثلنا من قام بسرقتنا. لم يتعاونوا معنا نهائياً.

صرنا نفكر بطريقة لتخفيف التكاليف إلى حد نقدر عليه. قال لنا أصدقاؤنا إننا نستطيع أن نجد سكناً أرخص في غازي عنتاب، وربما نجد عملاً. سافرنا بالباص لسبع عشرة ساعة. وجدنا بيتاً صغيراً جداً، استوديو سكن طلابي، فاستأجرناه. اكتشفنا هنا أن علي يستطيع الذهاب إلى المدرسة ليدرس بكالوريا أدبي في ثانوية ليبية تدرّس في عنتاب. وجدت عملاً كمترجمة في جريدة. وأبو علي صار يكتب مقالات.

عملت بجريدة "كلنا سوريون" التي أسستها مجموعة من الناشطين، وبعضهم كان معتقلاً لدى النظام. أرادوا أن يسلطوا الضوء على قضايا اللاجئين السوريين وموضوع الوحدة الوطنية بين السوريين. كنت أكتب فيها مقالات لكن مهمتي الأساسية كانت الترجمة من مجلات أو جرائد أجنبية لنقل ما يكتبونه عن القضية السورية. كانت تجربة حلوة.

وأنا كتبت مع أكثر من جريدة؛ "كلنا سوريون" و"سوريتنا" و"زيتون". مجموعات ناشطين سوريين من مناطق مختلفة. كتبت كثيراً من مقالات الرأي أو حتى بعض الأبحاث عن الواقع السوري بالعموم وعن بعض المخيمات الفلسطينية.

وأنا كتبت مع "زيتون" ومع The Syrian Observer في لندن.

وكتبت مع هذه، "المراقب السوري". يترجمون مقالات عربية إلى الإنكليزية وينشرونها للأجانب. كتبت معهم لفترة لا بأس بها. يعني حاولنا على الأقل. وتفاعلنا أيضاً مع ما يسمى معارضة بأطيافها المختلفة. أنا أحد الناس الذين صاروا يشعرون أنهم خارج هذا الجو أيامها.

صحيح أن قضيتنا متل قضية كل السوريين لكن القادة على الأرض لا يمثلوننا، ولهذا شعرنا بعدم الانتماء. إذا كان هؤلاء قادة الحراك فنحن لا نريده. نريد فقط أن نعيش بسلام أكثر.

عملياً كانت هناك سيطرة للإسلاميين على كثير من مفاصل الثورة السورية في تركيا وعلى الأرض. ولم يكن اليساريون أو المعتدلون أصحاب قرار، وليس عندهم مشروع متكامل أصلاً. كانوا مجموعات وأفراداً متفرقين هنا وهناك. من يملك مشروعاً هم القوى الموجودة بالداخل؛ المجموعات الإسلامية من النصرة إلى داعش. أما القوى المرتبطة بتركيا، أو ببعض الدول الأخرى ومن ورائها الأميركان، أو ما يسمى ديمقراطيين، فكانوا مجموعات متفرقة غير متكاملة. حاول المرء أن يتواصل وأن يطرح أفكاراً، ولست وحدي، لكن لم يكن هناك شيء يتناسب مع ما نحمله.

حاولنا وحاولنا كثيراً. لكن كنا دائماً نشعر أننا بعيدون. لم نفلح.

ولأجل الهجرة طرقنا كل أبواب السفارات الأوروبية في إسطنبول.

كنا نحاول الخروج بشكل نظامي أو شرعي.

كانوا يقولون إنهم يقبلون لجوءنا في بلادهم عندما نصل إليها. قالوا إننا عندما نصل إلى السويد سيعطوننا اللجوء، أو عندما نصل إلى هولندا سيعطوننا اللجوء. وكيف نصل؟

تهريب.

بمعنى أن ندفع كل ما نملك لهذه المافيا التي تتحكم بطرق التهريب. وهذا ما حدث بعد محاولات عديدة فاشلة، وبعد صعوبات واجهتها في المطار بتركيا. سافر ابني الصغير عمر إلى السويد وقام بعمل لمّ شمل لنا.

أخيراً إلى السويد

وصلنا في أوائل أيلول 2014 وأقمنا في مدينة اسمها أودوفالا بالقرب من يوتوبوري، تقريباً في جنوب السويد.

ألحقنا الأولاد بالمدارس وها هم والحمد الله قد قطعوا شوطاً كبيراً. أصبحوا في الجامعات الآن.

ونحن أيضاً نعمل. منذ بداية مجيئنا تعلمنا وبدأنا بسرعة. أنا عملت بعد شهر ونصف تقريباً من وصولنا. كانوا في حاجة إلى مدرّسة إنكليزي تتحدث اللغة العربية لمدرسة فيها طلاب سوريون من أبناء اللاجئين. كان الأطفال لا يفهمون شرح المدرّسة السويدية ولهذا احتاجوا لهذه الوظيفة وصرت أعمل هناك. وبعدها صرت أدرّس اللغة العربية كلغة أم. أنا في الأساس مدرّسة إنكليزي، وبما أنني سأقوم بتدريس اللغة العربية أيضاً فقد تابعت دراستي في جامعة يوتوبوري. هنا لا يشعر المرء كيف يمضي يومه. يلزمنا هنا أن نعدّ ساعات اليوم هل تكفي أم لا؟ فساعات الشغل طويلة، لتأتي بعدها ساعات الدراسة، وبعدها يجب أن نتعلم مهارات أخرى ضرورية للتأقلم مع المجتمع. مثلاً، لم يخطر لي سابقاً أن أتعلم قيادة السيارة ولكنها صارت ضرورية جداً لأستطيع الوصول إلى المدارس المختلفة التي أريد العمل فيها. من شروط العمل أن تكون عندي شهادة سواقة ولهذا كان من الضروري أن أتعلمها. بالإضافة إلى تعلم اللغة السويدية طبعاً.

وأنا أكملت دراسة اللغة وحصلت على فرصة عمل مع البلدية. قمت بتدريس مادة يسمّونها "صنهيل" وتعني المجتمع، أدرّس القوانين السويدية والعادات والتقاليد وقوانين العمل للاجئين الجدد باللغة العربية. وبعدها وجدت فرصة أن أتّبع كورساً سريعاً في اختصاصي في الطب البيطري، فدرسته وحصلت على شهادة ممرض أو مساعد طبيب بيطري. بعدها وجدت عملاً في عيادة أعمل فيها الآن.

طبيعة الناس هنا تختلف تماماً عن بلادنا. ليسوا اجتماعيين كما عندنا لكن بالإمكان إقامة علاقات مع هذا المجتمع. عندما تكون اللغة جيدة يصبح من السهل التواصل مع الناس. لنا علاقات جيدة مع عائلات سويدية ونتبادل الزيارات. أعمارهم مختلفة، منهم الكبار في السن ومنهم في أعمارنا.

نشعر هنا بمشاعر إيجابية فهم يحترمون الإنسان. منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها هذا البلد تعاملوا معي كإنسان. لكن يبقى الشعور بالحسرة على اضطرارنا إلى السفر. أنا لست سعيداً جداً بمجيئنا إلى السويد. "ما رمانا إلى السويد هو المرّ الموجود في سوريا". عند خروجنا كنا قد بلغنا عمراً يفكر فيه المرء كيف يتقاعد لا أن يبدأ حياة جديدة. خسرنا الكثيرين بخروجنا؛ منهم من بقي في سوريا ومنهم من انتشروا في بلدان مختلفة. يعني فقدنا العلاقات الاجتماعية وفقدنا الأصدقاء وفقدنا الألفة التي كنا نعيشها مع أهلنا وبيتنا وتاريخنا وذكرياتنا. أشعر بالحنين لكل هذا، أشعر بالحسرة. أتمنى أن يُحلّ كل شيء وأن تصل الأمور إلى مكان يسمح للناس بالعودة إلى بيوتهم. لكني أعتقد أن هذا صعب جداً طالما الظروف السياسية نفسها قائمة. هذا النظام مدعوم ومستمر. لا نستطيع أن نعود.

في ظل هذا النظام عودتنا مسألة صعبة جداً. للأسف أشعر أنه حلم بعيد كثيراً بالنسبة لي شخصياً. لكني أتمنى. أتمنى أن تصبح عندنا انتخابات ديمقراطية. وعندما يصبح من يمثّلني رئيساً للبلاد سأرجع إلى سوريا بالتأكيد.

حققنا هنا شوطاً كبيراً وجيداً جداً. ابني سيصبح محامياً الآن وابني الثاني يدرس الهندسة. صارا متميزين. فهنا لا يرغب الأولاد كثيراً بدخول الجامعات، يفضّلون العمل المهني والدراسات القصيرة، المهم أن يعمل.

نحن لم نقصّر. فعلنا كل ما في وسعنا. منذ اليوم الأول لوصولنا استأجرنا غرفة في فندق صغير تمتلكه أسرة. وصلنا إليه في العاشرة ليلاً. وفي اليوم التالي عندما استيقظ صاحب الموتيل في السادسة والنصف صباحاً وجدنا أنا ومهند وكل منا يكتب على كمبيوتره. جاء وسألنا بالإنكليزية: ماذا تفعلون؟ هل تتصلون مع أهلكم؟ قلنا له: لا، نحن نشتغل. سأل: ماذا تشتغلون ولم يمض على وصولكم سوى بضع ساعات؟ قلنا له: نعمل على مقالات لجرائد في تركيا ولندن، يجب أن نسلّمها خلال يومين. صُدم الرجل كثيراً بهذه العائلة التي وصلت منذ ساعات قليلة ومع ذلك هم جالسون يكملون عملهم. فذهب لإحضار زوجته لتتعرف علينا. استطعنا أن نتميز عن غيرنا خلال مدة قصيرة جداً. وجدوا أننا لم نأت لنعيش عبئاً على البلد أو على أي أحد.

عندما ذهبنا إلى مكتب العمل سألتني الموظفة: هل تريدين أن تعملي؟ فقلت لها: طبعاً. إذا كان هناك عمل فجدي لنا عملاً منذ اليوم. لا أريد أن آخذ مساعدة من أحد. وبالصدفة كانوا يحتاجون إلى مدرّسة إنكليزي تجيد اللغة العربية وكنت أنا. أبو علي، ورغم أنه لم يجد عملاً فوراً، إلا أنه باشر بتعلم اللغة. أما الأولاد فقد كان همنا الأكبر أن يتابعوا دراستهم ويتخرجوا، كي لا نشعر أن السنوات ضاعت على الطريق. والحمد لله علي الآن سينهي الماجستير وهو لا يزال شاباً صغيراً، عمره أربع وعشرون سنة، وعمر أيضاً يدرس في الجامعة. أتذكر أن عدة جرائد سويدية أجرت مقابلات معنا على أننا أسرة متميزة وجاهزة جداً للاندماج. كما أجرت منظمة العفو الدولية مقابلة معنا في منزلنا في السويد حول موضوع هجرتنا واندماجنا في المجتمع الجديد. وأبقت قصة عائلتنا على الصفحة الأولى من موقعها الإلكتروني لمدة سنة كاملة.

خاتمة

حين اندلعت الثورة السورية في 2011 انخرط فيها فلسطينيون كما فعل سوريون، فيما شاركت بعض القوى السياسية والعسكرية الفلسطينية المرتبطة بالنظام السوري في ممارساته القمعية التي طالت، على أيديهم، فلسطينيين بشكل أساسي. وأخيراً، رأت فئة ثالثة تضم كثيراً من الفلسطينيين السوريين أن عليهم اتخاذ موقف الحياد. غير أن ضخامة الحدث السوري لم تترك مجالاً كبيراً للابتعاد عنه والنأي بالنفس، فتعرضت بعض المخيمات الفلسطينية لما تعرضت له بلدات سورية من حصار وقصف، كما اتضح من الشهادات السابقة التي يرسم معظمها مخططاً متشابهاً.

فقد سارت الأحداث في هذه المخيمات الفاعلة على نحو واحد تجلّى في أكبرها، مخيم اليرموك على كتف دمشق. من جهة ظهور الاحتجاجات وتصاعدها بالتوازي مع ارتفاع وتيرة القمع الذي تتعرض له، بدءاً بإطلاق الرصاص والاعتقالات وصولاً إلى القصف العشوائي، المدفعي وبالطيران الحربي. ثم الحصار المطبق الذي أدى إلى كوارث إنسانية وانتهى بحملات عسكرية نفّذها النظام السوري وحلفاؤه الإيرانيون والميليشاويون والروس، ثم تهجير من تبقى من الفصائل والسكان بالباصات الخضر إلى الشمال السوري، وفرض "المصالحة" على من يريد البقاء دون ضمانات أمنية كافية.

ومن استعراض معظم الشهادات يتبين أن النظام قد ارتكب في المناطق السابقة جريمة التهجير القسري، إذ قام بإخلاء مجموعة من الأفراد والسكان من الأرض التي يقيمون عليها غير قانونياً، سواء بشكل مباشر في نهاية المطاف أو غير مباشر خلال مدة الصراع التي سبقت. فعلى أرض الواقع لم يكن إجبار المدنيين على ترك مكان إقامتهم أمراً ضرورياً لسلامتهم أو لضرورات عسكرية ملحة، ولا يمكن استخدام النزاع لتبرير التهجيرات.

وقانونياً، بالاستناد إلى بحث "خارطة التهجير القسري" غير المنشور، الذي أنجزته منظمة "اليوم التالي"، يمكن توصيف جرائم التهجير القسري التي قام بها النظام السوري على أنها جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية وحتى جرائم اضطهاد. إذ اجتمعت جميع شروط هذه الجرائم: فقد تم نقل أشخاص رغماً عن إرادتهم من أماكن سكنهم دون مبررات قانونية، وذلك مثلاً عن طريق اعتقالهم ومضايقتهم وحتى حصارهم وقصفهم والتخويف بهذه الممارسات. كما أنه كان من الجلي جداً الإدراك بأن التهجيرات كان ستحدث في إطار المسار العادي للأحداث. وبما أن هذا التهجيرات جاءت في سياق نزاع مسلح فإنها تعدّ جرائم حرب. ويضاف إلى ذلك أن حدوثها كجزء من هجوم واسع النطاق ومنهجي ضد السكان يجعلها من الجرائم ضد الإنسانية. وعلاوة على ذلك تعدّ هذه التهجيرات جرائم اضطهاد لأنها ارتُكبت في حق جماعات محددة نظراً لتوجهاتها السياسية.

وإن كان من غير المجدي مطالبة الجهات المسؤولة عن هذه الجرائم بأي مراجعة لسياساتها أو التعويض عن نتائجها فإنه من البديهي أن يتوجه الخطاب إلى جهتين؛ أولاهما وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين "الأونروا". فهي المسؤولة عن هؤلاء اللاجئين المهجّرين إلى الشمال طالما أنهم مسجّلون على قيودها وما زالوا في الإطار الجغرافي لعملها، لإيصال حصتهم من المعونة على الأقل، إن لم تجرِ العناية بما هو أكثر من ذلك بالنظر إلى وضعهم الحالي كمنكوبين.

أما الجهة الثانية فهي منظمات المجتمع المدني العاملة في الشمال السوري، لمعالجة مشكلة ضعف الاندماج، الذي بدا من معظم الشهادات، مع المجتمعات المضيفة. وإذا كان لهذا الشرخ وجه مادي يتمثل في إيجارات المنازل والتنافس على فرص العمل القليلة المتاحة، مما قد يتطلب حلولاً في الإسكان أو دعم مشاريع تشغيل؛ فإن له كذلك جوانب ثقافية واجتماعية يمكن العمل على معالجتها ببرامج تصمم خصيصاً أو بجلسات حوار مجتمعي أو بنشاطات تعيد تذكير أفراد المجتمعات المحلية بالنكبة الفلسطينية الأولى وتنبّه إلى نكبتهم الثانية التي نتجت عن مشاركة المهجّرين الفلسطينيين في الثورة على قدم المساواة مع السوريين، وتعرضهم لمسيرة القمع والحصار والاقتلاع، تماماً كما حصل مع سوريين مهجّرين من مختلف المناطق.

2022
© جميع الحقوق محفوظة لمنظمة اليوم التالي